مؤسسة علال الفاسي

علال الفاسي

في الدروس الحسنية الرمضانية

1381 ---- 1393

إخراج وتحقيق

عبد الرحمن بن العربي الحريشي

مدير مؤسسة علال الفاسي

الدروس الحسنية الرمضانية
رقم الايداع القانوني: 1374/2000
الرقم المعياري الدولي للكتب " ردمك " 9954/0/0540/4
التصفيف : سلطانة الجيار " مؤسسة علال الفاسي "

الطبعة الأولى 1421-2000
© جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

لقد كان للأستاذ الجليل الزعيم علال الفاسي رحمه الله حضور متميز في الدروس الحسنية الرمضانية " وهي الدروس التي كان يلقيها ثلة من علماء المغرب في شهر رمضان من كل عام بمحضر ملك البلاد وجلة من علمائها الكبار " والتي قرر جلالة المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه . تدشين إحيائها في عهده . مساء يوم الاثنين سابع رمضان 1381هـ . موافق 2 يبراير 1962 م .

فكما كان الدرس الاول من هذه الدروس من القاء الاستاذ علال رحمه الله ، وكان عبارة عن تحليل عميق للسيرة النبوية ماخوذة من القرآن الكريم والحديث النبوي الحنيف .

فقد استمر على هذا المنوال في السنوات المتوالية ، حيث كان رحمه الله يلقي دائما أول الدروس الحسنية الرمضانية كلما هل رمضان المعظم من كل عام .

وقد بلغ ما القى رحمه الله من الدروس بهذه المناسبة عشرة ، نتوفر في مؤسسة علال الفاسي على تسجيلات صوتية للثمان الاخيرة منها كانت الاذاعة الوطنية المغربية قد زودتنا بها مشكورة .

أما الدرسان الأولان منها فلم نعثر عليهما لا مسجلين ولا مكتوبين في سجلات المؤسسة أو دفاترها ، وإنما اطلعت على تاريخ القائهما وموضوعهما في جريدة الحسنى : التي كان يصدرها الاستاذ علال حينما كان على رأس وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الاسلامية. وذلك في عددين منها :

الاول بتـــاريخ : 11 رمضان 1381 هـ موافق 11 يبراير 1962 م
والثاني بتاريخ : 6 رمضان 1382هـ مـــوافق ليبراير 1963 م

وهذا جدول بموضوعات هذه الدروس وتاريخ القائها :

التاريخ	الموضوع	ملاحظة
7 رمـــضـــان1381 / 1962 :	تحليل عميق للسيرة النبوية	غيرموجود
2 رمـــضـــان1382 / 1963 :	شرح حديث: الحلال بين والحرام بين	غيرموجود
رمضان 1384 /27 يناير1964 :	شرح اول حديث : ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي	
رمضان 1384 / 3 يبراير 1964 :	شرح باقي حديث : ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي ...	
رمضان 1385 / 3د جنبر 1965 :	القرآ ن معجزة خالدة	
10 رمضان 1386 / .....1966 :	شرح حديث : أي الإسلام خير ؟	
رمـضـان 1388 / نونبـر1968 :	شـرح حـديث : من يرد الله به خـيـرا يفقهه في الدين ..	
رمضان 1389/ .....1969 :	شرح حديث : أنا أولى من كل مؤمن من نفسه	
رمضـان 1393 / اكتـوبر 1973 :	شرح حـديث : مثل المدهن في حدود الله .....وهو الدرس الوحيد الذي وجدته مكتوبا بخطه رحمه الله . وعلى المخطوط اعتمدت في التصحيح .	

# # #

وحيث ان الاستاذ علال كان يلقي دروسه هذه ارتجالا ولم أجد مكتوبا منها " كما قلت " الا الدرس الأخير .

وحيث حصلت على تسجيلات صوتية لثمان منها من الاذاعة المغربية " كما سبق " فقد عملت على إخراجها من تسجيلاتها الصوتية وتحقيقها وتصحيحها واعدادها للطبع .مستعينا ومنوها وشاكرا لكل من :

" الدكتورة الاستاذة نجاة المريني على قيامها باخراج وتحقيق الدرس الثالث : " القرآن معجزة خالدة"

والاستاذة فضيلة الحريشي على إخراجها الدرسين الاول والثاني : " شرح حديث : ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي .."

واستجابة للرغبة الملحة التي طالما عبر عنها كثير ممن كان استمع اليها في حينها وأعجب بها . أو سمع عنها ولم يحظ بالاطلاع عليها مدونة في مؤلف خاص .

فإن مؤسسة علال الفاسي سعيدة بأ ن تختارذكرى مرور أربعين عاما على تدشين أول الدروس الحسنية الرمضانية " رمضان 1381هـ مناسبة لإخراج الدروس الثمانية التي تتوفر عليها مسجلة من دروس الزعيم علال الفاسي رحمه الله وعرضها على المهتمين والباحثين في طبعة محققة ومصححة . نرجو أن تنال من المطلعين عليها كل إعجاب وتقدير .

والمؤسسة أخيرا تأمل من الله العلي القدير أن يوفقها بعنايته لمتابعة عملها الدؤوب المتمثل في جمع تراث علال الفاسي وحفظه ونشره .

إنه ولي التوفيق والرشاد والسلام .

الرباط فاتح رمضان الأبرك 1421. 27 نونبر 2000

الدّرس الأوّل

في شرح الفقرات الأولى من الحديث الشريف:

"يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا"

رمضان 1384 - يناير 1964

الدرس الاول

في شرح الفقرات الاولى من الحديث الشريف :

" ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا" (1)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الامي ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا الى يوم الدين .

وبسندنا المتصل للشيخ الإمام ، الحافظ الحجة الهمام ، ابي عبد الله مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري رضي الله عنه ، بسنده عن سيدنا ابي ذر العفاري رضي الله عنه عن مولانا رسول الله صل الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ، قال " ياعبادي ، اني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا . ياعبادي ، كلكم ضال الا من هديته ، فاستهدوني اهدكم ، ياعبادي ، انكم تذنبون (تخطئون) بالليل والنهار وإنني أغفر الذنوب جميعها ، فاستغفروني اغفر لكم ..." الى آخر الحديث الشريف .

هذا الحديث هو من الأحاديث القدسية ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتي ينسبها عليه الصلاة والسلام الى ربه تعالى .

---

(1) القسم الاول من درس الاستاذ الجليل علال الفاسي رحمه الله حول الحديث الشريف :" ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا "

وقد كان القاه رحمه الله مساء يوم 27يناير1964 في حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه مفتتحا به المجالس الحسنية الرمضانية عام 1384 .

هنالك فرق بين الأحاديث النبوية وبين الأحاديث القدسية وبين نصوص القرآن الكريم ، فأما كتاب الله تعالى ، فهو الكتاب المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته والذي وقع الاعجاز بكله وبجزء منه . هذا هو القرآن الكريم ، وهو الذي يتلى بين دفتي المصحف وهو متواتر عن رسول الله صل الله عليه وسلم بحيث لا نشك لحظة في ان ما نتلوه بين دفتي المصحف خرج من بين شفتي النبي صلى الله عليه وسلم ونقل الينا بالاسانيد المتواترة ، فنصوصه قطعية ولا تقبل المعارضة . وهذا هو كتاب الله ، ويجب لقراءته فروض وآداب ومن جملتها ان يكون الإنسان متطهرا الطهارة الكبرى والصغرى ، ومن جملة ذلك ان لا يمس المصحف الا متطهر ، وان لا يمسه الا مومن وألا يباع لغير المسلمين ، هذا ما يرجع للقرآن الكريم ،وهو الذي تصح تلاوته في الصلاة ولا تجوز الصلاة بدونه ، وهذا من خصائص القرآن .

وأما الحديث النبوي فهو الذي ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم باللفظ والمعنى ، بمعنى ان لفظه ومعناه كلاهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذه الأحاديث النبوية منها ماهو في درجة المتواتر ، وهو الذي رواه جمع يستحيل عادة تواطؤه على الكذب من اول سنده الى آخره ، وهو قطعي من جهة ثبوته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واما من جهة الدلالة فهي ظنية كما لا يخفى ، واما الأحاديث خبر الآحاد فهو القسم الثاني وهو الذي ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير طريقة المتواتر وفيه أقسام كثيرة يعرفها علماء اصطلاح الحديث ولا محل للحديث عنها الآن . هذا هو الحديث النبوي .

وأما الحديثالقدسي فهو الحديث الذي يصل للنبي صلى الله عليه وسلم من ربه اما بطريق الإلهام وإما بطريق المنام ولكن لفظه يكون من عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فلفظه ناشيء محدث ليس كلفظ القرآن . والقرآن الكريم يوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل ،والكلام القدسي يوحى الى النبي صلى الله عليه وسلم بطريق الإلهام أو بطريق حديث النفس أو بطريق المنام ، " وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء " . ولذلك لا يصح ما قاله المناوي هنا من ان الحديث القدسي أيضا يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن ربه سبحانه وتعالى لأن الذي يرويه النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الباري عز وجل هو كتاب الله تعالى وهذه من الفوارق التي يفترق به الحديث القدسي عن القرآن ، وهنالك مَجموعة قيمة من الأحاديث القدسية خصها بعض المؤلفين القدماء وأوصلوها الى مائة حتى جاء السيد عبد الرؤوف المناوي المصري القاهري فالفها وجمعها فاصبحت مائتين وثلاثا وسبعين حديثا قدسيا . وقد كان الفضل للسيد منير الدمشقي ، فطبعها مع شرح مختصر عليها في المطبعة السلفية بمصر ، فهذا الكتاب القيم يشتمل على مجموعة من الأحاديث القدسية الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها ما يكون خطابا من الباري عز وجل ، ومنها ما يكون مقالا ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم حكاية عن الباري تبارك وتعالي .

هذا الحديث الذي نرويه الان هو من هذه الأحاديث القدسية التي يكون لفظها من عند رسول الله ، أما معناها فهو إلهام من الباري عز وجل ، وهو من الأحاديث القيمة التي كان يعتز بها المحدثون وفطاحل العلماء المسلمون ، حتى أن الإمام احمد بن حنبل

رضي الله عنه كان يقول : حديث " ياعبادي " هو اشرف حديث رواه أهل الشام لان رواته كلهم دمشقيون . وكان ابو ادريس الخولاني حسب ماروواه الامام مسلم على إثر ذكره لهذا الحديث الكريم ، كان إذا حدث بهذا الحديث القدسي جثا على ركبتيه تعظيما له واحتراما . وقد اشتمل على فوائد جمة وأصول عديدة من الأحكام وفروع كبيرة مفيدة لجميع الأنام . فهو مشتمل على كثير من المعاني وكثير من القواعد الفقهية من الفقه الأصلي ومن الفروع الفقهية كذلك ، وهذا هو الحديث :

قال الراوي عن ابي ذر رضي الله عنه :

سيدنا أبو ذر الغفاري هذا هو الصحابي الجليل ، رابع أربعة اسلمو واتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد حدثنا أبو ذر الغفاري في صحيح مسلم عن طريقة إسلامه والمشقة التي لا قاها والمصائب التي عاناها حينما وصل الى مكة حتى وصل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل الإسلام ، قال أبو ذر :" كانت غفار تحل الأشهر الحُرُم ، فخرجت أنا وأخي وأمي وأضافنا خال لنا فاكرم ضيافتنا ثم حسدنا قومه ، حسدونا على أنه أكرمنا لمدة طويلة ونحن مقيمون عنده ، فقالوا له ا ن أنيس"و أنيس هذا هو أخو ابي ذر الغفاري وهو من شعراء الصحابة المجيدين المكثرين رضي الله عنه " قالوا له ان أنيسا هذا حينما يخرج خاله يصل الى زوجة خاله ، فنفى ذلك علينا اي افشاه وأذاعه ، لم يكتم ذلك السر خالهم فنفاه عليهم وافشاه وأذاعه ، فقالوا له أما احسانك الذي احسنت الينا من قبل فانك قد افسدته بما قلته ولا جماع بيننا بعد اليوم ، ثم اخذوا صرمتهم وهي ثلاثون من الإبل ، خرجوا بها ورحلوا . أما خالهم فقد وضع الثوب على وجهه وأخذ يبكي لما وقع بينهم ولفرقتهم ، ثم ذهبوا مع تلك الصرمة ، ابو ذر وأنيس أخوه

وأمهما حتى دخلوا الى مكة المكرمة ، وذهب أنيس الشاعر ينافر الشعراء فنافر على صرمتين أي على أن يعطي صرمته التي هي ثلاثون ناقة أو ياخذ ثلاثين ناقة من عند شاعر آخر ، فغلب أنيس وأخذ الثلاثين ناقة ثم توجه الى الكاهن ، فاستشاره فيما يفعل ، فخيره الكاهن في ذلك ، فرجع بصرمتين أي رجع بستين ناقة ، ثم قال لأبي ذر انتظرني هنا حتى أذهب لاختبر ولا ستخبر عن هذا الخبر الذي يقولون أن صابئا قد وجد وهو محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابو ذر وكنت قد عبدت الله سبحانه وتعالى ثلاثة اعوام ، يا ابن اخي ، قبل ان أرى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال الراوي : سالت أبا ذر " وبماذا عبدت الله ؟"قال : عبدته وحده لا شريك له . قال كنت أصلي العشاء وما أزال أصلي حتى أنام وكانني شيء ملقى ، وكانني جفاء وفي رواية وكانني خُفاء وهي إحدى الاخفية وهو الثوب الملقى في الارض يعني من شدة تعبه يلقى في نومه حتى كانه خفاء ، فذهب أنيس يستوضح عن ذلك ثم رجع فقال له :

ياأخي لقد قالوا عن محمد أنه كاهن ، وقالوا انه شاعر ولقد سمعت للكهان فو الله لا يشبه كلامهم كلامه أبدا ، وسمعت كلامه وعرضته على أقراء الشعر اي على الشعر ومناهجه فما وجدته يلتئم بعدي مع أحد منها ، ثم قال السيد أنيس والله ان محمدا لصادق وانهم لكاذبون ، قال ابو ذر فانتظرني أذهب أنا أرى كذلك كما رأيت . فتوجه سيدنا ابو ذر الغفاري رضي الله عنه حتى أتى مكة وصار حتى اقترب من البيت قال فتضعفت رجلا يعني وجدت رجلا فاعتبرته رجلا ضعيفا وأحببت أن اساله وظننت أنه سيرشدني ولا يسيء إلي ولكن الأمر كان بالعكس ، فقلت له أين الصابيء يعني أين محمد وكانوا يلقبون النبي صلى الله عليه وسلم بالصابيء والصابيء هو الذي يصبو عن دينه او يصبأُ عن دينه وكانت قريش

لا تهمز الكلمة فيقولون صبا ويجمعونها على صباه أو على صباء ، قال له ذلك الأعرابي وأشار اليه وأشار الى العرب الواقفين هناك " هذا هو الصابيء " فلم تبق نظرة ولا حجارة إلا نزلت على أبي ذر رضي الله عنه فضربوه قال " حتى أصبحت من شدة الجراحة أحمر كالنُّصُب " النصب هي تلك الحجارات التي تنصب للأصنام يذبح عليها فمن شدة النحيرة التي تنحر هناك تصير حمراء . قال صرت احمر من شدة الضرب حتى كانني النصب ثم ذهبت الى بير زمزم فشربت منه واغتسلت وغسلت الدم وبقيت ثلاثين يوما لا أجد ما أكله إلا ماء زمزم أشربه ولقد سمنت حتى تكسرت عكمي (أي جوانب جلد بطنه) ووالله ما وجدت ولا أجد في كبدي سخفة جوع اي لا يجدلمس الجوع ،ذلك اللمس الرقيق الذي يمس الانسان حينما يكون جائعا ، فتوجه رضي الله عنه بعد ثلاثين يوما الى الكعبة في ليلة قمراء أضحيان يعني فيها القمر وكان العرب إذ ذاك قد أخذ الله باصمختهم اي ناموا والأصمخة هي الثقب الذي يصل من الأذن الى الرأس .غطى اصمختهم النوم فلا يسمعون شيئا .

قال فلما وصلت الى هناك وجدت امرأة ورجلا يطوفان بايتاف ونائلة ، صنمان كانا للعرب هناك ، يقول العرب في خرافاتهم انهما كانا متحابين فانتقلا من الشام لزيارة الكعبة فبينما هما في الطواف اذ قبل الرجل المرأة فاصابهما المسخ فمسخا صنمين هناك ، هكذا تقول العرب والغريب أنهم بعد أن قالوا هذا أخذوهم آلهة يعبدونهم ويطوفون لهم . فجاء هذا الرجل وهذه المرأة يطوفان بايتاف ونائلة ويدعوان اليهما ، فتقدم هذا السيد أبو ذر وقال لهم كلمة أغضبتهم ولكنهم لم يزيدوا على أن واصلوا عملهم ثم قال لهم كلمة بملىء فمه ، كلمة فُحش ، فقالت تلك المرأة :

ياليت أنصارنا كانوا هنا فترى ما يفعلون بك " ثم ذهبا " ذهب الرجل والمرأة ، وبينما هما طالعان من الكعبة ، اذا بالنبي صل الله عليه وسلم وابي بكر الصديق نازلان للطواف وكان الوقت لا يزال وقت اختفاء كما تعلمون ، فكانا ينزلان للطواف في الليل ، فبعدما طاف ابو بكر الصديق وسيدنا صلى الله عليه وسلم تقدم اليه ابو ذر الغفاري وقال له :" السلام عليك يا رسول الله " فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :" ممن أنت ؟" فقال " أنا من غفار " فوضع النبي صلى الله عليه وسلم أصابعه على جبهته وأطرق قليلا قال أبو ذر :"فحسبت أنني قد فعلت سوءاحيث أخبرته أنني من غفارفذهبت آخذ بيده الكريمةوكان صاحبه ، يعني ابا بكر الصديق ، أعرف مني فقدعني اي دفعني عنه ، ثم بعد ذلك رفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه وقال له : " كم لك هنا " قال ثلاثون ما بين يوم وليلة " قال : " وماذا كنت تاكل ؟" قال : " لم أكن آكل شيئا ، إنما كنت أشرب ماء زمزم حتى سمنت عُكم بطني وتكسرت " فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :" نعم الماء ماء زمزم وانه طعام طعم (يعني طعام مطعم) يشبع كما يغني عن الشراب كذلك ". هكذا قال له النبي صلى الله عليه وسلم . فقال ابو بكر الصديق :" إئذن لي يارسول الله ان أطعمه الليلة " فذهب النبي عليه السلام وابو بكر الصديق وابو ذر الى منزل ابي بكر الصديق رضي الله عنه فاطعمهم قبض لهم الزبيب الطائب فاعطاهم إياه فاكلوا ، قال ابو ذر : " فذلك أول طعام أكلته بعد وصولي الى مكة وبعد دخولي في الاسلام ". ثم بعد ذلك غاب مدة طويلة . ثم جاء الى رسول الله صل الله عليه وسلم فقال له : " يا أبا ذر ، إنني وو جهت بارض فيها نخيل كثيروأظنها يثرب ، وأرى إذا شئت ان تذهب فتبلغ عني الى قومك فلعل الله يدخل بك في الاسلام خلقا كثيرا . وكان مراد النبي صل الله عليه وسلم أنه سيذهب الى الهجرة يوري له بالهجرة النبوية . فذهب سيدنا ابو ذر الغفاري رضي الله عنه

الى أخيه فاخبره انه اسلم وصدق النبي صل الله عليه وسلم . فقال له :" إنني لا أرغب عن دين آمنت به ". فآمن أخوه أنيس رسميا . ثم توجه الى أمه فآمنت ، ثم ذهب الى غفار ، قبيلته فأسلم نصفها وأما نصفها الآخر فقالوا له :" عندما يأتي رسول الله صل الله عليه وسلم الى المدينة المنورة سندخل في الاسلام ". وفعلا بعدما وصل عليه الصلاة والسلام الى المدينة المنورة أسلم باقي غفار . ثم كانت قبيلة أخرى اسمها أسلم هي حليفة لغفار فاسلمت كذلك . فقال النبي صل الله عليه وسلم :" غفارغفر الله لها وأسلم سالمها الله ".

هذه قصة اسلام سيدنا أبي ذر الغفاري وقد كانت زيارته للكعبة ولمكة المكرمة ودخوله في الدين بركة عليه وعلى قبيلته وعلى أحلاف قبيلته . فدعا النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالمغفرة وبالسلامة ناهيك بها دعوة طيبة من رسول كريم . ثم إن سيدنا أبا ذر رضي الله عنه كان من الصحابة المبشرين بالجنة ، . وكان من الزهاد ومن المتصوفة ، وهو شيخ الصوفيةمن بعد ، اتخذه الصوفية علما لهم واعتبروه مثالا في الزهد . وهو كذلك مثل في الاشتراكية الاسلامية التي كان أول من نادى بها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وفي زمن معاوية رضي الله عنه وقد كان ابو ذر يقول عن فضائله متحدثا بنعمة الله عليه للصحابة :" انني اقربكم مجلسا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة " فاذا سألوه عن سبب ذلك قال لهم :" ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني ان أقرب الناس مجلسا إليه يوم القيامة هو الذي يبقى على ما تركه عليه بعد موته . وما منكم إلا تسبب في هذه الدنيا بشيء غيري " وقد كان سيدنا صلى الله عليه وسلم يقول عن أبي ذر : " انه أمة وحده "، يعيش وحده ويموت وحده لأنه كان له رأي شاذ في مسالة الملكية العامة فكان لا يقول بحقية الامتلاك لأحد وكان يتأول قول الباري سبحانه

وتعالى : " و الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ."

هذه الآية الكريمة يتأولها عموم المسلمين وهو التأويل الرسمي في الاسلام السني ، يتأولها المسلمون على أن المقصود بها الاحتكار والمنع من الزكاة الشرعية ، وأما سيدنا أبو ذر الغفاري فكان يقول ان معناها احتكار المال والاكتساب مطلقا يعني الاحتفاظ بما اكتسبه الانسان مطلقا وكان يقول :" لا يجوز للانسان ان يملك أكثر من درهمين درهم ينفقه على عياله ودرهم يقدمه لآخرته ".

وفي ذلك يروي حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحدث به في المسجد النبوي بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يتحدث بذلك في عهده عليه الصلاة والسلام . كان يقول :" حدثني خليلي " فإذا قيل له :" من خليلك ؟ " يقول : محمد صلى الله عليه وسلم " حدثني خليلي فقال : اجعل المال درهمين ، درهم تنفقه على عيالك ودرهم تقدمه لآخرتك ، الثالث يضرك ولا ينفعك ولا تريده " وكان يقول أيضا في الحديث : قال لي خليلي : قلت ومن خليلك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اجعل الدنيا مجلسين مجلسا في طلب العلم ومجلسا في طلب الآخرة ، الثالث يضرك ولا ينفعك ولا تريده " هذه هي فلسفة سيدنا ابي ذر ، ومع ذلك قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم :" لا يوجد أحد أصدق لهجة من أبي ذر رضي الله عنه ما أقلت الخضراء ولا أظلت الغبراء أحدا أصدق لهجة من ابي ذر " هكذا قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم . وقال عنه سيدنا علي بن ابي طالب : " ان أباذر وكاء مليء علما ثم أوكي عليه " فهذا دليل

على عظمة هذا الرجل الكبير سيدنا ابي ذر رضي الله عنه . وبعدما توفى النبي صلى الله عليه وسلم صدقت نبوءته فيه فقد ارتحل الى الشام وأقام في زمن سيدنا معاوية رضي الله عنه ولكنه رأى الناس يسمون الفيء أي الغنيمة بمال الله فلم تعجبه هذه التسمية لأنه كان يعتبرها تملصا من أداء المال الى الفقراء والى المساكين فكان يقول لهم لا تسموا هذا المال مال الله ولكن سموه مال المسلمين . وقد جمع من حوله جماعة من الضعفاء والمساكين ، وكان يتوجه الى معاوية يطالبه بما ينفقه على المسلمين في هذا السبيل ويقول له : " ان المال مال المسلمين وليس مال الله ، فعليك ان تصرفه كما كان يصرفه النبي صلى الله عليه وسلم وكما كان يصرفه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم . فاشتكى به سيدنا معاوية الى سيدنا عثمان رضي الله عنه فطلب نقله الى المدينة وفي رواية أن اباذر هو الذي فرّ بنفسه الى المدينة وانه اختار المقام في الربدة . وفي رواية انه اجتمع عليه خلق كبير في المدينة المنورة فلم يقو على البقاء فامره سيدنا عثمان بان ينتقل الى الربدة وهى على ثلاث مراحل من المدينة المنورة . ولم يزل هنالك يعلم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان يصوم كثيرا ويصلي ويتهجّد ، وكا ن يعلم هذه المباديء التي سمعناها حتى توفي رضي الله عنه . وأوصى بأن لا يجهزه أحد ممن يكتسب بوسائل غير كدّ يمينه ، حتى جاء سيدنا عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ، فهو الذي كفّنه وصلى عليه وقد توفى سنة ثلاثين بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم وقد قيل بعد سنة الواحد والثلاثين بعد موته عليه الصلاة والسلام .

نستفيد من ترجمة سيدنا ابي ذر الغفاري رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقبل في عصره وفي عهده عليه

السلام الافكار التي لم تكن تتفق مع معظم المسلمين ومع فكرة الرسول صلى الله عليه وسلم والتفسيرات التي كان يعطيها اذا كانت اجتهادا وتاويلا لكتاب الله سبحانه وتعالى . وهذا أعظم ما يمكن من الحرية التي وضعها سيدنا صلى الله عليه وسلم في مثل هذه الاشياء التي ترجع لشؤون التشريع الاسلامي ولشؤون الدين ، وذلك هو الذي يفتح باب الاجتهاد لجميع المسلمين ، وباب الاجتهاد هو الوسيلة التي جعلها الباري سبحانه وتعالى لاشراك المسلمين في قضية التشريع في غير المسائل التعبدية وفي غير مسائل التوحيد التي لا تبديل فيها ولا تغيير ، فكل ماهو من قبيل المصلحة العامة فإن للمسلمين ، اذا كانوا من أهل العلم القادرين على ذلك ، ان يجتهدوا وأن يبدوا رأيهم في ذلك ، وما يراه عامة المسلمين والمجتهدون اذا اجتمعوا على شيء وجب اتباعه ، فان لم يجمعوا على شيء وكانت أغلبية من العلماء والمجتهدين يقولون به وجب اتباعه ، ولكن يجوز لصاحب الرأي الفرد ان ينفرد به عن الاجماع وان ينفرد به عن الكثرة الكاثرة من العلماء ، وهذا ما يدل عليه معاملة النبي صلى الله عليه وسلم لسيدنا ابي ذر الغفاري رضي الله عنه والحقيقة ان الاسلام متفق في خطوطه العامة مع هذه المباديء التي كان يعلمها سيدنا ابو ذر الغفاري وانما كان يشوب افكاره بشيء من الزهد والتصوف الذي لا يقوى عليه الجميع ، هذا هو راوي هذا الحديث الكريم سيدنا ابو ذر الغفاري ، وما أجدر هذا الحديث الكريم أن يكون راويه ابا ذر الغفاري رضي عنهم جميعا .

قال أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه يحتمل ان يكون أبو ذر قد قال هذه الكلمة ويحتمل ان تكون قد زيدت من رواة من بعده أو من مؤلف الصحيح وهو الامام مسلم رضي الله عنه ليدل بها على ان هذا الحديث هو من الاحاديث

القدسية ومن المعلـــوم ان الأحاديث القدسية يرويها النبي صل الله عليه وسلم عن الباري عز وجل .

قال تعالى :" يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلاتظالموا ".

النداء موجه للعباد ، والعباد جمع عبد مثل العبيد كذلك وله جموع كثيرة معروفة عُبداء وعِبدان ، وعِبِدّان الى آخره . هذه المجموع الكثيرة التي للعبد منها عبادي. والمقصود بالعباد هنا " قال الشراح" ما يشمل الإنس والجن وبالغ غيرهم حتى قال إنه ما يشمل جميع الكائنات لأن جميع الكائنات مسخّرة للباري لأنه هو الذي خلقها ، فهي من عباد الله سبحانه وتعالى . ولكن يعجبني كلام السيد المناوي في شرحه هنا حيث قال ان المقصود بالعباد الانسان ، جنس الانسان ، فالخطاب موجه للناس قاطبة ، فمعنى قول الباري عز وجل " ياعبادي " ؟ يا أيها الناس الذين خلقتهم وأكرمتهم وسخرتهم لعمارة هذه الارض إنني محدثكم عما يجب أن تقوموا به لمصلحتكم ولامتثال أمري .

" يا عبادي " والعبودية هذه درجة كريمة طالما بالغ الصوفية في الكلام عنها حتى ان سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم خُير بين ان يكون نبيا ملكا وبين ان يكون نبيا عَبدًا واختار أن يكون نبيا عبدا ولذلك ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يعتبر العبودية لله شيئا عظيما .

وقال الشاعر الصوفي في هذا المعنى :

ياقَوم قلبي عند زهـراءِ	يعرفه الذاهبُ والراءِ
لا تدْ عُني إلا بيا عَبْدَهـا	فإنه أشرف أسمـــاءِ

والعبودية اذا تحقق بها الانسان تعني تمام المحبوبية وتمام المحبة للباري عز وجل .

والله سبحانه وتعالى في هذا الحديث الكريم أخبرنا عن شيء مستحيل في حقه سبحانه وتعالى ، وتحدث عنه كانه شيء ممكن الوقوع ولكن ليبني عليه ما بعده وهو في الحقيقة مجرد وصف كاشف لصفة ذاتية للباري عز وجل وهي العدل وعدم الظلم ، فالإله لا يمكنه ان يُتصوّر ظالما أبدا ، لا عقلا ولا شرعا . ولكن الباري عز وجل مع ذلك قال : " ياعبادي ، اني حرمت الظلم على نفسي " والتحريم يعني المنع ومعنى هذا انه ممكن الوقوع ولكن الامكان لا يصح هنا . فالمقصود ان الظلم لا يمكن أبدا ان يقع مني اي من الباري عز وجل ، فهومن باب المشاكلة في التعبير ليس الا، وقد أراد سبحانه وتعالى ان يدلنا بهذه الصفة في التعبير "والتعبير في الحقيقة من كلام سيدنا صلى الله عليه وسلم " أراد أن يدلنا بهذه الطريقة في التعبير على أن الانسان يجب عليه وينبغي له لكي يتخلق باخلاق الانسانية الكاملة ان يتخلق باخلاق الله ولذلك ثبت في الحديث الضعيف ، حديث ضعيف ولكنه يذكر في الفضائل ويعتمده العلماء الاخلاقيون كثيرا وهو قولهم " تخلقوا باخلاق الله " والمقصود ان الانسان ياخذ أخلاق الباري عز وجل أي صفات الباري عز وجل مثلا أعلى يقبس منه بقدر الاستطاعة وإلا فلا يمكن لمخلوق سواء كان نبيا أو رسولا أو وليا او ملكا ان يصل ولو لجزء يسير من أخلاق الباري عز وجل ، المقصود من هذه الصفات الالاهية الاقتداء والاقتفاء والتخلق وبذل الجهد للتخلق بقدر الاستطاعة كما ثبت في هذا الحديث " تخلقوا باخلاق الله " هذا معنى قوله :" يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي "

والظلم في اللغة هو وضع الاشياء في غير موضعها . وهذا الحديث كان سببا لخلافات كثيرة ومجالات كبيرة بين أئمة الدين لا من جهة السلفيين ولا من جهة السنيين الأشاعرة والماتريدية ولا من جهة المعتزلة ولا غيرهم من علماء المذاهب كلها ، كانت لهم مجالات في هذا الموضوع ، في معنى إطلاق الظلم على الباري سبحانه وتعالى وماهو الظلم الذي يمنع وقوعه للباري ، والصواب الذي استقر عليه راي السلفيين وإمامهم العلامة ابن تيمية رضي الله عنه هو تفسير لغوي اي وضع الشيء في غير موضعه . ومعنى ذلك أنه يستحيل في حق الباري عز وجل ان ياتي لرجل أحسن واستحق الحسنات فياخذ حسناته ويعطيها الى غيره أو يضع مكانها سيئات ، هذالايمكن ان يفعله الباري ولذلك منع سبحانه وتعالى نفسه من ذلك .

وإطلاق النفس كذلك على الباري إنما هو من قبيل المشاكلة لان النفس منفوسة . ولكن اذا أريد بالنفس الذات فان الله سبحانه وتعالى ذات متصف بالصفات فيصح إطلاقها عليه ، أما اذا أريد بالنفس حقيقة النفس المنفوسة فإن إطلاقها هنا إنما وقع من باب المشاكلة لا يصح إلا إذاكان بهذا المعنى .أما حقيقة ذاته فالله أعلم بها .

" إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما " يعني رجوت منكم ورغبت منكم واردت منكم ان تكونوا متخلقين باخلاقي ، مقتفين آثاري فجعلت الظلم محرما بينكم .

" فلا تظالموا " هكذا بحذف احدى التاءين والاصل فلا تتظالموا ومن المعلوم أنه اذا اجتمعت تاءان وكانتا متساويتين فإنه يجوز حذف الاولى منهما . اما اذا كانتا غير متساويتين فإنه لا يجوز حذفهما كما اذا قيل تُتَظالم فانه حينئذ لا يصح حذفها :في هذه

الصـــورة تحـــدف التـــاء الاولى " فـــلا تظالموا " وهذه هـي الرواية المشهورة ، وهنالك رواية أخرى " فلا تظالموا " بالاضغام اي فلا يظلم بعضكم بعضا .

والظلم أنواع كثيرة والديانة الاسلامية وجميع الشرائع تقوم على أمرين الأوامر وهي العدل والنواهي وهي الظلم ، فأول درجات الظلم هو الشرك بالباري عز وجل " ان الشرك لظلم عظيم " فاذا أشرك الانسان بالباري عز وجل وارتكب هذه الجريمة (فإن الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء " واول درجات العدل هو ان يقر الإنسان بوحدانية الله وألا يشرك معه أحدا لا في ألوهيته ولا في ربوبيته ، اما الشرك في الألوهية فهو أن يدعو الانسان مع الله سبحانه وتعالى ربا غيره او إلاها شجرا أو حجرا أو وثنا أو وليا أو صديقا أو نبيا أو رسولا ، كل ذلك لا شرك له مع الله سبحانه وتعالى . الرب رب ، والعبد عبد ، واما شرك الربوبية فهو أن يتولى تشريعا في المسائل الدينية ، " ام شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله " اي أن يتولى تشريعا في المسائل الدينية لا يأذن به الباري عز وجل .

فهذا يسمى شرك الربوبية ودليل ذلك ان الله سبحانه وتعالى قال : " اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله " وقد سئل ابن عباس عن تأويل هذه الآية الكريمة ، فقال انهم أحلوا لهم الحرام و(يعني الرهابنة) فاتبعوهم وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم ، فتلك عبادتهم إياهم ، فهذه العبادة هي شرك في الربوبية ولذلك لا يجوز لمسلم ان يتسرع في شؤون الدين بما لم يأذن به الله إلا اجتهادا أو تاويلا لكتاب أو سنة لأن الخطابات الشرعية ما تزال قائمة وعليها ينبني الاثبات والنفي في جميع الأحكام ، ومن جملة

الخطابات الالاهية القياس في المصلحيات والاستحسان وغير ذلك من وسائل التشريع الموجودة والمعترف بها في الاسلام ، المصلحة المرسلة والاستحسان وغير ذلك من ضروب القياس ، ولكن الخطاب واحد وهو خطاب الله تعالى للمكلفين ، فالباري عز وجل هو الذي يعطي للاشياء صفتها فيقول هذا الشيء حلال وهذا الشيء حرام ، الحلال بين والحرام بين ، وذلك مبين في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم واجتهاد الأئمة ، وكذلك أيضا الظلم يدخل في المعاصي ، فكل أنواع المعاصي في الحقيقة يظلم بها الانسان نفسه ، سواء كانت هذه المعاصي من المعاصي الفردية ، او كانت من المعاصي الاجتماعية ، اما المعاصي الفردية فهي ان يرتكب الانسان بعض الدنوب من الكبائر كالكذب أو بعض الأمور التي لا تمس الآخرين مسا كبيرا ، وأما المظالم الاجتماعية فهي أن يرتكب الانسان الفضائع التي تمس بالمجتمع أما غشا أو خيانة أو خديعة أو أخذ رشوة أو ظلما في الحكم أو غير ذلك من أنواع المظالم ، وقد يظلم الانسان نفسه وقد يظلم أسرته وقد يظلم شعبه وقد يظلم الجميع وقد يظلم الانسانية كلها اذا ارتكب معاصي كثيرة ، فان الشرك ظلم عظيم والمعاصي كذلك من أنواع الظلم وأما ما عدا ذلك فكله عدل ، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل وحث عليه وقال سبحانه وتعالى :" ان الله يامر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون ". والمقصود بالعدل هو الاستقامة وإقرار الحق في مكانه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :" سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله ". وذكر إمام عادل ، فالإمام العادل من السبعة الذين يظلهم الله في ظله لأنه حينما يكون عادلا يكون في الدنيا ظلا لله سبحانه وتعالى في الأرض ، يستظل به الضعيف ويأوي إليه المظلوم ، والمقصود بالظل هنا ليس الظل بالمعنى الذي كان يقوله المسيحيون فيما يرجع للوكهم ولكن

المقصود بالظل أنه ذلك الظل الذي يكون من الشجرة تعبير عربي بالبلاد العربية فيها شمس كثيرة فالظل شيء عظيم ، فالاستظلال بالرؤساء العادلين والملوك المخلصين والخلفاء الراشدين ، بمعنى الالتجاء الى حمايتهم من الظلم ومن كل المشاكل التي يمكن ان تلحق الضعفاء والمساكين من غيرهم ، هذه هي الظلية التي يشير اليها الحديث الشريف ، " السلطان ظل الله في الأرض " فليس المقصود منها انها صورة من صور الباري عز وجل . الاسلام لا يعرف هذا ، ولكن الذي يعرفه الاسلام هو ان أمير المومنين هو ظل الله في الأرض بمعنى ياوي اليه الضعيف والمسكين وذو الحاجة ويحميهم من غيرهم من الناس ، والظلم تحت جناح كل أحد فلذلك يحتاج البشر الى من يمنعهم من الظلم وهذا هو السر في الخلافة وهذا هو السر في كيان الدولة بأسرها ، قال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه :" ياعبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا ". أي يظلم بعضكم بعضا .

وقد قال صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع حين خطب صلى الله عليه وسلم على الناس :" اي يوم هذا ؟ اي شهر هذا ؟" قالوا " يوم حرام " قالوا " شهر حرام " أي بلد هذا ؟" قالوا :" بلد حرام " قال صلى الله عليه وسلم :" فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلد كم هذا ألا هل بلغت ؟ ألا فليبلغ الشاهد الغائب " ثم قال صلى الله عليه وسلم " لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض " والظلم كفر ، والكافرون هم الظالمون كما قال سبحانه وتعالى .

هذا هو المقصود من توصية الباري عز وجل للمسلمين لكي يقيموا العدل والقسطاص . والمقسطون كما ثبت في الحديث الذي ختم به

الإمام البخاري :" المقسطون على منابر عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين . والمقسطون هم العادلون .وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ، والقاسطون هم الظالمون " هذا هو نص الحديث الشريف وحينما كنت أراجع هذا الحديث الشريف عثرت في مكتبتي على وصية عظيمة لجلالة السلطان المقدس مولانا الحسن الأول رحمه الله قد كتبها في أول هذا القرن حيث دعا فيها الى تجديد الشريعة الإسلامية بمعنى التجديد الإسلامي ، " إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها " اعتمد على هذا الحديث الكريم وبعث وصية عظيمة للمسلمين وللمسلمين المغاربة بصفة خاصة وبعدما تكلم عن واجب الاهتمام بالتوحيد وبالصلاة وبالصيام وبالزكاة وبالحج تفرغ بعد ذلك الى توصية عماله ورؤساء دولته بأن ينصفوا الرعية وأن يقوموا بواجب العمل وبواجب العدل وقال أنه مسؤول عن هذه الأمة وأنه لا يريد أن يمس أحد منها بسوء ، وأمرهم كذلك بأن يعلموا الناس الدين ، وفرض على العمال بأن يضعوا في كل الأماكن أماكن لدراسة القرآن ولتعلم أحكام الدين وجاء بأحاديث كريمة ثابتة في النهي عن الظلم وفي ضرورة العدل ، ثم قال في ختام هذه الرسالة الكريمة يحث الرعية على هذا العمل :" إنني قد بلغتكم وقد اطلعت عن كتفي ما يجب أن تقوموا به جميعا وأنا مستعد لمساعدتكم في كل ماتقومون به " وهي رسالة قيمة تدل على هذه الروح الكريمة ، ومن جملة ما ذكره فيها مولانا الحسن رحمه الله أنه تكلم على منع الاسترقاق في ذلك الوقت وتكلم على عدم ظلم الدميين واستدل لكل ذلك بأحاديث شريفة تمكن مراجعتها لمن شاء .

هذا معنى قوله في الحديث :" يا عبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا .

"ياعبادي ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ".

هذه الفقرة الثانية وقد رتبها سبحانه وتعالى على الفقرة الأولى ليلا ييأس الناس ، لأن الظلم موجود في العالم ، فقال لهم الباري عز وجل :" إني حرمت عليكم الظلم " فان كنتم انتم تحسون من أنفسكم ميلانا في هذا المغنى فيجب آن تعرفوا أنكم جميعا ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، فطلبكم الهداية من الباري عز وجل هو الذي يرزقكم هذه الهداية ويرشدكم الى طريق الرشاد ، قال تعالى في هذا الكلام " كلكم ضال " الخطاب موجه لعباد الله ، لجميع البشر " كلكم ضال إلا من هديته " والضلال اختلف في المقصود به ، هل هو الضلال بمعنى الانحراف عن الطريق ، أو الضلال بمعنى الحيرة . والصواب أن نأخذ الكلمة هنا باللفظ العام حتى يكون المقصود الضلال بمعنى الحيرة . فكل بني آدم حيارى إذا لم يرشدهم الله الى الطريق المستقيم ، ولأن النبي صلى الله عليه وسلم يدخل أيضا في عباد الله وقد قال سبحانه وتعالى " ووجدك ضالا فهدى " والضلال الذي وجد عليه صلى الله عليه وسلم ليس هو الانحراف عن الطريق ولكنه هو الحيرة ، فقد كان صلى الله عليه وسلم حائرا في ماذا يفعله بأمته وماذا يفعله بملته وماهي الطريقة التي يسلكها لإصلاح حالة الشعب العربي وماكان عليه من الجاهلية الجهلاء والوثنية وعبودة الأوثان والأصنام وغير ذلك من هذه الأمور ، فهداه الله سبحانه بأن أنزل عليه الوحي فجاءه جبريل وهو في غار حراء الى آخر الحديث المشهور . هذا هو المقصود بالضلال بمعنى الحيرة .

واحب ان أبين هنا أن الشراح قد وقع لهم تناقض في ذهنهم وصعب عليهم الجمع بين هذه المتناقضات ، بين كون الانسان يكون

أولا ضالا ثم يهدى وبين قول النبي صلى الله عليه وسلم " كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه " فمدلول الحديث الثاني ان الفطرة تعني كون الانسان متشوقا من أول مرة الى عبادة الباري عز وجل والى الطلوع الى الباري عز وجل ومعنى قوله ضال انه يكون أول مرة متشوقا للضلال او حائرا في الأمر ، ثم بعد ذلك يهدي الله من اهتدى ويضل من يضل . فهذا يقع فيه تناقض في ذهنية العلماء وقد أجابوا عن ذلك بان القصد الأول هو ما أشار اليه الباري عز وجل في القرآن " كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين وانزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط " كان الناس أمة واحدة يعني أنهم كانوا متفقين غير مختلفين ولكن في الضلال والكفر وعدم معرفة الباري عز وجل . فلما جاء الرسل آمنت طائفة منهم وكفرت طائفة ، فاختلفوا ، فهذا معنى قوله تعالى :" كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبئين مبشرين ومنذرين " فلما بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين اختلفوا فيما بينهم لان طائفة آمنت وطائفة كفرت ، فلا يقع الخلاف إلا إذا وقع هنالك شيء جديد يؤدي الى ذلك الاختلاف ، هذامعنى هذه الآية ، أما الفطرة فتكون بعد مجيء النبيين فقد أصبح الناس بعد ذلك مفطورين على الاسلام ، ولكن هذا الجواب لا يقنع في نظري ، والذي أراه في بيان القضية هوان الباري عز وجل خلق الناس مفطورين مجبولين على الايمان وعلى عبادة الله ، ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم " كل مولود يولد على الفطرة " هو ما يشير اليه الحديث :" الاسلام دين الفطرة " فالانسان مجبول على أن يتشوق للعبادة ويميل اليها ، ولكن هذا شيء شوقي روحاني عقلي قلبي . هل يقوم بهذه العبادة أم لا ؟ المسالة تتعلق بالتعليم وبالتربية ، فان رباه أهله وأقاربه على اليهودية مال الى اليهودية وهو يعتقد ان اليهودية هي ذلك الدين المجبول عليه في فطرته . وان علموه النصرانية مال الى

تلك العقيدة معتقدا ان الدين الذي في فطرته هو تلك النصرانية ، فهو جاهل في الحقيقة أما الفطرة فهي موجودة قطعا ، وهذه الفطرة طبيعية وتكون هذه الفطرة الاسلامية ، هذه الفلسفة التي جاء بها الاسلام في قضية الفطرة خالفت جميع النظريات الموجودة من قبل ، فلم يكن الانسان وحشيا كما يقول علماء الانتروولوجية . ولم يكن متمدنا ثم فسد كما يقول جان جاك روسو وأضرابه ، ولكنه في الحقيقة كان انسانا ولا يزال انسانا ، بدليل أن القرآن يحدثنا عن الميثاق الذي واثق الله به البرية وهي لا تزال فيما لا يزال " فقالوا سمعنا وأطعنا " وقد عرض عليهم الأمانة التي عرضها على السماوات والارض والجبال فأبين ان يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان . فالانسان هو الذي تحمل هذه المسؤولية فاستحق الخلافة في الارض ولكن الله تعالى اقتضت حكمته ان يعطي للناس الحرية والحرية لا تكون الا مع المسؤولية والمسؤولية لا تتحقق إلا بالحرية ، فلذلك عليهم ان يجتهدوا لاكتشاف معالم الفطرة في أعمالهم ومعالم الدين فيما يتبعونه من كلام الله وكلام الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فلذلك منهم من يصيب ومنهم من يخطيء ، وهذه الالوهية من صفاتها في الحقيقة انها تحسن الى الخلق كما ذكر سبحانه في المنن التي امتن بها علينا ،حرم الظلم على نفسه وهدانا بعد أن كنا ضالين .

إذن فالباري يستحق بمقتضى ذلك الحمد والثناء ، والحمد والثناء إنما يكون كلام وثناء الجميل على فعل الجميل للجميل ، فتكون حينئذ الفطرة مرتبطة بالجمال الالاهي .

فالفطرة حينئذ هي الميل لعبادة الله ، يعنى ذلك الميل لمحبة الله سبحانه وتعالى . ومحبة الله تعني الامتثال لاوامره واجتناب نواهيه وهي تلك الصفات التي ذكرها سبحانه في بقية الحديث

القدسي . فالمحبة التي يحبها الانسان لله تؤدي به الى العبادة الحقيقية كما يقول ابن عطاء الله " ما أحببت شيئا إلا وكنت له عبدا وهو لا يريد ان تكون لغيره عبدا ، الذي يحب الجمال البشري يكون عبدا للجمال البشري والذي يحب الجمال الالاهي يكون عبدا لذلك الجمال الالاهي والذي يحب الدنيا يصير اليها ويعبدها والذي يحب الجاه يصير اليه ويعبده وهكذا ، فلذلك " في الحقيقة " الفطرة هي عبارة عن اتصال انساني بالجمال الالاهي ، هذا موجود في الانسان فطريا ، ولكن حينما يلبس الشياطين للانسان شهواتهم ، ويميلون الى ديانة غير الديانة الاسلامية او الى عبادة وتن أو صنم يكونون ممن يحبون تلك الاشياء ، ولذلك قال سبحانه وتعالى " يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله " فالفطرة موجودة وهي المحبة والميلان للشيء المعبود المقدس ، ولكن معرفة المقدس الحقيقي ماهو ، هو موضع الغلط في الانسانية وهو الذي احتاج الى ارسال الرسل وينوب عنهم العلماء والخلفاء الراشدون في توضيح المسائل الى الناس حتى يكونوا على بينة . ولا تزال طائفة من أمته صلى الله عليه وسلم ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتى ياتي أمر الله وهم على ذلك . وهذا الحديث قيم وطويل وفيه موضوعات كثيرة ، من جملتها هذه المسالة التي أثرناها ومن جملتها قضية التوكل وقضية الكسب وغير ذلك من هذه المسائل ، ولعل الله سبحانه وتعالى يتيح فرصة أخرى لاستكمال موضوعات هذا الحديث الشريف .

اما الآن فإننا نجتزيء بهذا القدر راجين من الباري عز وجل ان يوفقنا جميعا لما فيه الخير لانفسنا ولأمتنا ولأوطاننا ، كما أرجوه سبحانه وتعالى ان يتغمد برحمته جلالة الملك الراحل سيدي محمد الخامس وان يوفيه أجره ويتولى عنا جزاءه على ما قام به من

الأعمال الجليلة والمسائل الطيبة في هذا الوطن الكريم ، كما نسأله سبحانه وتعالى أن يطيل عمر الملك الهمام ، أمير المومنين ، مولانا الحسن الثاني وأن يقر عينه بأنجاله الكرام وبولي عهده وأن يوفقنا وإياه وجميع المسلمين ويوفقه بصفة خاصة لأداء الواجب واستكمال ما تركه والده رضي الله عنه من المعالم الطيبة للنهوض بهذه الأمة ورفع مستواها المادي والأدبي وبعث الروح الإسلامية في هذه الأمة ، فإنه جدير بذلك ، والله سبحانه وتعالى جدير كذلك بأن يوفقنا ويلهمنا رشدنا .

" ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربناو آتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ".

الدّرس الثّاني

في تتمة شرح حديث:

"يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا"

رمضان 1384 - ينـاير 1964

الدرس الثاني في تتمة شرح حديث :

" ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محـــرما فلا تظالموا "(1)

أعود بالله من الشيطان الرجيم　　بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا الى يوم الدين .

وبالسند المتصل للشيخ الإمام ، الحافظ ، ابي عبد الله مسلم بن الحجاج القشيري النسابوري رضي الله عنه ، بسنده المتصل الى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ، قال صلى الله عليه وسلم على لسان ربه تعالى :

" يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا ـ ياعبادي ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، ياعبادي ، كلكم جائع إلامن أطعمته ،فاستطعموني أطعمكم ـ يا عبادي ، كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم .." الى آخر الحديث .

---

(1) القسم الثاني من درس الاستاذ الجليل علال الفاسي رحمه الله حول الحديث الشريف :

" يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا "

وكان ألقاه رحمه الله مساء يوم 3 يبراير 1964 في حضرة صاحب الجلالة الحسن الثاني طيب الله ثراه متمما به درس الاسبوع الماضي من المجالس الحسنية الرمضانية لعام 1384هـ

عـود على بدء من هذا الحـديث القـدسي الكريم ، وقـد تكلمنا على فقراته الأولى وهي قوله سبحانه وتعالى :
" يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا "

وهذه هي المنة الأولى من الباري عز وجل على عباده ورتب عليها أمره لعباده بأن يتخلقوا بأخلاقه عز وجل .

ثم قال سبحانه وتعالى في الفقرة الثانية :" كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم " .

وهذه أيضا منة من منن الله عز وجل حيث إنه جعل هدايته سبحانه وتعالى منوطة بطلبنا منه ذلك ، فكلنا في الأصل في الحقيقة ضالون إلا اذا استهدينا بهديه سبحانه وتعالى . ولا شك أن الضلال إنما يزول بهذا الاستهداء والاستهداء يكون بالدعاء للباري عز وجل .

ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى طلب منا أن نستهديه في صلواتنا " اهدنا الصراط المستقيم " حينما نقرأ الفاتحة . وهذا الاستهداء لا يكفي فيه الدعاء وحده ، بل يكون بطريق طلب الهداية . " فاستهدوني " اي اطلبوا طريق الهداية مني . ولا شك أن ذلك يكون بطريق العقل وبطريق الشرع اي بطريق البحث العقلي في أحكام الشريعة والنظر فيها والاستفادة منها .

ولذلك أمرنا سبحانه بعد أن هدانا النجدين أي الطريقين ، طريق الخير وطريق الشر ، طلب منا كذلك ان نسلك هذه الطريق وأن نبحث

عنها ، فهذا هو القسم من مجهوداتنا الخاصة التي يجب أن نصرفها للبحث عن الهداية الربانية .

ولكن هذا البحث يجب أن يكون مقرونا في الوقت نفسه بالدعاء للباري عز وجل لأنه لا حول لنا ولا قوة ولا هداية إلا بهداية الباري عز وجل. فلا بد من العمل بالبحث عن طريق الهداية وذلك بدراسة القرآن ودراسة السنة ومحاولة أخذ النفس بالسلوك في مسالك النبي صلى الله عليه وسلم المسالك القرآنية والأخلاق الربانية التي مثلها على الأرض شخصيا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لابد من أن نسلك ذلك بهذه الطريق ثم في الوقت نفسه نتعلق بالباري عز وجل فندعوه سبحانه وتعالى ليهدينا أي ليسلك بنا مسالك الهداية ومسالك النجاة ، و لا يكتفي الانسان بمجرد الدعاء بل لابد من أن يسلك في البحث عن طريق الهداية مسالك الدراسة لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . وهذه الهداية منوطة بتعاليم النبي عليه الصلاة والسلام ، ولاشك أنها موجودة في أحكامه وفي أخلاقه وفي شريعته كلها وفي سننه وتقاليده عليه الصلاة والسلام ، فلا بد إذا أراد الإنسان أن يكون مهديا أن يكون مسلما لأن الهداية هي شرح الله سبحانه وتعالى صدر الإنسان للإسلام. فإذا شرح الله صدر الإنسان للإسلام فإنه حينئذ يكون مهديا وبسيرته يكون كذلك هاديا ، فالهداية هي الإسلام نفسه ، فلا بد من أن نكون مسلمين ولابد من أن نتعلم أحكام الشريعة وأخلاقها ولابد من أن نسلك أنفسنا بهذه الأحكام وفي طريقها وفي منهجها ثم بعد ذلك نطلب من الباري سبحانه وتعالى أن يوفقنا وأن يتقبل منا. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

" اعقلها وتوكل " وسنتكلم عن التوكل في الفقرة الثانية بعد هذه ، هذا معنى قوله في هذا الحديث القدسي :" كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ".

ثم قال سبحانه وتعالى : " ياعبادي ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم . يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم ".

فمعنى هاتن الفقرتين الكريمتين من الحديث القدسي أن الانسان يولد وجميع الناس يولدون على صفة واحدة مجردين من كل حول وطول ومن كل قدرة شخصية ذاتية كاملة يستطيعون بها أن ياكلوا أو أن يكسبوا أو أن يشربوا أو أن يفعلوا شيئا من الأشياء التي يتوقفون عليها ، فالناس كلهم يولدون متساوين في البؤس والفاقة والحاجة الى الله سبحانه وتعالى الذي هو وحده يقوم بأودهم وبسد عوزهم في أكلهم وفي شربهم وفي لباسهم ، وبعد ان إمتن علينا الباري عز وجل في الفقرتين الأولى والثانية بانه سبحانه وتعالى لا يظلمنا وإن كان ذلك مستحيلا في حقه وطلب منا ألا نظلم بعضنا ، وامتن علينا كذلك باننا ضالون ولكنه هو الذي يهدينا وهذه المنة روحية ، امتن علينا بعد ذلك بمنتين ماديتين وهي مسالة الأكل والشرب ومسالة اللباس بحيث لا يمكننا أبدا أن ننال شيئا من ماكلنا ومشاربنا وملابسنا وجميع حاجاتنا إلا إذا أعاننا الباري عز وجل على ذلك ، وهذه المنة لم يستعملها سبحانه وتعالى في الدعاء في وقت الصلاة ، في الفاتحةو إنما استعمل الهداية المعنوية التي هي سلوك الطريق المستقيم " اهدنا الصراط المستقيم " والفاتحة كلها تشتمل على دعوات صالحة تبين لنا مقدار الرغبة في الهداية وسلوك الطريق المستقيم والابتعاد عن سلوك طرق الضالين وطرق

الذين لا يهتدون ، وذلك قوله تعالى :" اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

ويقول المفسرون إن المغضوب عليهم هم اليهود والضالين هم النصارى ، وعلى كل حال فإذا قارنا هذه الصلاة التي نصلي بها في كل ركعة من ركعاتنا بالصلوات التي يدعو بها المسيحيو ن مثلا في صلواتهم نجد أن الصلاة الإسلامية تتعلق بالروحانية المحضة ولا تتعلق بالماديات ، بينما نجد الصلاة المسيحية تقول خبزنا كفافنا أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر الى المسيئين إلينا ولا تدخلنا في تجربة ، زاد في نسخة الانجيل الأمريكية ولكن نجنا من الشر فهذه الروايات المختلفة في الانجيل هي الصلوات التي يقوم بها المسيحيون في صلواتهم . أما الصلاة الاسلامية فإنها إنما تقوم بالدعوة للهداية للصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، بعد أن ننزهه سبحانه وتعالى وبعد أن يتعلق الإنسان تعلقا كاملا بالله في عبادته وفي الاستعانة به " إياك نعبد وإياك نستعين " وهذا شيء في الصلاة وخارج هذا الإطار امتن الله سبحانه علينا بقصد التذكر وبقصد تذكر النعم الإلاهية علينا بعد أن امتن بالمعنويات والروحانيات امتن كذلك بهذه الأشياء المادية ، وهاتان الفقرتان كما قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تشتملان على نقطتين أساسيتين : أما النقطة الأولى فهي التوكل على الله عز وجل وأما النقطة الثانية فهي العمل والكسب من أجل القوت ومن أجل المسائل الدنيوية وعدم إهمالها ، فإن الشريعة الاسلامية أمرتنا بالتوكل على الله " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " لابد من التوكل على الله في أعمالنا كلها ، وأمرتنا كذلك بأن نقوم بالكد والجد والاحتراف والعمل للكسب وعدم الاتكال في كسبنا وفي قوتنا على الله وحده ، لابد من أن نسهم بنشاطنا وبعملنا ، أما

الصوفية فإنهم اكتفوا بأخذ الشق الأول وهو مسالة التوكل ، يعني كبار الصوفية ، حتى إنهم كانوا يتركون العمل لدنياهم بالمرة ، وأما غيرهم من مطلق المسلمين ولاسيما في هذا العصر فإنهم اكتفوا بالبحث والمجد عن الدنيا بطرق مشروعة وغير مشروعة ، ولكن لا الصوفية وافقوا الاسلام الصحيح ولا عامة الناس في أشغالهم هذه وافقوا الاسلام الصحيح .

وإنما الإسلام الصحيح يامرنا بأن نجمع بين العمل للأخرة والعمل للدنيا وأن لا نتكل على الله سبحانه وتعالى مجرد الاتكال بمعنى الكسل وعدم العمل ولكن يجب أن نعمل ونتوكل كما قال صلى الله عليه وسلم " اعقلها وتوكل " شد الباب وتوكل على الله لئلا يدخل عليك سارق ولكن لابد من إقفال الباب ، كذلك أيضا جميع الأشياء التي نطلبها يجب أن نبذل جهدنا للحصول عليها بطريق الكد والاجتهاد وبجميع الوسائل التي أرادها الباري عز وجل والتي جعلها لنا في هذه الحياة سببا لابد منه غير مستقل ولكنه ضروري للحصول على كل شيء في هذه الحياة أو في الدار الآخرة ، فالله سبحانه وتعالى قادر على أن يعطي الناس ما يريدون بدون سبب ولكن جرت حكمته سبحانه وإرادته على أن الناس لا ينالون شيئا لا من الثواب أي الجزاء الدنيوي ولامن الثواب أي الجزاء الأخروي إلا باعمالهم وإلا إذا وافقت أعمالهم أوامر الله ونواهيه ، فإذا وافقت أعمالهم وتم ذلك التطابق بين إرادة الله وبين أعمال العبد حينئذ تتحقق الأشياء التي يريدها الانسان ، وأما إذا لم يقع هذا التوافق وذلك التطابق بين الإرادة الإلاهية وبين أعمال الإنسان فإن هذه الاعمال لا تتحقق لأنها تعلقت باشياء لابد من وقوعها وهي إرادته عز وجل .

وهكذا يمكننا أن نجمع بين أقوال الصوفية وأقول مختلف علماء الكلام في هذه القضية وبين الشريعة التي جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ثبت في القرآن الكريم في غير ما آية من الآياتِ ترتيب الجزاء على العمل :" فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

فكل شيء قليل أو كبير يجازى عليه الإنسان ولو كان مثقال ذرة ولو كانت تلك الذرة التي كانوا يقولون إنها لا تنقسم وثبت بعد ذلك أنها تنقسم ومنصوص في القرآن على أنها تنقسم كذلك لأن النوافد التي في القرآن كذلك تنقسم .

فهذه الأشياء التي نعملها صغيرة أو كبيرة هي التي يترتب عليها عملنا أي هي التي يترتب عليها الجزاء الإلاهي لنا وهي التي يجب أن يترتب عليها الجزاء الدنيوي في حكم الشريعة . فإذا أراد الإنسان أن يزعم أنه يمكنه أن يجلس في بيته ويعمل للآخرة فقط يصلي ويصوم ثم يقول بعد ذلك إني متوكل على الله وإنه هو الذي سيطعمني ويسقيني من غير أي عمل ، هذا في الحقيقة كسل وليس متفقا مع الشريعة الإسلامية في شيء ولكن الشريعة الإسلامية تفرض علينا أن نعمل لدنيانا كما نعمل لآخرتنا " ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين "

وكذلك أيضا قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الآثر الذي ينسبه بعض الناس الى الحديث وليس بحديث " اعمل لدنياك كانك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كانك تموت غدا ".

يعني أن الانسان عليه أن يعمل ويجد ويجتهد بأمور الآخرة كأنه يموت غدا ، وإذا فكر الانسان وتيقن أنه سيموت غدا فإنه حينئذ سيقوم بأنواع العبادات ولا يفكر في شيء ويقطع كل صلة بالدنيا . واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا واعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا " فإذا فكر الإنسان وتيقن أنه سيعيش أبدا ، سوف لا يفكر في الآخرة كثيرا وسيعمل للدنيا ، ولكن الشارع أراد منا أن نعمل لدنيانا كأننا سنعيش الى الأبد لأن عملنا سيبقى لمن بعدنا ونعمل للآخرة كأننا سنموت غدا وبذلك سيتم التوافق بين ما أراده الشارع من الجد والاجتهاد في الأمور الأخروية والكد والاجتهاد في الأمور الدنيوية وبذلك ستكون الدنيا الاسلامية مليئة بالدنيويات ومليئة بالروحانيات كذلك ولا يكون هنالك رهبانية كالرهبانية المسيحية ولا تكون هنالك قارونية كقارونية قارون وكما صار فيه الاسرائليون في عهد موسى عليه السلام ، فلا بد من الكد والعمل ، ثم إن القرآن بين لنا أن كل عمل يقوم به الانسان لا يضيع " أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى " فكل عامل عمل عملا من الأعمال إلا ويجازيه الله عليه ، وهذه الأعمال ، لا يقصد بها الأعمال الأخروية فقط بل الأعمال الدنيوية كذلك ، وإذا كان بعض المفسرين يقتصرون على تفسير الجزاء على العمل بالجزاء الأخروي ، الأعمال الأخروية ، فينبغي أن يعمم هذا التفسير على الجزاء الذي أراده الله سبحانه وتعالى للإنسان في الدنيا إذا قام بعمل دنيوي لأن تلك الأسباب التي يتخذها الإنسان تترتب عليها نتائج ، الله سبحانه وتعالى قد إلتزم بأن يطبقها وأن ينفذها لعباده ، وينبني على ذلك أن كل انسان في الدنيا يجب أن ينال جزاءه كذلك من الحاكمين بحيث إذا قام أي انسان ببناء أو بغرس أو بأي عمل من الأعمال الدنيوية ينبغي أن يجازى على ذلك الجزاء الأوفى الذي قدره له الشارع " كل على قدر عمله ."

وهنا نجد الشريعة الاسلامية قد سبقت غيرها من الشرائع ، نجد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قسمته للغنائم يعطينا درسا عظيما وكلمة كريمة خالدة لحد الآن لم يصل إليها المتفيهقون من الغربيين لا بالاشتراكية ولا بالرأسمالية ولا بغيرهما . هذه الكلمة التي قالها سيدنا عمر بن الخطاب هي قوله :" المومن يجازى على قدر حاجته والمومن يجازى على قدر جهده " يعني أن الناس يجازون إما على قدر حاجتهم فكل محتاج لابد من أن يعطى ، وإما أن يأخذوا على قدر مجهودهم أي لا يضيع عمل عامل بل يأخذ كل ما يستحقه على عمله ، هذه الكلمة القيمة لسيدنا عمر بن الخطاب إذا قارنناها بآخر كلمة قالتها مثلا الشيوعية في السنة الماضية هي أنه من كل قدر طاقته ومن كل جزاء عمله إذا قارننا هذه الجملة بالجملة التي نطقها سيدنا عمر بن الخطاب منذ ثلاثة عشر قرنا نجد أن كلمة عمر بن الخطاب أضمن للعدل من هذه الكلمة الأخيرة لأن سيدنا عمر ابن الخطاب قال يأخذ الانسان على قدر حاجته ويأخذ الانسان على قدر جهده ، يعني كل عمل قام به الانسان يحسب له ويعطاه الجزاء الأوفى له . فإذا كان هذا الانسان لا يستطيع بجهده أو بعمله أو بجسمه أن يصل إلى القدر الذي يسد حاجته بعمله . هل نضيعه ؟ لا ، بل نعطيه قدر حاجته ، الأقل الحيوي لابد من أن يعطى . هكذا يقول سيدنا عمر بن الخطاب وهذه الكلمة الخالدة التي لو وقعت لأحد فلاسفة الغرب لقلبوا بها الدنيا ظهرا على بطن ، ولكن نطق بها أمير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يقسم الغنائم وطبقها بالفعل على المسلمين لأن القرآن أمر بذلك ، لأن القرآن أمرنا بأن نقسم الغنائم بين المسلمين بعد أن نعطي النصيب المقدر للدولة أي لله ولرسوله ، حينئذ نقسم تلك الأشياء على الناس حتى لا تكون " دولة بين الأغنياء منكم " كما قال سبحانه وتعالى .

ما معنى أن تكون دولة بين الأغنياء منكم ؟ أي لا يبق المال متكتلا متكدسا يتقاسمه الأغنياء بينهم ويدول من يد الى يد دون أن يسير الى جميع الأيدي وإنما يبقى يسير من يد بعض الأغنياء الى يد بعض الاغنياء وهذا هو الواقع الآن في الدنيا حيث أن أموال العالم كلها تكدست وتكتلت في يد مجموعة من الناس من كبار الشخصيات المالية في الدنيا وهذه الشخصيات كلها يجري المال بينها من يد الى يد والباقي كله يشتغل معهم ، الباقي في جميع الدنيا يشتغل مع هذه الكتلة القليلة من الناس فيجمعون هذه الأموال ويستعملون فيها الربويات ويجرون بالعالم الى الحرب ليتحقق الإنذار الذي جاء به القرآن الكريم .

" فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون " فبهذا نجد أن الله سبحانه وتعالى قد امتن علينا بانه هو الذي يطعمنا ويسقينا وهو الذي يرزقنا الملابس وكل الأشياء التي نتوقف عليها ، وأنه بدونه سبحانه وتعالى لا يمكن أن نفكر بانه بغنانا أو بثروتنا أو بعملنا أو بجهدنا أو بقوتنا الجسمية نستطيع أن نحصل على شيء باستقلال عن الارادة الإلاهية ، هذا مستحيل ، لأنه نستطيع أن نعمل كل شيء وإذا لم يرد الله سبحانه وتعالى أن ينجز عملنا فإنه سبحانه حينئذ لا يفعل ، فهو القادر على مايشاء ، ولكنه سبحانه وتعالى اقتضت حكمته اننا إذا فعلنا شيئا وفانا أجرنا بغير حساب ، فهو سبحانه لايبدل القول لديه وماهو بظلام للعبيد ، ونحن كذلك يجب علينا الا نظلم أنفسنا ، ومعنى الا نظلم أنفسنا أن نقوم بواجب الكد والاجتهاد مع الاتكال على الباري سبحانه وتعالى . يستدل الصوفية بالحديث الشريف " لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير ، تغدو خِماصا وتروح بطانا " فيقولون إن الطيرتغدوا بنفسها

خِماصا وتروح بطانا لأنها تعمل معتمدة على الله سبحانه وتعالى - قلنا لهم لا ، هذا الحديث نفسه يدل على أنه لابد من العمل لأنه لم يقل الطير تبقى في أوكارها ويأتيها الرزق ولكنها تغدو جائعة وتروح مليئة البطون ، فغدوها في الصباح ورواحها في العشي وانتقالها بين الأفياء وبين الأشجار وبين الأتربة وغير ذلك من الأماكن هو عملها ، هو كدها ، هو اجتهادها .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يعطينا مثالا حيوانيا من الطيور ، يقول لنا لو كنتم متوكلين حقيقة لما جلستم في بيوتكم تنتظرون الرزق من السماء ولكن لخرجتم في الصباح الباكر كما تقوم الطيور في الصباح الباكر ، لغدوتم كما تغدو الطيور ، تغدو خِماصا في الصباح أي جائعة فتكد وتجتهد وتروح في المساء وهي مليئة البطون ، شبعانة ريانة ثم تستكين في الليل وفي الصباح كذلك تستانف عملها .

فهذا المثال الذي يذكره المتصوفة كدليل على التوكل هو نفسه دليل على ضرورة العمل ، فلابد من أن نكد ولابد من أن نجتهد ولابد من أن نعمل لكي يثيبنا الله على عملنا . إن كان العمل أخرويا أثابنا عليه وإن كان العمل دنيويا أثابنا عليه - هذا معنى قوله في هاتين الفقرتين : " ياعبادي ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم - ياعبادي ، كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم - ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم "

" ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار " أخطأ يُخطيء .
هذه هي الرواية الصحيحة في الحديث " تُخطِئون " بضم التاء

وكسر الطاء وفي بعض الروايات تخطّاون خِطئا، وهو من الخَطئ قال الراغب في مفردات القرآن " الامام الراغب الفيلسوف الاسلامي الكبير " الخطا هو الانحراف عن الطريق وعمل غير ما يريده الانسان ، وله أسباب . فإذا كان الإنسان أراد شيئا مخالفا للصواب وعمل ذلك الشيء المخالف للصواب ، يقال فيه خطا خِطئا بهذه الصفة ، وإذا عمل الإنسان عملا وكان فكر في أن يعمله صوابا وعمله على خلاف الصواب أو فكر في أن يعمل الشيء غير صواب وعمله غير صواب فهذا يقال له : أخطا ، فيكون قد أصاب في خطئه ، أو أخطا في خطئه أو أخطا في صوابه ، كل هذا يمكن أن يقال فيه أخطا ، اما إذا كان قد أراد الشيء على خلاف ماهو عليه وأصاب في خطئه ، أي عمله ، فإنه حينئذ يقال له : قد أخطا ، وأما إذا كان قد أراده على غير صوابه وعمله على غير صوابه فهذا يقال : ارتكب الخطيئة وهي الخطا أو الخِطئ ، على كل حال يصح من جهة اللغة أن يقال في هذا الحديث الشريف " تخطئون " ولذلك لا معنى لان نتوجه الى الرواية الاخرى تخطَئون .

قال : إنكم تخطئون بالليل والنهار،أما ذكر الليل والنهارفليس المقصود منه اننا نرتكب الخطا في كل يوم وليلة ، جميع الناس يرتكبون الخطا في كل الليل والنهار كما يتبادرمن اللفظ ،ولكن هو من باب القاعدة الأصولية :مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحادا كما إذا قلنا ركب القوم دوابهم ، فليس المقصود أن جميع القوم ركبوا . نفس الدواب ،ولكن المقصود ركب كل واحد دابته الخاصة به .

فمعنى قوله في الحديث إنكم تخطئون على هذا المقابلة التي تقتضي القسمة آحادا . أي كل واحد منكم يرتكب بعض الأخطاء

تارة بالليل وتارة بالنهار . وليس المقصود أنهم جميعا يرتكبون جميع الأخطاء في الليل والنهار .

قال : وأنا أغفر الذنوب جميعا ، أي من شيمتي ومن خلقي الذاتي أني أغفر الذنوب جميعا ، كيف ما كانت هذه الذنوب بغير استثناء فهو سبحانه قادر على مغفرة جميع الذنوب بقواعدها الشرعية كما سنبين .

وقد مهد سبحانه وتعالى لشيئين ، فقال إنكم تخطئون أي شيمتكم الخطا ، وقال أن شيمته تعالى المغفرة ، اي يغفر جميع الذنوب كيفما كانت وذكرها هكذا ، الذنوب أي المعهودة لديكم ، لتعم جميع الذنوب .

ثم رتب على ذلك : فاستغفروني أغفر لكم أي حيث أنه من شانكم أن تخطئوا وحيث إن من شاني أن أغفر الذنوب فلماذا تبقون على خطئكم استغفروني أغفر لكم ، هذا تمهيد لكي نهيء أنفسنا لندعوه سبحانه ونستغفره " استغفروا ربكم إنه كان غفارا " فالله سبحانه كثير المغفرة كان سبحانه غفارا ولازال غفارا " كان الدائمة " بحيث هو سبحانه غفار في جميع الأوقات والمبالغة حقيقية ، إنني أغفر الذنوب جميعا ، هذه الذنوب كيفما كانت يغفرها الباري عز وجل .

ولكن هذه الذنوب إما أن تكون مغفرتها مغفرة كاملة بحيث تمحو الخطيئة وأثرها في النفس ، وإما أن تكون هذه المغفرة مجرد تخفيف وتاخير فهما نوعان من المغفرة .

أما الأولى فهي المغفرة التامة ، بحيث يغفر جميع الذنوب

ويمحوها للإنسان ، وهذه المغفرة تقع لكل ذنب ولو الشرك اذا تاب منه الانسان " بشرط التوبة " " ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء " ولكن إذا تاب المشرك وأسلم وآمن فان الله يغفر له إشراكه السابق " الاسلام يجب ما قبله " " إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف "

فلا شك أن الذين كفروا إذا تابوا والمشركين اذا تابوا غفر الله لهم ما قد سلف من ذنوبهم .

وكذلك يغفر الله الذنوب مادون الشرك بشرط التوبة ولكن إذا لم تقع التوبة من الانسان تبقى رحمته للجميع عامة إلا المشركين فقد اقتضت إرادته سبحانه وتعالى الا يغفر الشرك إلا إذا تاب المشركون من شركهم .

وهنالك نوع من الذنوب وهي ما يرتكبها الانسان ويحمل غيره على ارتكابها ، هذه حاول بعض المتكلمين أن يقول بأن الله تعالى لا يغفرها واستدلوا لذلك بحديث اسرائيلي معناه أن هذا ما فعلته أنت فكيف " الذي فعله غيرك ، ولكن لا فقد ثبت في الحديث الشريف أن الانسان إذا ارتكب إثما أوكان داعية للإثم وحمل غيره عليه ثم تاب الى الله سبحانه وتعالى فإن الله يغفر له ما صنعه قبل ذلك ، لأن الاسلام يجب ما قبله فالتوبة تقع بها المغفرة التامة ، " توبوا قبل أن تتوبوا " يجب أن يتوب الإنسان قبل أن يموت فلا يمكنه أن يتوب .

وأما المغفرة الثانية وهي مغفرة التخفيف فهذه يقع بها التاجيل من الباري للعباد ولذلك لا يهلك سبحانه الظالمين ولا يهلك الكافرين

في الدنيا ولا يهلك الكثيرين من المذنبين ويدخرهم إلى الآخرة ليجاريهم على عملهم ، وربما عجل لهم في وقت ما في الدنيا بعض العقوبات بحسب إرادته تعالى .

ومن جملة ما وقع في هذا الباب ماورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله قد خفف عن عمه أبي لهب بسبب سروره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو في ضحضاح من النار ، يغلي منه دماغه ، ولولاه صلي الله عليه وسلم لكان في عمق جهنم ، فهذا التخفيف الذي وقع لأبي لهب بسبب أنه لما جاءته جارية تبشره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم أعتقها سرورا به صلى الله عليه وسلم يدل على أن الأعمال مهما كانت إذا عمل الإنسان عملا تلقائيا وتقبله سبحانه وتعالى فإن ذلك يخفف به عنه ما أصابه من الآلام كما قال الشاعر .

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه
وتبت يداه في الحجيم مخلدا
عسى أنه في كل اثنين دائما
يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذي عاش عمره
بأحمد مسرورا ومات موحدا

إذا كان هذا أبو لهب بسروره بالنبي صلى الله عليه وسلم يقع له هذا التخفيف في كل يوم اثنين ويخرج إلى ضحضاح من نار يغلي منه دماغه ، فكيف بمن آمن بسيدنا صلى الله عليه وسلم وعاش عمره مسرورابكونه من المسلمين ومسرورا بكونه من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم فهذا الفرح بالنبي صلى الله عليه وسلم لاشك أنه ضمين بأن يساعدنا على الحصول على المغفرة من الباري عز وجل .

فما الظن بالعبد الذي عاش عمره

بأحمد مسرورا ومات موحدا

بشرط الموت على الشهادة .

فإذا كانت هذه المغفرة تقع للإنسان ، وكان الرب سبحانه غفارا رحيما . فيجب علينا أن نطلب منه المغفرة وقد ثبت في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يستغفر الله مائة مرة في الجلسة الواحدة ، وثبت في الحديث الشريف أنه صلى الله عليه وسلم قال : إنني اتوب في اليوم مائة مرة ، وثبت أيضا أنه قال : إنكم خطاؤون ، وخير الخطائين التوابون .

فكلنا نخطيء، وكلنا نذنب ، وليس في البشر ية معصوم ، وهذا هو السر في وجودنا في الخلافة في عمارة الأرض ، لأن الله أنشانا في الأرض واستعمرنا فيها .

فآدم خليفة الله في الأرض وذريته كلهم خلفاء أي مكلفون بأن يعمروا هذه الأرض ، ويقوموا بواجبهم فيها ، فإذا قصرنا في ذلك ، فامامنا باب التوبة ، لابد من التقصير لأننا مسؤولون والمسؤولية لابد فيها من الحرية وقد خيرنا سبحانه وهدانا النجدين ، وعلق نجاحنا ونجاتنا باعمالنا ، فلذلك ينبغي أن نعمل وأن نمتحن أنفسنا كلما تقدمنا في الحياة ، وكلما عملنا شيئا فإن وجدنا عملنا طيبا حمدنا الله على ذلك ، وإن وجدنا غير ذلك رجعنا باللوم على أنفسنا كما سياتي في الحديث ورجعنا بالندامة وبنقد أنفسنا وحينئذ نتوب الى الله فإذا تبنا ولو ارتكبنا بعد ذلك خطا فلابأس إذا تبنا مرة أخرى ، فقد ثبت في الحديث : أن العبد إذا أذنب ذنبا ثم تاب الى الله واستغفره ، قال الله إنني قد غفرت لك حيث ذكرتني ياعبدي ، وعلمت أنني غفور رحيم ، ثم إذا ارتكب بعد ذلك ذنبا ثم

تاب الى الله واستغفر الله سبحانه وتعالى قال الله إني قد غفرت لك لأنك ذكرتني واستغفرتني ، وعلمت أني غفور رحيم ، فإذا فعل الثالثة كذلك أجابه الباري سبحانه وتعالى بالمغفرة فإذا عاد قال له الباري أفعل ما شئت فقد غفرت لك ، يعني ما دمت تتوب ، أي مادمت كلما ارتكبت إثما رجعت إلى الباري عز وجل وحاسبت نفسك ، لأنني أعلم أنك مخطيء ولابد أن تذنب فما دمت ترتكب الخطيئة ثم تتوب إلى الباري عز وجل إلا وقد غفرت لك فاعمل ما شئت يعني دائما بشرط التوبة المستمرة ، ولذلك يقول العلماء : إن الولي من أولياء الله تعالى يذنب كما يذنب غيره ، وإنما الفرق بين الولي وبين غيره هو أن الولي لا يوطد نفسه على الخطيئة أولا . ثم إذا عمل الخطيئة لا يفرح بها ثانيا ، ثم إذا فرغ من الخطيئة ندم ورجع الى الله وتاب اليه ، فالأولياء تقع منهم الذنوب كما تقع من غيرهم والفرق بينهم وبين من سواهم هو أنهم تتحقق لهم هذه الأمور ، لا يصممون من أول مرة على الخطيئة أو يبحثون عليها ، وإذا عملوها لم يفرحوا بها بحيث نفوسهم لامتهم وعاتبتهم ، ثم بعد ذلك يتوبون الى الله ويصممون على عدم ارتكابها وقد لا يوفقهم الله فيرتكبون الخطيئة مرة أخرى ، فماداموا يحافظون على هذه الصفات فانه يرجى لهم المغفرة .

ولذلك يقول ابن عطاء الله : انكسار العاصي خير من صولة المطيع .
فإذا أذنب الانسان أو ارتكب شيئا وانكسرت نفسه فإنه يكون حينئذ أحسن ممن يكون أطاع الله ثم اعتقد أنه قد فعل شيئا كبيرا .

فالإنسان لابد له أن يوطد عزمه على التوبة والإنابة الى الله ، وأن يكون دائم الذكر كلما رأى مصيبة صدرت منه الا ورجع بالائمة على نفسه وتاب الى الله فيما بينه وبين ربه ، حينئذ يوشك أن يغفر الله

ذنوبه ،وأن يوفقه بسبب توبته الى عدم العودة الى ارتكاب الذنوب ، ولاشك أنه إذا تكررت توبته مرارا فإن قلبه يطهر ونفسه تطيب ولايبقى من المذنبين وذلك ما نرجوه للجميع إن شاء الله .

ثم قال في الحديث ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على قلب رجل واحد منكم ثم سالوني فاعطيت كل واحد منكم مسالته ما نقص ذلك من ملكي شيئا .

ياعبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وانا اغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم ، ياعبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، الضر بالفتح هو الصواب هنا لأن الضريكون في المعنويات والضريكون في الماديات كما قال الإمام الازهري بحيث كل شيء أحدث ضررا في جسم أو بدن أو مال فهو ضر بالضم وكل شيء أحدث ضررا معنويا فهو ضر بالفتح ، وإن كان المحدثون يضبطون الحديث باللفظين معا بالضم والفتح .

لن تبلغوا ضري فتضروني ، يعني أن أعمالكم وتوبتكم وعبادتكم وطاعتكم لا تفيدني أنا شيئا فلست متوقفا عليها ، ولكنها تنفعكم أنتم " لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم " فاعمالنا الطيبة التي يجازينا الله سبحانه وتعالى عليها لا تنفعه شيئا سبحانه وتعالى وإنما تنفعنا نحن ، فلذلك لا ينبغي أن نتبجح بكوننا نطيع ولا أن نمتن " يمنون عليك أن اسلموا " لا نمتن على الله تعالى بإسلامنا ولا بطاعتنا بل هو سبحانه الذي يمتن علينا لأنه هو الذي وفقنا وهو الذي هدانا الى الإسلام والطاعة .

فطاعتنا المقصود منها (وهذه هي الحكمة في الطاعات. والعبادات كلها) المقصود منها تطهير النفس، المقصود منها تربية الإنسان على الطاعة في الحياة، تربية الانسان على تنظيف فكره وتحرير نفسه من العبوديات التي توقعه فيها شهواته البدنية والمعنوية.

فالمهم هو أن الإنسان يمتثل أمر الله ويجتنب نواهيه لفائدته هو ولمنفعته ولفائدة المجتمع الذي يعيش فيه لأن الإنسان حينما يرتكب المعاصي يضر بالمجتمع إضرارا اجتماعيا. وإذا كان الرجل حين يقذف المرأة أو يتهمها يكون ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فكذلك الإنسان حينما يرتكب أية معصية من المعاصي هو يشيع تلك المعاصي وتلك الفاحشة في المجتمع الإنساني، أو في المجتمع الإسلامي، فلذلك يطلب منه أن يمسك عن ذلك، وأن يرجع إلى الطاعة وإلى الامتثال وإلى العمل الصالح.

وأما قوله في الحديث، إنكم لن تبلغوا ضري، هذا كما يفهم من اللفظ مايدل على أننا نستطيع أن نضر الله ولكن لا نبلغ لذلك، لا هذا غير موجود، وإنما هذا أسلوب من أساليب القول إنما هو تعبير على حد قول الشاعر:

"على لا حبٍ لا يهتدى لمناره"

يعني لا منار هناك فيهتدي إليه، أو يهتدى به، أي على طريق لا يهتدى لمناره، يعني على طريق مظلم، فليس هنالك منار بالمرة، فكذلك هنا، ليس هناك إضرار ولا إمكان لإضرار الباري عز وجل أو نفع الباري عز وجل وإنما هو أسلوب من أساليب القول يستعمل في اللغة العربية.

ثم قال الحديث ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئا ، ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك في ملكي شيئا ، بحيث إن مُلك الله فوق ما يتصوره الإنسان لا نهاية لكماله ، فكل ما يؤخذ منه أو يزاد فيه من الأعمال هو في الحقيقة بخلق الباري عز وجل ولذلك لا يزيد فيه ولا ينقص منه شيئا ، لكن مع ذلك . الأعمال التي نرتكبها هي أشياء تزاد وتنقص ، فالمقصود من هذا هو أن أثرها بالنسبة الى المملكة الربانية لا شيء ، لأن الله تعالى هو الذي يخلقها فأعمالنا نحن نحدثها حيث إننا نختارها ونريدها ، ولكن لا نحدثها الا بقدرة القادر الذي أقدرنا عليها سبحانه وتعالى ، فقد خلق فينا قدرة نستطيع أن نخلق بها ولكنه هو سبحانه الذي يمدنا دائما . لابد من نعمة الإيجاد ، ولابد من نعمة الإمداد دائما . فهو الذي أوجدنا . وهو الذي يمدنا . ولا يمكننا أن نعتبر الأسباب التي نرتكبها مخلوقة نهائية منا ولكنها مخلوقة منا بصفة ما، يعني منشاة من طرفنا ، ولكن في الواقع هي في القدرة التي هي خلق من الباري ثم هي القدرة الإلاهية التي صادقت على ذلك العمل وأمدته بالوجود لأنه كان في استطاعته سبحانه أن لا يفعل .

ثم قال : ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد " أي في مكان واسع مرتفع " ثم سالوني في مسالة واحدة فاعطيت كل واحد منكم مسالته " أما مسالة واحدة وإما كل واحد منكم سأل مسالة خاصة وأعطيت لكل واحد منكم ما طلبه مني مانقص ذلك في ملكي شيئا ، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يعني لو أن العباد جميعا اجتمعوا في صعيد واحد وملإ واحد وطلبوا كلهم دفعة واحدة " والعادة التي تتصور في ذهننا أنه حين يقوم ملأ كبير من البشر في موطن واحد ويسأل كل واحد شيا مختلفا عن الآخر . يقع نوع من التشويش ويقع نوع من الاضطراب . ولكن هذا بالنسبة الى الباري عز وجل لاشيء ، لانه يعرف كل واحد وما يريد . وقد علم ما يطلبه كل واحد قبل ان يلفظ به ذلك الواحد ، وقبل أن يخطر بباله أيضا ، فإن ذلك لا ينقص شيئا من قدرة الله عز وجل إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

والمخيط أي الإبرة الصغيرة إذا وضعت في البحر تنقص شيئا ما كما يقول الشراح : من البلادة أن يقال : إنها لا تنقص شيئا ، فهي تنقص شيئا لكنه لا أثر له فلذلك صح التعبير اللغوي بأن يقال إنه لا ينقص شيئا ،ولكن ذلك الشيء الذي ينقصه من البحر لا يتمثل مثله من النقصان بالنسبة إلى ماعند الله الى خزائن الباري عز وجل .

وقد ثبت في الحديث الشريف شرح لهذا المعنى : وهو أن الباري قال إن هذا بسبب أنني أنا العطّاء وأنا المعذب ، وإنما إذا قلت للشيء كن فيكون ، فمادامت الإرادة هي أمر من الله تعالى فهذه الأشياء التي تعطى هي خلق جديد فليست في خزانة . ولكن القدرة دائما تعمل بحيث ما طُلب منه تعالى شيء وأعطاه فلا ينقص شيء منه ، وأما التعبير اللغوي فإنما هو على جهة التقريب ، وعادة القرآن أن يمثل بالألفاظ اللغوية كما قال الإمام الغزالي : لأنها هي التي نفهمها نحن أي العبارات اللغوية .

ثم قال الحديث : ياعبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا

يلومن إلا نفسه .

يعني أن الجزاء الذي أعطيكم في الدار الآخرة إنما هو ثمرة عملكم . أحصيه لكم بنفسي . وبواسطة حفظة . ووجود الحفظة دائما مع الإنسان الذين يراقبونه لإحصاء عمله ليس لمساعدة الباري " حاشا وكلا " وإنما المقصود من وجود الحفظة ، هو الشهود الذين يشهدون على الإنسان .

وهذه منة أيضا من الباري عز وجل ، لأن المؤمن إذا اعتقد أن معه حفظة كراما يكتبون السيئات كما يكتبون الحسنات ، ويدلون بها في الدار الآخرة أمام الله عز وجل ، فإنه احتراما لإيمانه واحتراما لأولئك الحفظة الكرام يوثر أن يعمل الصالحات فيكتبها الملائكة الكرام ، ولا يعمل السيئات وهذا الإيمان الحقيقي الذي إذا سمع أن هناك حفظة كراما يكتبون ما يفعلون آمن بذلك وصدق واعتقد أن هذا الشيء أمامه كأنه شيء موجود ، فحينما يكون الإيمان بهذه الدرجة يستطيع الإنسان أن يراعي هؤلاء الملائكة . فلا يقول ولا يعمل إلا ما تقتضيه الحرمة التي تجب عليه نحو هؤلاء الملائكة الذين هم جنود برزة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يومرون . فهذه منة من الإمنانات الإلاهية على العبد .

أحصيها لكم بنفسي " وهو يعلمها " وهو إحصاء في كتاب باللوح المحفوظ .

ثم قال : ثم أوفيكم إياها ، أي أوفيكم جزاء أعمالكم فلما حذف المضاف قام المضاف مقامه ، ثم أجازيكم إياها أي أجازيكم بثواب أعمالكم التي قمتم بها . لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى . سواء هذا الثواب في الآخرة أو في الدنيا ، لأن الذي يعمل العمل

الصالح يجازيه الباري عز وجل في الحياة الدنيا فيثيبه بأن يحيى حياة طيبة .

ثم قال : فمن وجد خيرا " في الدار الآخرة " فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن أي لا يعاتبن " إلا نفسه ، وكذلك في هذه الدنيا ، من وجد نفسه يقوم باعمال صالحة فليحمد الله على أن وفقه لذلك ، " الحمد لله الذي هدانا لهذا وماكنا لنهتدي لولا أن هدانا الله " " الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور " هذه هي الصفة التي ينطق بها من يعمل العمل الصالح في الدار الآخرة كذلك ينطق بها الإنسان ، وأن ذلك من من الله تعالى عليه ، وإياه أن يعتقد أن هذا العمل قد قام به بحوله وطوله فيفسد عمله ، فلذلك قال : من وجد خيرا في الدنيا فليحمد الله على ما وفقه اليه ، أي من وجد في نفسه استعدادا للعمل الصالح فقد وفقه الله إليه ، فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد غير ذلك فعليه أن يرجع بمعاتبة نفسه ولومها ولا يلومن غيره ممن أساء الظن به أو غيره ممن يشركه في عمله ، بل عليه أن يرجع الى نفسه باللوم والمثوبة . وحينئذ تكون عنده النفس اللوامة ، والنفس اللوامة تؤدي بصاحبها الى الهداية والى الرشاد .

هذا هو معنى الحديث الشريف مجملا ، وفيه فوائد كثيرة لا نطيل بها ، وإذا شاء الله تعالى وتوفرت عدة فرص سيُعَلِّمها كثيرٌ من العلماء لمن بعدنا إن شاء الله .

اللهم إنا نسالك إيمانا دائما ، ونسالك قلبا خاشعا ، ونسالك علما نافعا ، ونسالك يقينا صادقا ، ونسالك دينا قيما ، ونسالك العافية من كل بلية ، ونسالك تمام العافية ، ونسالك دوام العافية ، ونسالك الشكر على العافية ، ونسالك الغنى عن الناس ، اللهم أحسن عاقبتنا في

الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم يا لطيف نسالك اللطف فيما جرت به المقادير ، اللهم يا رب العباد ، نسالك أن تمن علينا بمطر ينفع هذه البلاد ، ونسالك أن توفقنا لما فيه الخير الصميم والشكر الجزيل ، وأن توفق جلالة ملكنا الهمام أمير المؤمنين الحسن الثاني الى مواصلة الأعمال الجليلة ، والمناقب الجميلة ، حتى يحقق لهذه الأمة ما تصبو اليه من خير ، في الدين والدنيا والآخرة ، وأن يجعله حسنة من حسنات والده الهمام أمير المؤمنين سيدي محمد رحمه الله وغفر له .

ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الدّرس الثالث

من الدّروس الحسنية الرّمضانية

القرآن معجزة خالدة

رمضان 1385 - دجنبر 1965

الدرس الثـــالـث في موضـــوع :

القرآن معجزة خالدة (1)

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا إلى يوم الدين .

وبالسند المتصل الى الشيخ الإمام ، الحافظ الحجة الهمام أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن المغيرة البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه بسنده في كتاب فضائل الأعمال الى سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" مامن الأنبياء نبي إلا أعطي ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيتُ وحيا ، فأوحاه الله إلي ، فانا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة "

قد اقترح مولانا أمير المؤمنين أن يكون موضوع حديث الليلة هو " القرآن معجزة خالدة " وهذه الكلمة الكريمة هي التي تنطبق تماما على هذا الحديث الشريف الذي رويناه في صحيح الامام البـــخاري

---

(1) وقد ألقاه العلامة الجليل الاستاذ علال الفاسي رحمه الله في حضرة صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه بضريح مولاي الحسن بتاريخ رمضان عام 1385موافق 25-12-1965

رضي الله عنه ، وهذا الحديث الشريف يدل على معان كثيرة ، وهو اقوى الأحاديث دلالة على إعجاز القرآن ، وعلى أن معجزته ليست مقصورة في الزمان الأول ، ولكنها عامة في الزمان الأول والأخير ، وسنشرح الفاظ هذا الحديث ، ثم بعد ذلك نعرّجُ على موضوع المعجزة القرآنية ، وكونها خالدة بخلود الأبد ، ثم بعد ذلك نذكر وجوه الاعجا ز التي ذكرها علماء البيان ، والعلماء الذين قصروا أنفسهم على دراسة هذا الموضوع وألفوا فيه ، ثم المعاني التي أشار إليها العلماء المحدثون ، وبعض البيانات التي يجب أن تضاف إلى ذلك ، كل ذلك بعبارات وجيزة ، لأن هذا الموضوع الذي هو موضوع الاعجاز ، موضوع يضيق عنه وقت أو درس أو دروس كثيرة .

فاما قول النبي صلى الله عليه وسلم :" مامن الأنبياء نبي إلا أعطي ما على مثله آمن البشر ".

هذا الحديث شرحه الشراح على وجوه كثيرة ، ولكن خلاصة تلك الشروح كلها يؤول الى معنى واحد ، وهو أن المعجزة التي أعطيها الأنبياء من قبل كانت كلها من قبيل المحسوس ، وأما المعجزة التي أعطيها نبينا صلى الله عليه وسلم فكانت وحيا ، فإنها من قبيل المعقول ، وبما أن المعجزة الحسية إنما تقع باعتبار الوقت الذي وقعت فيه ، بحيث إذا فات ذلك الوقت تصير خبرا محضا يتناقله الناس ، ويرويه الرواة ، فإن المعجزة العقلية تدوم بدوام عقول الانسان ، فإن البرية تتجدد ، وأمواج الخلائق تتكون ، ولكل واحد منهم عقل ، وللجميع عقول يمكنهم أن يدركوا بها هذه المعجزة ، فتبقى معجزة النبي صلى الله عليه وسلم خالدة بخلود الأبد ، بينما معجزة الأنبياء السابقين مقصورة على الوقت الذي ولدوا فيه ، والذي تحدوا فيه أممهم في ذلك الوقت .

المعجزة لغة واصطلاحا :

والمعجزة في اللغةوفي الاصطلاح : هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي مع عدم دعوى المعارضة ، ثم إن هذا التركيب الإضافي حينما نقول : الاعجاز القرآني إنما معناه : إعجاز القرآن الخلائق أن يأتوا بمثل ما تحداهم عليه النبي ، فهو من قبيل إضافة الفعل والمصدر إلى الفاعل ، الفاعل هو القرآن الذي يضاف إليه أنه أعجز الخلائق عن الإتيان بمثل ما تحداهم بمثله من آي القرآن الكريم ، مع حذف الفعل وما تعلّق به ، والتقدير في ذلك إعجاز كتاب الله لخلق الله على أن يأتوا بمثل ما تحداهم به من القرآن أو من عشر سور أو من سورة واحدة من كتاب الله تبارك وتعالى .

والمقصود بالإعجاز ، ليس ذات الإعجاز وإنما المقصود هو آثار الإعجاز فالله سبحانه وتعالى لا غرض له في أن يثبت عجز الخلائق عن شيء من الأشياء ، لا فيما يرجع للقرآن ، ولا فيما يرجع للمعجزات الحسية التي كانت تقع للأنبياء السابقين ، وإنما المقصود آثار ذلك الإعجاز .

فالإنسان حينما يثبت عجزه عن الإتيان بمثل ما تحداه به النبي ، يكون قد اعترف بعد ذلك ضمنيا وتبعا لذلك العجز ، بأن هذا الشيء الذي عجز عنه هو قد عجز عنه جميع الخلائق ، وإذن ، فهو ليس من الأمور الموافقة للعادة ، وإذن ، فهو من عند الله سبحانه وتعالى ، هذا هو المقصود من إثبات الإعجاز ، وهو إقناع الناس الذين عُجِّزوا بأن يؤمنوا بصدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنها جاءت من عند الباري تبارك وتعالى ، وهذا الإعجاز ثابت بدليل هذا الحديث الذي قلناه :" مامن الأنبياء نبي " أي لم يكن هنالك نبي من

الأنبياد إلا وقد آتاه الله معجزة بحسب الحاجة التي يتوقف عليها ذلك العصر ، وبحسب الجو الذي كان موجودا في ذلك العصر ،وهي على كل حال معجزةحسية جديرة بأن يقبلها الناس ، وأن يصدقوا بها بسرعةولا سيما في ذلك الوقت الذي كان مستوى عقل الانسانية لازال بسيطا ،ولا زال ساذجا ،بل قال العلماء : إن قبول اولئك الأمم لتلك المعجزات الحسية يدل على بلادتهم ، بينما الأمة الإسلامية جاءت في موعد من الرقي البشري ، ومن التقدم الفكري الإنساني ،ولذلك كانت معجزتها عقلية ، ويدل ذلك على ذكاء هذه الأمة وفطنتها، لأنهالا تكتفي بالحسيّات ، وليس معنى هذاأن المعجزات التي وقعت لسيدنا محمدصلى الله عليه وسلم كلها كانت عقلية ،بل هنالك معجزات حسية كماسابين ذلك ،وإنماالمقصود أن الأمة قد كانت على موعد مع النبي صلى الله عليه وسلم ،وهو وأمته كانوا على موعد من التطور الانساني والنضج البشري الفكري ، وكذلك من الرشد الديني ، لأن هذا الدين هو الذي نزل آخر الأديان ، وهو الذي جاء بالرسالة التي ستبقى رسالة خالدة لجميع الشعوب ، وتدعى لها جميع الأمم وهي الرسالة التي يجب على كل بشري كيفا كان أن يومن بها ، ولا يرجو النجاة من الله إلا إذا صدق بها ، وبنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلذلك قال في الحديث " ما من الأنبياء نبي إلا وأعطي ما على مثله آمن البشر " أي أعطي معجزة من شأنها أن يومن بها البشر ، وهذه هي المعجزة الحسية . " وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي " أي أن المعجزة التي أعطيتها كانت عقلية وليست بحسية ، فلذلك ، فانا أرجو نظرا لكون العقول الكثيرة التي ستبقى على ممر الأزمان ، أتحداها بهذا القرآن . فأنا أرجو أن يكون التابعون لي أكثر من تابعي الأمم السابقة يوم القيامة وهذا رجاء من النبي صلى الله عليه وسلم ، نرجو الله أن يحققه ، وأن يعمم الإسلام في جميع العصور وفي جميع الأزمنة والأمكنة .

أنواع المعجزات :

ثم إن المعجزة كما قلنا ، إما معجزة حسية ، وإما معجزة عقلية .
والمعجزة الحسية كمثل المعجزات التي وقعت للأنبياء السابقين ، كناقة صالح ، وكذلك السحر الذي كان في زمن سيدنا موسى ، فانقلبت به العصا حيّة ، المعجزة هي انقلاب العصا حية ، وخروج يد موسي بيضاء نقية من غير سوء ، وكذلك معجزته الكبرى وهي انفلاق البحر حينما ذهب مع فرعون ، فنجاه الله تعالى ، وأغرق فرعون ، وكذلك المعجزات التي وقعت لسيدنا عيسى عليه السلام ، من إبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله .

قال علماء الكلام : والمعجزة كانت تابعة في الوقت للجو الذي كان موجودا فيه النبي ، فذلك الوقت الذي كان فيه زمن سيدنا موسى كان الجو المنتشر في ذلك الوقت عند المصريين وعند البابليين هو معرفتهم بكثير من أنواع العلوم وفي مقدمتها السحر ، فقد كان اولئك الرؤساء يأتون بالسحر المدهش حتى وصفه القرآن بقوله : " وجاؤوا بسحر عظيم " (1) فهو سحر عظيم كانوا يستعملونه بسبب المعرفة العلمية التي ورثوها عن بابل ، وإذا قلنا العلوم ، فإنما العلوم في الحقيقة كما كان يفسرها البابليون ، منها ما كان صوابا ، ومنها ما كان مخطئا ، فأعطى الله سيدنا موسى معجزة بزّت أنواع السحر الذي كان يعرفه أولئك القوم ، والعلوم التي كانوا يدركونها .

وفي زمن عيسى عليه السلام ، كان الجو انتشر فيه الطب وتقدم تقدما عظيما ، فأعطى الله سيدنا عيسى معجزة كبيرة ، وهي إبراء

---

(1) سورة الأعراف

الأكمه والأبرص ، بل تجاوز ذلك إلى إحياء الموتى بإذن الله ، فبزّ بذلك الأطباء وعلماء الطب على الإطلاق .

ولما كان العصر الذي ولد فيه سيدنا صلى الله عليه وسلم ، بالنسبة للأمة العربية ، عصر البلاغة وازدهار فنون القول من الشعر والنثر والسجع وغير ذلك من أنواع الفنون الأدبية التي كانت معروفة عند العرب ، فإن الله تعالى أعطى نبيه معجزة فاقت تلك المعجزات الكلامية كلها حتى تفوق عليهم فلم يستطيعوا ، وتحداهم فلم يقدروا ، وقال لهم لن تفعلوا فلم يفعلوا ، فهذا هو السّر في كون معجزته صلى الله عليه وسلم كانت بلاغية من قبيل الكلام ، وذلك هو معنى هذا الحديث الشريف : " ما من الأنبياء إلا أعطى مثل ما آمن على مثله البشر " أي إلا ما آمن مغلوبا على مثله البشر بطريق الاقتناع بذلك ،ومعجزة الأنبياء السابقين خاصة بعصورهم .

وأما معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنها دائمة بطول الدهر ، وهي معجزة في عصره عليه السلام ومعجزة في كل عصر جاء بعد عصره صلى الله عليه وسلم ، وهي معجزة في عصرنا ، والقرآن يتحدى كل أحد من العرب ومن غيرهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن . من العرب أن يأتوا بمثله في لفظه ومعناه ، أو بسورة منه في لفظه ومعناه ، ومن غير العرب أن يأتوا بالمعاني والمعارف والهداية والارشادات التي يحتويها كتاب الله تعالى ، ولن يستطيعوا أن يفعلوا ذلك أبدا .

وقد ثبتت المعجزة بالفعل ، فإن التحدي واقع باستمرار ، والعجز ثابت بالاستمرار ، واللغة العربية محفوظة دائما ، والعرب لا يزالون موجودين من المسلمين ومن غيرهم فصحاء بلغاء ومع ذلك لم يقدر

أحد منهم أن يتحدى الناس أو يقول بمعجزة جديدة ، أو يأتي بكتاب بين يقنع الناس به ، وكل ما وقع في بعض العصور ، هو بعض الهراءات التي جاء بها بعض المتنبئين مما لا قيمة لها . ومن ذلك ما فعله مسيلمة الكذاب الذي كان ادعى النبوة في بني حنيفة ، فإنه قد ادعى أنه يستطيع أن يأتي بمعارضة لأقصر سورة في كتاب الله . وهي سورة إنا أعطيناك الكوثر" (1) فجاء بهراء يقول فيه :" إنا أعطيناك الجماهير ، فصل لربك وجاهر ، إن مبغضك لكافر " هكذا جاء به مسيلمة الكذاب . وجاء بمعارضة لسورةالفيل ، فقال : " الفيل وما أدراك ما الفيل ، له ذنب قصير ، وخرطوم طويل " في كلام مثل هذا ، وجاء في سورة الضفدعة " ياضفدع بنت ضفدع ، نقي ما جئت فنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تشربين ولا الطين تمنعين " وجاء في آية أخرى عنده : " الطاحنات طحنا ، فالعاجنات عجنا ، فالخابزات خبزا " إلى غير ذلك من هذه الخزعبلات والخرافات التي جاء بها مسيلمة الكذاب .

يقول مصطفى صادق الرافعي في كتابه ، " في تاريخ آداب اللغة العربية " في القسم المتعلق بإعجاز القرآن :" إنه - أي مصطفى - يعتقد أن السيد مسيلمة الكذاب ما كان يقصد لمعارضة القرآن ، وإنما كا ن يقصد أن يرتفع في جو بني حنيفة بأسلوب من الأساليب التي كانت معروفة عند الكهنة ، بأسلوب من الأساليب التي كانت عند العرافين ، العرافون كانوا يأتون بكلام مسجوع ، كما وقع بزعمهم أنهم سمعوا الجن يتكلم ويقول : " يوم جليح ، وأمر نجيح ، ورجل فصيح يقول لا إله إلا الله " وقصدوا بذلك إسلام سيدنا عمر بن الخطاب ، فهو يقلد هؤلاء القوم في هذه الأساليب عسى أن يرتفع في

---

(1) سورة الكوثر

وسط قومه إلى الدرجة التي يكون فيها مثل العرافين الموجودين في ذلك العصر . وأما النبوة فهي من طينة أخرى ... وأما القرآن فهوأسلوب غير هذا الأسلوب .

ثم بعد ذلك ، نسبوا إلى جماعة أمثال الجاحظ ، قالوا إنه قلد القرآن ، مع أن الجاحظ ألف كتابا في بيان إعجاز القرآن ، وكتابه معروف ، وقد تكلم عليه العلماء الذين كتبوا في إعجاز القرآن ونقلوا عنه .

وكذلك نسبوا إلى المعري أنه أراد أن يقلد القرآن ، مع أن المعري في أشعاره وفي كلامه كله ما يدل على إيمانه بإعجاز النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه لما ألف شرحه لديوان المتنبي سماه " بمعجز أحمد "

وآخر الخرافيين الذين أرادوا ن يقلدوا القرآن ، وأن يأتوا بكتاب على غرار كتاب الله تعالى ، الطائفة البهائية في القرن الماضي حيث ألف رئيسها كتابا سماه " الأقدس ؛ ثم جاء فيه بخرافات من جملتها أنه منع من تعليم كل العلوم إلا هذا الكتاب ، فلما رأي أتباعه أن ذلك سيضربهم ، كتموا هذا الكتاب وطووه إلى وقت يمكنهم أن ينشروه فيه بعد ذلك ، وقد وقع من بعض مدعي المهدوية في الهند كذلك ، مثل هذا العمل ،ولكن كلامهم كله كان خرافيا ، ولم يأت بحجة قاطعة ، إن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم قائمة وثابتة مدى الأزمان ، وهي تنجلي في ثلاثة أقسام :

1/ القسم الأول :

إن البحث في إعجاز القرآن شيء ضروري ، لأن نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ثابتة ، ولأن نبوته صلى الله عليه وسلم مبنية على

إعجاز القرآن ، فإذا لم تثبت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لا يمكن أن تثبت نبوة نبي من الأنبياء ، ولا رسول من الرسل ، ولا معجزة من المعجزات ، وإليكم البيان :

- أما من جهة ثبوت المعجزة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهذا شيء ضروري ، لأن القرآن قد اعتبر ذلك شيئا أساسا: " الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور " (1) فجعل القرآن سببا وسبيلا لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ولا يمكن أن يكون سبيلا لإخراج الناس من الظلمات إلى النور إلا إذا كان حجة ، ولا يمكن أن يكون حجة على الناس إلا إذا كان معجزة ، وكذلك يقول الله سبحانه وتعالى : " وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، (2) ولولا أن سماع كلام الله حجة عليه ، ما كان لإسماعه كلام الله فائدة ، وإنما المقصود بذلك إقامة الحجة عليه ليومن اويكذب ، فتكون الحجة قائمة عليه .

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن على نبيه ، وبين في غير ما آية ، أن إنزاله تم ليكون هداية وتبشيرا ، وإنذارا للناس ، ولا تكون به البشارة والنذارة والهداية إلا إذا كان حجة ، ولا يمكن أن يكون حجة إلا إذا كان معجزة خارقة للعادة ، وتحدى به النبي صلى الله عليه وسلم الناس ، وآمنوا بذلك التحدي وصدقوا وقبلوا أو كذبوا فكفروا .

---

(1) سورة ابراهيم
(2) سورة التوبة

ونحن إذا تتبعنا السور القرآنية المفتوحة بالحروف المقطوعة التي فيها " ألم ، أو ألمر ، أويس ، أو طس أو طسم ، أو حم ، أو حمعسق" أو غير ذلك من هذه السور ، فواتح السور التي فيها الحروف المقطوعة ، إذا نحن حللنا عناصر هذه السور كلها ، نجدها قائمة على هذا المعنى أي على إثبات أن القرآن الكريم ، والرسالة التي جاء بها سيدنا صلى الله عليه وسلم إنما هي مركبة من كلام العرب ، وإنما هي مركبة من هذه الحروف المقطوعة التي يبتديء بها القرآن هذه السور الكريمة ، فإذا أخذنا " ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين "(1) الى آخر السورة نجد أن فيها كلاما كثيرا عن قضية الإعجاز . والبداية بدأ بقوله " ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه " يعني هذا الكتاب المقروء عليكم ، الذي لاشك فيه ، ليس شيئا خارجا عما ألفتموه من الكلام والجمل المتركبة من هذه الحروف المقطوعة " ألم " الى غيرها من الحروف التسعة والعشرين المعروفة عند العرب ، وإنما ذكر " الألف " لأن فيها البداية ، وذكر " اللام " لأنها من الحروف المتوسطة ، وذكر " الميم " لأنها من الحروف المتاخرة ، وقد أراد بذلك والله أعلم ، الدلالة على ما وراءها من الحروف .

المقصود أن هذه السور الكريمة تد ل على أن القرآن كله مركب من الحروف ومن الكلمات ، هذه الكلمات التي تنطقون بها ، وهذه الحروف التي تكتبونها ، وهذه الأشياء التي تقرأونها هي التي جئتكم بها في كتاب ، ولكن هذا الكتاب ليس كالكتب التي تعرفون ، فلذلك أنا أتحداكم أن تأتوا بحديث مثله ، أن تأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، أن تأتوا بسورة من مثله ، فوقع التحدي بهذه الأحوال

---

(1) سورة البقرة

كلها ، فإذا قرأنا مثلا من هذه السورة : " حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ، شديد العقاب ذي الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير ، ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ، فلا يغررك تقلبهم في البلاد (1) نجد القرآن يقول : " ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا (2) والكفر أنواع ، ومعناه هنا الكفر بمعنى الجحود ، فما يجادل في آيات الله المنزلة على نبيه صلى الله عليه وسلم إلا الذين عرفوه والذين صدقوا به في داخل أنفسهم ، ولكن كفروا به ظاهرا وجحدوه ، لأنه طغت عليهم أنفسهم فلم يستطيعوا أن يعترفوا بالحقيقة ، فجعل جدالهم في ثبوت القرآن كفرا وجحودا ، ثم بعد ذلك قرن هذا الشيء الذي وقع من العرب بما وقع من غيرهم من أمم الأنبياء السابقين حيث قال : " كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق " (3)

فبين بأن هذا الجدال و مقاومة الأنبياء هي من سنن البشر ، وأنه كما وقع ذلك لسيدنا صلى الله عليه وسلم ، فقد وقع ذلك للأنبياء السابقين من قبله ، وليس هو بدعا من الرسل حتى يخرج هو عن هاته الأشياء التي وقعت لمن قبله من الأنبياء والرسل ، ولكن القرآن بين لنا أن هذه المقاومة والجدال العنيف الذي يقع من الجاحدين ينتهي دائما بالبطلان وبالفشل الذريع ، فلذلك قال : " فأخذتهم " أي غلبتهم " فكيف كان عقاب ؟ " ثم بعد ذلك في هذه السورة تحدث بتطويل في جملة آيات عن كل ما يرجع لذم الكافرين والثناء على

---

(1) سورة غافر

(2) سورة غافر

(3) سورة غافر

المومنين ، وأن الملائكة الذين يحفون حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا " ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم " (1) وهذا يدل على أن المؤمنين بإ عجاز القرآن يستحقون أن تستغفر لهم الملائكة وهم يسبحون بحمد الرحمن ، وأما الذين يكفرون بهذا الإعجاز ، فإنهم في الحقيقة مذمومون مقهورون ، ثم بعد ذلك يقول في آخر السورة :" أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض ، فاخذهم الله بذنوبهم (2) " فكما أخذهم بذنوبهم يمكنه أن يأخذ هؤلاء الذين لا يبلغون مبلغ الشدة والقوة التي كانت لأولئك ، فبين سبحانه وتعالى أن الايمان لابد ان يؤدي إلى النصر ، ولابد من أن يؤدي إلى الفوز المبين ، وأن الكفر والإلحاد لابد أن ينتهي إلى الاضمحلال وإلى نهاية الأمم والشعوب ، وإلى أن يأخذهم الله بذنوبهم .

وقد بين جمال الدين الأفغاني في كتابه " الرد على الدهريين " ذلك بعرض تاريخي مهم حيث استعرض كل الأمور التي وقعت للأمم السابقة ذوي الحضارات الراقية ، وكيف أنهم حينما ابتعدوا عن الدين سقطوا ، وكيف حينما يومنون بالدين ، بأي دين كان ، فإنهم يرتفعون ، وذلك ما وقع للمسلمين أيضا ، فإنهم حينما اتبعوا دينهم وسلكوا شريعة نبيهم ارتقوا وتقدموا، ثم أصابهم بعد ذلك آفة الانحطاط ، فإذا هم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى وإلى دينه الكريم ، فإنهم لابد أن يجبر الله تعالى كسرهم ويجبر صدعهم هذا ما يتعلق بالقسم الأول ، وهو كون القرآن قد بين بنفسه حجيته ،

---

(1) سورة غافر

(2) سورة غافر

وقد بين إعجازه بهذه الآيات التي شرحت لكم باختصار وإيجاز .

2/ القسم الثاني

أما القسم الثاني من هذا البحث ، فهو أن إعجاز القرآن ثابت ، ووجه دلالته ماهو ؟ وجه الدلالة ، هو ثبوت القرآن ثبوتا قطعيا ، وأنه خرج من بين شفتي النبي صلى الله عليه وسلم لايشك في ذلك شاك ، فنحن إذا تتبعنا التاريخ لا نجد كتابا من الكتب ولا خبر نبي من الأنبياء ثابتا بالتواتر كما ثبت القرآن ، فإن سيدنا صلى الله عليه وسلم لبث في قومه ثلاثا وعشرين سنة ، نصفها بمكة ونصفها بالمدينة ، وفي كل هذه المدة كان يتلو عليهم آيات من كتاب الله ، وكانوا يسجلونها وكانوا يحفظونها ، حتى اجتمع هذا القرآن الذي بين أيدينا " المصحف " كتبه المسلمون ، وكتبه الصحابة ، وحفظه بعض الصحابة في صدورهم ، وكتبه كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعث ببعضه صلى الله عليه وسلم مع رسله إلى الذين كتب إليهم من الرؤساء الذين وجه إليهم سفارات صلى الله عليه وسلم ،وانتقل ذلك مع ولاة أمره إلى الأماكن والبقاع ، فاطلع على القرآن آلاف وعشرات الآلاف ومئات الآلاف في عصره صلى الله عليه وسلم ، بل الملايين من المؤمنين واطلع على رأيه الآلاف بل الملايين من الكافرين ومن المخالفين ، وكلهم عرفوا أن ما في القرآن مخالف لهم ، كما عرف المومنون أن ما في القرآن موافق لهم ، ولم يمت صلى الله عليه وسلم حتى كان القرآن مجموعا في الحفظ ، مجموعا في اللخاف ، مجموعا في الجرائد ، جرائد النخل وفي غير ذلك من الأوراق التي كان يكتب بها ، وقد جمعه سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه من صدور الرجال ، ومن هذه الأوراق التي كتبت في عهده صلى الله عليه وسلم ، ثم بعد ذلك جمع مرة أخرى في زمن

سيدنا عثمان ، جمع من تلك الأوراق نفسها ، ومن النسخة التي كتبها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وكانت محفوظة عند صفية ، وجمعها كذلك من صدور الرجال الذين كانوا حفاظا لكتاب الله تبارك وتعالى ، ومنذ ذلك الوقت وزع سيدنا عثمان المصاحف على الآفاق وانتشرت ، وفي كل عصر وفي كل جيل يكثر من حفاظ القرآن الملايين ، ويكثر من كتاب القرآن كذلك الملايين ، ويكثر كذلك من المصاحف المنشورة في البقاع الملايين .

وبعض الناس يحفظ القرآن للتعبد به ، وبعضهم يحفظه لدراسته ، وبعضهم يحفظه لخدمته من جهة القراءة ، وبعضهم يحفظه لخدمته من جهة اللغة ، وبعضهم حفظه لخدمته من جهة التفسير والتأويل ، وبعضهم حفظه من جهة الرسم ، وبعضهم حفظه من جهة استنباط العلوم ، وبعضهم حفظه من جهة النحو ، وبعضهم حفظه من جهة الصرف ، وبعضهم استفاد به الأحكام الشرعية ، ودرس الأحكام ، وغير ذلك من الأمور التي اشتغل بها المسلمون ، والتي كان القرآن سببا في إيجاد العلوم التي اشتغلوا بها واستفادوها منه من لفظه ومن معناه ومن دراسته ومن تأويله ، فهذا القرآن الذي نقل هكذا منذ ذلك الوقت ، ثم لما ظهرت الطباعة صار يطبع منه الملايين في كل شهر ، بل الملايير في كل سنة في كل بلد من بلاد الاسلام ، وفي كل أرض من أرض الله سبحانه وتعالى يوزع هذا القرآن وينتشر في كل الآفاق ، ومع ذلك فلم يحدثنا التاريخ في وقت من الأوقات أن هنالك تناقضا في هذه الآيات أو نقصا في هذا القرآن أو تبدلا في هذا الكتاب الكريم . إنه لا يزال محفوظا كما هو ، فلا يشك شاك وهو جاد في شكه أن هذا الأمر قد خرج من بين شفتي النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا لم يثبت هذا ، فإنه لا يمكن أن يثبت غيره .

ودليل ذلك أن الكتب المقدسة التي للأمم السابقة لا يمكن أن تفتخر بمثل هذا الثبوت ، لايمكن أن تفتخر بهذا التواتر الذي هو موجود بصفة قطعية ، لأنه من المعلوم والذي اتفق عليه جميع العلماء : اليهود والنصارى والمسلمون وغيرهم ، اتفقوا كلهم على أن التوراة - التي كان يعلمها سيدنا موسى عليه السلام لقومه قد ضاعت ، ولم تبق منها إلا نسخة واحدة كانت عند العازر ، وأن هذه النسخة بعد ذلك قد غرقت في البحر ، فجميع النسخ الأصلية قد ضاعت ، والتوراة الموجودة الآن إنما هي بعض مما كتبه العازر بامر ملك من ملوك البابليين بعد أن زال اضطهادهم السابق الأول ، وأذن لهم في كتابة الصحف ، وأذن للعازرأن يكتب لبني إسرائيل كتاب " الرب تعالى " كما تتحدث بذلك أخبار التوراة نفسها ، ولذلك نجد في التوراة الموجودة التي هي باللغة العبرانية آلاف الكلمات البابلية ، ونجد فيها اختلافا مع ماهو موجود في الآثار الثابتة عن سيدنا موسى ،وفي الأشياء المعروفة من الديانات السابقة واللاحقة ، والتي يتحدث بها القرآن الذي هو المهيمن على أخبار جميع الكتب السماوية .

أما الإنجيل ، فجميع العلماء كذلك متفقون ، علماء النصارى وعلماء اليهود وعلماء الوثنيين الموجودين الآن ، الباحثين في التاريخ ، جميع العلماء كيفما كانوا ، وجميع المسلمين كذلك متفقون على أن هذا الإنجيل ليس هو الإنجيل الذي قرأه سيدنا عيسى عليه السلام ، لأن الحواريين لم يحفظوا هذا الإنجيل ولم ينقلوه إلينا ،

أما هذه النسخة التي توزع منها نسخ كثيرة فإنما هي قطع كان يحفظها بعض الناس ممن كانوا يدعون أنهم استفادوا من الحواريين .ولم تجمع ويتفق النصارى في مؤتمر خاص إلا زمن

القسطنطين إمبراطور روما الذي تنصر لأجل سبب سياسي ، والذي قَبل أن يُجمَع أربعة كتب من الأناجيل الموجودة ثلاثمائة سنة بعد موت المسيح عليه السلام ، ثم منذ جمع هذا الإنجيل في ذلك الوقت ، وقع فيه تحريف وتبديل وتغيير .

وقد ألف العلامة رينان كتابا بين فيه بالحجج القاطعة أن التبديل والتغيير وقع في هذا الإنجيل في طول الزمان ، وفي مختلف العصور ، وهو يذكر لك في العصر الفلاني حذفت الجمل الفلانية ، في العصر الفلاني أضيفت الجمل الفلانية ، وفي العصر الفلاني وقع كذا وكذا ، وهذا هو السبب الذي جعل البابا يحكم على كتب رينان بأنها ممنوعة من أن تقرأ ، وبأنها كفروإلحاد .

هذا كله يدل على أنه لا يمكن بصفة قاطعة أن يثبت لنا ثبوتا تاريخيا ، وثبوتا متواترا أي كتاب من الكتب السابقة ، ولكن القرآن وحده الذي هو ثابت بهذه الطريقة التي قلت لكم ، بالتواتر ، وهو وحده الذي قال عن بني اسرائيل أنهم " نسوا حظا مما ذكروا به " (1) وأثبت لهم أنهم لا يزالون محافظين على حظ ما ذكروا به ، ولولا هذه الآية القرآنية التي ثبتت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي هي بوحي من السماء ، ما كان لأحد من البشر يبحث بحثا علميا أن يتيقن أن اليهود أو النصارى لا يزالون محافظين ولو على حظ مما ذكروا به مما أنزل الله على موسى وعيسى ، فلذلك قلنا إنه إذا لم يثبت إعجاز القرآن ، ولم تثبت نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يمكن من الوجهة العلمية ، ومن الوجهة المنطقية أن يثبت أي دين من الأديان بالمرة .

---

(1) سورة المائدة ص 13

فثبوت الأديان السابقة متوقف على الثبوت المنطقي وعلى الثبوت التاريخي لنبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولإعجاز القرآن . والقرآن لا يبخل بذلك ، وهو يؤكد أن قيمته ستبقى دائمة ، وأنه لا يبلى على كثرة الردوأنه سيحيى دائما خالدا بإعجازه الماضي وبإعجازه الحاضر ، هذا من جهة ثبوته إلى نبينا صلى الله عليه وسلم .

قد يقول قائل ، نحن لا نشك في أن هذا القرآن قد ثبت وقد تواتر عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن ، أفلا يمكن أن يكون من صنع محمد ؟ وليس من وحي الله ؟ نقول لهم : لا ، دليل ذلك كثير ، من جملته ، أن هذا القرآن قد نزل منجما بحسب الوقائع والحوادث ، ثم كان كلما نزلت آية يقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لكتابه ، ضعوا هذه الآية في المكان الفلاني من السورة الفلانية ، فلم يمت صلى الله عليه وسلم حتى كان القرآن مجموعا مرتبا بآياته ، فترتيب الآيات هو توقيفي وليس اجتهاديا ، وقد وقع في زمنه صلى الله عليه وسلم ، وإنما وقع الجمع بعد ذلك كما قلت لكم في زمن سيدنا أبي بكر مما حفظه الناس ومما كتبه الصحابة رضوان الله عليهم .

فالقرآن اذن في هذا الترتيب ، نجد الاختلاف بين سنة النزول ، بين وقت النزول للآية وبين المكان الذي توضع فيه هذه الآية ، فنحن مثلا نرى في آخر القرآن ترتيبا " اقرأ باسم ربك الذي خلق (1) " بينما نرى أن " إقرأباسم ربك الذي خلق "هي أول آية نزلت من القرآن الكريم ، ونرى آيات من كتاب الله في سورة البقرة وهي آخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أيام قبل وفاته عليه الصلاة والسلام .

---

(1) سورة العلق

ونرى هذا الترتيب لائقا سواء في السور الكبيرة التي نزلت منجمة وبقطع مختلفة مثل سورة البقرة التي نزلت في ثلاث وثمانين دفعة ونجد نفس الانسجام ونفس التوفيق في السورة التي نزلت دفعة واحدة كسورة آل عمران كما هو مذهب الجمهور في نزولها ، فإذا جمعنا بين سورة البقرة التي نزلت في ثلاث وثمانين مناسبة وبين سورة آل عمران التي نزلت في مناسبة واحدة وفي دفعة واحدة نجد أن هذا لا يمكن أن يقع إلا بإعجاز من الباري عز وجل ، لأنك لو جئت تجمع الآيات وترتبها هذا الترتيب على هذه الصفة ، ولا يمكنك أن تزعزع آية من مكانها إلى مكان آخر إلا وفسدت المعنى وذهب الإعجاز ، ولذلك قال العلماء : إنه يحرم على الإنسان أن يقرأ القرآن من أسفل إلى أعلى ، ولم يبيحوا ذلك إلا للتلامذة الصغار لأنهم يتعلمون ، وكرهوا ذلك في الصلاة ، قالوا : إنه يكره للإنسان أن يقرأ السورة وينتكس السورة التي بعدها ، وأما في التلاوة وفي الترتيب ، فإن ذلك حرام كما اتفق عليه العلماء ، لأن الإعجاز يمس به ذلك التنكيس ، لأن الترتيب الذي وقع فيه حظ من الإعجاز ، ولذلك تكون من علوم القرآن علم المناسبة ، فقد ألف العلماء كتبا كثيرة باجتهادهم وببذلهم المجهود في فهم المناسبة بين هذه الآية والتي بعدها ، المناسبة بين هذه السورة والتي بعدها هذه واحدة .

يقول قائل : يمكن مع ذلك أن يقع هذا الشيء وأن يتوفق لرجل عبقري ، نقول له هاهو كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، الحديث النبوي بين أيديكم ، إنه توجد في كل مكتبة عشرات الكتب ، بل مئات الكتب المملوءة بالأحاديث النبوية ، وقد جمع الحافظ السيوطي نحو المائة ألف حديث ، وتدارك عليه السيد ادريس العراقي الحافظ المغربي عشرة آلاف حديث ، على كل حال هنالك عشرات الآلاف من الأحاديث النبوية ، هلُمّوا ونظّمُوا جمعية أو لجنة كيفما شئتم

وأزيلوا الأسانيد ، ورتبوا هذه الأحاديث كما رتب القرآن ، ونعارضها بالقرآن ، فهل نستطيع ترتيب الحديث كما رتب القرآن ، إذا كان كلام النبي نرتبه ولا نستطيع ، وهذا تحد عصري لجميع الشعوب ولجميع العلماء لا يمكنهم أن يرتبوا الحديث كما رتب القرآن ترتيبا توقيفيا .

ونقطة أخرى ، وهي أن القرآن إذا قارناه بكلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإننا نجد البون شاسعا في الفصاحة والبلاغة ، فليس كلام الله ككلام الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لاشك أن كلامه أفصح كلام يصدر من إنسان ، ولكن مع ذلك فهو لا يوازي البلاغة والفصاحة الموجودة في كتاب الله تبارك وتعالى ، وهاهو الحديث ، وهاهو القرآن الكريم .

بل الحديث القدسي الذي هو من كلام الله ، وإنما عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بعبارة من عنده ، ومع ذلك لا يبلغ ولا يصل ولو عشر معشار البلاغة التي في كلام الباري عز وجل ، فدل ذلك على أنه لا يمكن أن يعتبر القرآن إلا معجزا صادرا من الباري عز وجل ، ولا يمكن أن يكون صدر من إنسان .

هناك نقطة مهمة أخرى وهي أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثبت ثبوتا قطعيا ، أنه كان أميا لا يعرف الكتابة ولا قراءتها ، ولم يتعلم الكتابة والقراءة قط ، ولم يدرس على أحد قط :" وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ،ولا تخُطّه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون (1) وقد قال لهم صلى الله عليه وسلم : " فقد لبثت فيكُمْ عمرا من قبله ، أفلا

---

(1) سورة العنكبوب ص 16

تعقلون (1) " لبث فيه صلى الله عليه وسلم أربعين سنة ، فلم يقل لهم شعرا ، ولم يخطب فيهم خطابة واضحة فصيحة ، ولم يُبَيِّن لهم كلاما أو حكما ، ولم يحضر معهم تلك المواسم التي كانوا ينظمو نها : عكاظ وذو المجنة ، من المواسم العربية التي كانوا يتبارون فيها ويتفاخرون ، ما حضرها صلى الله عليه وسلم ، ولا تفاخر مع أحد ولا تبارى مع أحد في الكلام ، ولم يعرفه الناس خطيبا ، وقد كانوا يخالطونه ويعاشرونه إلا كونه أمينا صادقا ذامروءة وذا كرم وذا إحسان ، ولكن لم يعرفوا عنه أبدا أنه شاعروانه فصيح أو أنه خطيب أو أنه متكلم ، أو أنه دارس أو أنه يتردد على أحد ليدرس عليه كما ادعوا بعد ذلك .

لقد قالوا إنه صلى الله عليه وسلم تعلم من بعض الرهبان ، وقد زنوه بذلك حينما كان صلى الله عليه وسلم انتقل الى الشام ، ولكن إذا نظرنا من الوجهة التاريخية نجد أن سيدنا عليه السلام انتقل فعلا الى الشام وهو صغير يبلغ العشرة أعوام مع عمه ، ولما ذهب هناك في الطريق خاف عليه من اليهود (عمه) فرده ولم يبق معه إلا بضعة أيام ، فلا يمكنه أن يكون قد تعلم فيها شيئا ، ولا يمكن لرجل من مطلق الناس أن يتعلم لا من الرهبان ولا من غيرهم شيئا من الأشياء في تلك المدة القصيرة .

ثم إنه سافر بعد ذلك مع غلامه (ميسرة) في تجارة إلى خديجة ، ولكنه لم يتجاوز حدود بصرى ، مدينة بصرى ، باع فيها البضائع ثم رجع بحيث لم يمكث إلا بضعة أيام في هذه الرحلة وعمره خمسة وعشرون سنة ، على كل حال من جهة السن كان يمكن ، ولكنه لم يمكث

---

(1) سورة يونس ص 16

إلا بضعة أيام ثم رجع ، ثم ماذا يتعلم من هؤلاء القوم . هاهي الكتب المقدسة والمعارف التي كانت موجودة عند اولئك الناس في ذلك الوقت ، وهاهو القرآن الكريم بين ظهرانينا ، فكيف يمكن إذا قارنا أن نجد في تلك الكتب عشر معشار ما في القرآن من العلوم ومن المعارف التي سنبين بعضها .

فكتاب الله تعالى دائرة معارف بعيدة عن أن تكون شبيهة بمثل تلك الكتب ، لقد ذكر القرآن أشياء مما ذكرته الكتب المقدسة السابقة ولكنه اختلف معهم في أشياء كثيرة ، فإن القرآن الكريم يتحدث لنا عن قصة ذبح البقرة " إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة " (1) هذه القصة غير موجودة في التوراة ، فمن أين جاء بهامحمد صلى الله عليه وسلم ، ونجد كذلك قصة العازر ، فإن القرآن يقول :" وقالت اليهود عزيرا بن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله (2) وقد شنع اليهود في عصره صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن النبي يقوّ لنا ما لا نقوله ، فنحن لا نقول إن العزير ابن الله ، وقد بقيت هذه المسألة مجهولة عند كثير من العلماء حتى القرن العشرين ،حيث جاءت الحفريات في مصر ، تثبت أن العزير كان معبودا لقدماء المصريين ، لأن قدماء المصريين كانوا يوحدون الله أولا ، ثم انتقلوا بعد ذلك الى عبادة الشمس ، وكانوا يسمون الشمس بالآزر ، وسمى الأوربيون هذا الإله المعبود عندهم بالأوزيرس ، فهذا العزير الذي كان عند قدماء المصريين في مرحلة من مراحل التاريخ حينما كان قدماء بني اسرائيل في مصر اقتبسوا هذه العبادة من قدماء المصريين ، هذا ما عثر عليه في الحفريات الموجودة في إحدى الحفريات المهمة في

---

(1) سورة البقرة

(2) سورة التوبة

مصر ، وهي تثبت معجزة القرآن وصدقه فيما يخبربه وإن كذبه اليهود الذين كانوا في جزيرة العرب ، لأنهم لم يكونوا يعرفون هذا النوع من الحديث عندهم ولا من خبر أسلافهم ، فإذن هنالك في القرآن أشياء كثيرة مختلفة تختلف عما في التوراة والانجيل من هذه المسائل المذكورة .

ثم قصة المسيح :" وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، مالهم به من علم ، إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه (1) فالانجيل يقو ل إن المسيح قد صلب وإنه قد قتل ، والنبي لا يقول إنه ابن الله ، بل القرآن يقول : " رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه (2) وأما المسيحيون فيقولون : إنه ابن الله .

فهذا الاختلاف الكبير هل تعلمه (أي الرسول) من أولئك الرهبان ، ومن اولئك القسس ، ومن أين جاء به ؟ إذن المعجزة ثابتة ثبوت التواتر ، حيث إن القرآن ثابت ثبوت التواتر ، وكونه خرج من بين شفتي النبي صلى الله عليه وسلم ، القرآن ثابت بدون شك ، أنه من عند الله نظرا لكون الأشياء التي بيناها وفي مقدمتها كونه جاء به نبي أمي .

3 / القسم الثالث :

أو المسألة الثالثة :هي أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تحداهم بذلك ، فقد قال لهم مرة : " فلياتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين "(3)

---

(1) سورة النساء (2) سورة النساء

(3) سورة الطور

فلم ياتوا وقال لهم : " فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين "(1) وتاملوا في قوله تعالى : إن كنتم صادقين " و " إن كنتم في ريب مما نزلنا (2) " إن كنتم " استعمل القرآن " إن " .

وهذه من دلائل الإعجاز البلاغية ، استعمل " إن " ولم يستعمل " إذا " لأن " إذا " تستعمل في التحقق، وأما " إن " فإنها تستعمل في الشيء المشكوك فيه " إن كنتم في ريب " ، يعني القرآن يشكك في كون أولئك القوم يرتابون في صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو يتنبأ بأنهم في الحقيقة لا يشكون وإنما يجحدون ، " إن كنتم في ريب " " وإن كنتم صادقين " فهذا في الحقيقة يدل على أنه يشك في كونهم صادقين فيما يزعمون وفيما يدعون ، فلذلك قال : إن ، ولم يقل إذا ، " فاتوا بسورة من مثله " .

الشيخ محمد عبده يقول : إن الضمير هنا يعود على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتوا بسورة من مثله ، لا من القرآن ، يعني ليكون الاعجاز أبلغ ، فاتوا بسورة مثل القرآن ، من مثل رجل أمي ، كمحمد صلى الله عليه وسلم .

وبعض المفسرين يقول : إن الضمير يعود على القرآن نفسه :" فاتوا بسورة من مثله إن كنتم صادقين (3) هذا التحدي وقع ، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يزال بمكة ، لايزال مستضعفا هو

---

(1) سورة هود
(2) سورة البقرة
(3) سورة البقرة

وقومه ،و ما يزال قومه معذبين ، ، وفيهم المهاجرون الى أرض الحبشة ،وهم يتآمرون عليه صلى الله عليه وسلم وهو يتحداهم بهذا الكلام .ثم نزلت بعد ذلك آية أخرى من نفس المعنى :" قل فاتوا بسورة مثله " (1)وهي تحد من الرسول صلى الله عليه وسلم لأولئك القوم ، وقد لبث صلى الله عليه وسلم دائما يقرأ القرآن على الافراد وعلى الجماعات ويتحداهم ويقول :فاتوا بسورة من مثله "وهم يحاربونه ، وهم يقاومونه بجميع أنواع المقاومة وجميع أنواع الحرب ، وقد سفه أحلامهم ، وسب آلهتم ،واستعمل فيهم السيف ،وأخذ أموالهم وقتل أرواحهم ،ومع ذلك ما استطاعوا أن ينفكوا من هذه القضية ويقولوا له :هاهو القرآن مثل قرآنك ، أو هاهي سورة مثل سورتك ، ويتحرروا .

العادة ، أن الإنسان حينما يكون عنده خصم يتحداه بشيء من هذا القبيل يمكنه أن يأتي ويدفع الضيم ، لأن هؤلاء القوم الذين جادوا بانفسهم لو استطاعوا أن يأتوا بسورة لما جادوا بانفسهم ، ومع ذلك كانوا فصحاء بلغاء ، وقد قاوموا بالشعر ، والمجموعة الشعرية التي قالها شعراء الجاهلية في هجو المسلمين وفي الحروب ، وفي الملاحم وفي مقاومة الاسلام ، هي في الحقيقة مجموعة عظيمة جدا ، لها قيمة تاريخية ولها قيمة بلاغية مهمة ربما تفوقت على شعر الشعراء الاسلاميين الذين كانوا ينافحون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اللهم إلا ما كان من حسان وعبد الله بن رواحةوأضرابهما، فهذه البلاغة ،وهذه الفصاحة لم تستطع أن تاتي بغيرالشعر،ولم تستطع أن تاتي بغير الكلام المسجوع ،ولم تستطع أن تاتي بأي شيء ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآ ن ويقول : " تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم

---

(1) سورة يونس

إلى ذكر الله (1) ويثني على كتاب الله بجميع الأنواع ، ويسميه السبع المثاني ، والقرآن العظيم ، ويدعي هذه الدعاوي العريضة كلها ، ويتحداهم ويقول لهم : فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا " ومع ذلك لم يفعلوا، وهذا القول :" ولن تفعلوا" مبالغة في الإلحاح عليهم وفي تحديهم ، لأن الرجل إذا قال للإنسان :" يْلا كُنْتِ صْلِيبْ عْمَلْ ، ما تَيَسْتَطَعْش ، وما يَسْتَطَعْش يعمل " معنى ذلك غاية الغاية في العجز الذي وصل إليه العرب ، وهم أمراء الكلام ، وهم أمراء البلاغة ، وهم أمراء الفصاحة .

إذا نحن نظرنا في كتاب الله سبحانه وتعالى من جهة ، دلائل الإعجاز ، فإننا نجد فيه أنواعا كثيرة ، وقد درسها العلماء ، علماء السلف ، وفي مقدمتهم الإمام الباقلاني رحمه الله ، الذي يعتبر كتابه الى الآن في إعجاز القرآن أحسن كتاب صدر في هذا الموضوع ، وقد جعل لذلك وجوها كثيرة ، نختصر منها بعض هذه الوجوه ، من جملتها ما في القرآن من الإخبار بالمغيبات ، فإن كتاب الله قد أخبر بمغيبات كثيرة ، منها ما يرجع للماضي ، ومنها ما يرجع لحاضر الاسلام في ذلك الوقت ، ومنها ما يرجع للمستقبل . فأما ما يرجع للماضي فهو ما قصه القرآن الكريم من أخبار المنبيئين وأخبار مقاومة الناس لهم ، خبر نوح وخبر ابراهيم وخبر موسى وخبر عيسى وخبر يوسف وغير ذلك من القصص المذكورة في كتاب الله تعالى ، وهذا الخبر الماضي لم يكن ممكنا أن يعرفه صلى الله عليه وسلم ،وهو نبي أمي ، وإنما كان يمكنه أن ينزل إليه بوحي من السماء ، وقد نزل عليه الصلاة والسلام ، وفي كل آية يقول له الله :" وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم .أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ

---

(1) سورة الزمر

يختصمون (1)الى آخر الآيات الكثيرة التي لا يسع الوقت لذكرها ، ومع ذلك فقد ثبت ثبوتا قطعيا أن تلك القصص موافقة لما في كتب الأنبياء إلا الأشياء التي انفرد القرآن الكريم مما ذكرت لكم .

وأما في حاضره صلى الله عليه وسلم فالمعجزات التي ذكرها عن العالم الغيبي ، عن العرش ، والكرسي والجنة والنار وأخبار الآخرة والملائكة وقيام الساعة وغير ذلك من هذه الأشياء التي هي معجزات لا يمكن أن يعرفها الانسان إلا بوحي من الباري عز وجل .

وهنالك معجزات كانت تتنبأ بما سيقع في ذلك الوقت ، ووقعت بالفعل ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة الروم :" ألم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، الله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله (2) فهذه القصة معروفة وهو أنه في سنة 614م قامت حروب عنيفة بين الفرس وبين الروم الشرقي ، وهذه الحرب وقعت في أرض الروم كما قال تعالى : " في أدنى الأرض " أي في أقرب الأرض ، وهي الشرق الأدنى وهي Rome Orientale .

وقعت في ذلك المكان الحرب في هذه المدة ، وانهزم فيه الروم ، لأنهم غُزوا في عقر دارهم فانهزموا ، فصار المشركون يشنعون على المسلمين ويقولون لهم : إن الروم أهل كتاب ، والفرس وثنيون ، ومع ذلك فقد تغلب الوثنيون على أهل الكتاب ، فكذلك سنتغلب نحن عليكم ، فتألم المسلمون لذلك فانزل الله البشارة لهم وقال لهم : " غُلبت الروم.

---

(1) سورة آل عمران

(2) سورة الروم

في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين" والبضع في اللغة العربية هو ما بين الثلاثة الى التسعة ، الى التسعة أعوام ، ولم تصل سنة 622م حتى كان الروم يغلبون فارس ، وانتصروا عليهم ، مع أنه لم يكن ينتظر أبدا أن هذه الغلبة ، ستقع بالفعل .

ثم وقع تنبؤ أكثر من ذلك في هذه الآية نفسها :" ونصر مبين للمؤمنين " لأنه في الآية حينئذ يفرح المؤمنون بنصر عزيز عليهم ، " ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله " لأنه سنة 622م هي السنة الثانية للهجرة ، وهي التي وقع فيها انتصار المسلمين في غزوة بدر ، فقد جمع الله في هذه الآية بشارتين عظيمتين وهي إخباره بانتصار الروم على فارس ، وإخباره بانتصار المسلمين في غزوة بدر ، والوقت الذي نزلت فيه تلك النبوءة كان المسلمون في مكة ، ولم يكن يظهر للمسلمين أي نصر ولا أسباب نصر ، كما أنه لم يكن يظهر للملاحظين السياسيين كما يقولون بعبارة العصر أي ممكن لنصر الروم على فارس لأنها غلبت في دارها ، ولأن فارس كانت قد تقدمت عليها من عدة جهات وزادها هذا النصر تفوقا وامتيازا ، وقد كان راهن سيدنا أبو بكر الصديق لإيمانه بما في القرآن مع بعض المشركين على أن نبوة الرسول في هذه الآية الكريمة، ستتحقق لا محالة ، وربح أبو بكر الصديق الرهان في هذه الوقعة رضي الله عنه . وكذلك من جملة هذه النبوءات قوله تعالى : " والله يعصمك من الناس (1) فإن سيدنا صلى الله عليه وسلم قد كان له حراس يحرسونه ، فلما نزلت هذه الآية قال لهم : أيها الناس اذهبوا لحال سبيلكم فإن الله قد وعدني العصمة فسيعصمني .

---

(1) سورة المائدة

ويمكن للإنسان أن يخون من يشاء ، ولكن لا يمكنه أن يخون نفسه وأن يذهب حراسه ويقول لهم : إن الله سينصرني ، وبالفعل فقد نصره الله فما استطاع أحد من المشركين أن ينال منه عليه الصلاة والسلام ، بل قال سيدنا علي :" إنا كنا إذا حمي الوطيس ، واشتد البأس ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يكون أقربنا في الحرب الي العدو " وقد روى جابر بن عبد الله فيما اخرجه الإمام مسلم في غزوة ذات الرقاع قال : " كنا إذا ذهبنا في الغزوات ووجدنا شجرة فيها ظل تركناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما وصلنا لذات الرقاع أتينا الى شجرة وقلنا لرسول الله : استظل فيها ، فاستظل فيها صلى الله عليه وسلم ، وعلق سيفه فيها ، فبينما هو كذلك إذ جاء رجل من المشركين وأخذ السيف وتقلده ، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم أتخاف مني ؟ قال : لا ، فإن الله يعصمني منك ، قال : إني ساقتلك ، قال : لا تستطيع ، فارتعد ذلك الرجل وأنزل السيف في مكانه وذهب لحال سبيله "

هذه القصة وقعت في غزوة ذات الرقاع ، ومن المناسب أن ننبه إلى أن غزوة ذات الرقاع هي التي شرع الله فيها للمسلمين صلاة الخوف ، ومع ذلك ، فقد كان صلى الله عليه وسلم مطمئنا مؤتمنا ، لأن الله تعالى قد طمأنه وأمنه على ذلك ، والله سبحانه وتعالى قد أيده بنصر من عنده ، وقد أيده بكثير من الآيات البينات .

ومن دلائل الإعجاز نوع كثير من المعارف ونو ع كثير من التشريعات التي وقعت في القرآن الكريم ، والتي اصلحت فلسفة الفلاسفة وفكرة المفكرين ورسالة الرسل وأعمال المشرعين وغير ذلك من الأمور .

فنحن نرى أن التوحيد قد أصلح ، وقد كان الناس يعبدون الأوثان والأصنام ، وكان النصارى يعبدون المسيح عليه الصلاة والسلام ، وكان اليهود يعبدون العزير ويقولون : إنه ابن الله ، وكان العرب يتعزون بذلك من المشركين " ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ، وقالوا أآلهتنا خير أم هو " (1) فكانوا يتعزون بكون النصارى يعبدون المسيح ويقولون : " واش الآلهة ديالنا حْسَن من المسيح ولاَقَلْ " ويفضلون آلهتهم على المسيح ، فكانوا يحتجون بعبادة المسيحيين للمسيح ابن مريم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بينما النبي يحترم المسيح ويذكره كنبي رسول ، " ولما ضرب ابن مريم مثلا ، اذا قومك منه يصدون وقالوا : أآلهتنا خير أم هو " " وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إن هذا لَشيء يراد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة " (1م) يعني ما سمعنا بهذا التوحيد الذي تقوله يا محمد ، والذي تقرأه في قرآنك في الملة الآخرة التي هي الملة المسيحية ، فكانوا يتسلون ويحتجون بعبادة المسيحيين للمسيح ، ومع ذلك فإن القرآن كان يوجههم بهذا الخطاب ، " يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا شهدوا بأنا مسلمون (2) يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ،ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ،إنما الله إله واحد ، سبحانه

---

(1) سورة الزخرف

(1م) صَ

(2) سورة آل عمران

أن يكون له ولد (1) فنحن نرى هذا القرآن الكريم كيف كان يخاطب الناس ، وكيف كان ينبه الى الوحدانية الإلهية ، والى تنقية الدين الحقيقي ، " وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه " مالهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه " (2) قل سبحان ربي ، هل كنت إلا بشرا رسولا (3) فهو نبي ، وهو رسول ، وكان يدعوهم الى العقل والى التدبير والى التفكر ، وقد ذكر العقل في القرآن سبعمائة مرة بينما لم يذكر في الإنجيل ولا في التوراة ولو مرة واحدة ، وهذا يدل على أن القرآن هو دين العقل ودين المعرفة ودين الخلود .

بقيت نقطة واحدة ، لأن الموضوع طويل ، وإذا سمح سيدنا أن نأتي ببعض النقط البسيطة لإتمام الموضوع ، لأن الموضوع ، لا بد من أن نأخذه من أطرافه لئلا يكون ناقصا ، وإلا فهو يحتاج الى أبحاث كثيرة .

فالحقيقة أن من جملة دلائل الإعجاز ، كون الأشياء المذكورة في القرآن من هذه الآيات البينات فاقت كل ما سبق من الشرائع ومن الأمور السابقة ، ولم يأت منذ الف و ثلاثمائة سنة أيّ عالم او أيّ مشروع بما من شأنه أن يزحزح الثقة في هذه الأشياء الموجودة في القرآن وهذا الإعجاز دليل من الدلائل العصرية لإعجاز القرآن ، بل إننا في هذا العصر نكتشف أن تعاليم القرآن ، وما فيه من الأشياء ،

---

(1) سورة النساء

(2) سورة النساء

(3) سورة الإسراء

هي في الحقيقة صالحة لهذا العصر ، وكأنها ولدت فيه ، حقيقة من حين لآخر يقوم بعض المستشرقين أو بعض أذنابهم ، فيحتجون ببعض الحجج أو يشوهون بعض الأشياء ، وربما يأخذون بعض الإشكالات التي يذكرها العلماء المسلمون السابقون فيأتون بها ولا يأتون بالجواب الذي يذكرونه ، لأن النزاهة العلمية ليست موجودة عندهم ، ومقصودهم هو أن يثبتوا أن معجزة القرآن لم تستمر ولن تستمر ، ولكنهم في الواقع بصفة جدية ، وبصفة علمية لا يمكن لأحد منهم أن ينال من أي شيء اثبته القرآن .

بقي بحث ، وهو الذي يتعلق بالعلم ،في القرآن ، كثير من علماء السلف رضوان الله عليهم ، ومن العلماء السلفيين المصلحين وفي مقدمتهم الشيخ محمد عبده رحمه الله والشيخ رشيد رضا رحمه الله وغيرهما من العلماء السلفيين يضربون الوتر على معنى ، وهو أن القرآن كتاب هداية وإرشاد ، وليس كتاب علوم ، وهذه في الحقيقة فكرة قديمة موروثة عن المسلمين ، وذلك لأنهم يخافون من أنه إذا وقع تطور في العلم ، لأن العلم في الحقيقة لا يثبت على حال ، وكما يقول العلماء :" أن العلم لا يعد بشيء " ونقصد بالعلم الآن ليس المعنى القديم ، وإنما المعنى الحديث الذي هو Science :" العلم لا يعد بشيء " لأن العلماء اليوم يعتقدون شيئا ، ويأتي عالم آخر غدا أو بعد غد فيغير المعنى ويثبت خلاف ذلك ، فيخاف هؤلاء الناس من أن القرآن تَثْبُت عليه مخالفات مع العلم ، وهذا في الحقيقة وقع مثله للمسيحيين وأثر ، الشيء الذي وقع للمسيحيين في أفكار المسلمين اليوم بهذا المعنى ، فإن المسيحيين في العصور السابقة كانوا يعتقدون مثلا ، بجمود الأرض و ثبوتها ، وهم في ذلك في الحقيقة تابعون للكنيسة الأرثودوكسية التي كفرت كل من قال بخلاف ذلك ومعتمدون في الأصل على المذهب الأرسطاطاليسي لان

ارسطاطاليس كان يقول بأن الأرض ثابتة جامدة لا تتغير ، وهم قد أخطأوا لأنهم كانوا يقولون إن الفكر والفلسفة الأرسطالية يجب أن تؤخذ كلها ، ولا يمكن أن يزول عنها شيء ، وكانوا يعتبرون أن سقوط الدليل يؤدي إلى سقوط المدلول ، وهذه النقطة اتفقوا فيها مع الإمام الباقلاني رحمه الله الذي كان يعتبرأن (الدليل يجب ألا يمّحِي ، لأن سقوط الدليل يؤدي الى سقوط المدلول) ولكن علماء المسلمين قد تداركوا الأمر ، فإن إمام الحرمين قد بين فشل هذه الفكرة وسقوطها ، وأنه يمكن أن يسقط الدليل ويبقى المدلول صحيحا ويبحث له عن دليل آخر ، فلا معنى لأن نتمسك نحن بدليل جاء به فكر نظار أو فيلسوف ونقول : إن هذا شيء مقدس ، لأنه يتعلق بإثبات شيء مقدس ، كلا ، فإمام الحرمين أنقذ الفكرة الإسلامية من هذا الشيء الذي بقي عند المسيحيين ، وكل الناس يعرفون التطور التاريخي الذي وقع في مسألة الأرض ودورانها ، والأفلاك ودورانها ، لما أراد جاليلي أن يثبت ذلك ، فإن المدرسة الأرسطاطالية ، مؤيدة بالكنيسة الكاثوليكية ، كلهم كانوا ضده ، حتى إنهم حكموا عليه بالإعدام .من أجل ذلك ، بينما كان القرآن يقول : " يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل "(1) فيثبت كروية الأرض ، ومع ذلك كان علماء المسلمين يتاولون هذه الآية لكي يتفقوا مع ماهو مشهور عند العلماء من كون الأرض ليست كرة ، ومن كونها جامدة ، ومن كونها لا تتحرك .

هذه هي الفكرة ، ومن المعلوم أنه في العصر السابق ، في القرن 19، وقعت معركة عنيفة عند المسيحيين ، لما قام هذا الأب لاموني Lamoney ، وليس هو صاحب فكرة الشخصانية ، لاموني هذا كان من

---

(1)سورة الزمر

أصحاب القرن 19 وكان ممن فسروا الإنجيل ، وقام بمحاولات عصرية ، لأن يفعل مثل ما فعل القديس توماس في القرون السابقة حينما اقتبس فلسفة أرسطو ، ويأتي بادلة عصرية على ذلك ، ولكن كتاب رينان Renane، كان قد صدر ، وخشيت الكنيسة من الأمر فأصدرت الكنيسة بحرمان هذا الأب من حظيرة الكنيسة نفسها ، ومنعت البحث في هذا الموضوع من الوجهة العلمية ، ويقولون من تلك الساعة " أخذ العلم استقلاله " أي أن العلم استقل عن الدين " استقلال العلم عن الدين صحيح ، الإسلام لم يقل قط إن العلم جزء من الدين ، ولكن قال : الدين لا يعارض العلم . القرآن جاء دائما ينظر إلى العلم ويقول :" أفلا يعلمون ؟ أفلا يعقلون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أفلا يتفكرون (1) ولذلك قامت الآن مدرسة من جماعة من أهل العلم ، الدارسين للعلوم العصرية ، الدارسين لعلوم الكيمياء ، لعلوم الطبيعة ، الدارسين لعلوم الرياضة ، وأخذوا يبحثون في القرآن ويستخرجون منه الكنوز العظيمة في هذا الموضوع الذي يثبت معجزة القرآن ، لكونه صدر من رجل أمي منذ ثلاثة عشر قرنا ، وهو يبطل المعلومات التي كانت في ذلك العصر عند جميع الناس ، ويؤكد معلومات يكتشف العلم الحديث ثبوتها ، وصدقها كما ذكرنا في قضية كروية الأرض ، وكما يمكن أن نذكر في قضية : " وأرسلنا الرياح لواقح " (2) يعني الرياح تنقل التلقيح من ذكر الشجرة إلى أنثاها من غير تلقيح ، وقضية تلقيح الأشجار كانت معروفة عند العرب ، ولكن في القرن الماضي اكتشفها الأوربيون ، وقام عالم إنجليزي كان أستاذ اللغة العربية في مدرسة أكسفورد " إيد جيري " Edguery، وهذا العالم قال إن العرب قد عرفوا هذا التلقيح ، وإن رعاة

---

(1) سورة البقرة ، يس ، النساء ، الأنعام

(2) سورة الحجر

الإبل من العرب قد عرفوا هذا التلقيح منذ ثلاثة عشر قرنا ، نعم عرفوا هذا التلقيح منذ ثلاثة عشر قرنا ، كانوا ينقلون بأيديهم طلع النخل ، طلع الذكر إلى الأنثى ، ولكنهم ماكانوا يعرفون ما تحدث به القرآن : " وأرسلنا الرياح لواقح " الرياح هي التي تنقل التلقيح من بعض النباتات إلى بعضها .

وظهر لي فكر أقوله هنا ، هو أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف ما تعرفه العرب ، ودليل ذلك الحديث الذي ثبت في الكتب الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم مر ذات يوم بالصحابة وهم يلقحون النخل ، فقال لهم : ماذا تفعلون ؟ قالوا : نلقح النخل ، فقال : ما التلقيح ، إنه لا شيء ، فتركوه ، ولكن النخل لم يأت ، ولم ينجب بمثل ما كان ينجب في العادة حينما يلقحونه ، فجاءوا الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم : أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وقد استدل العلامة ابن خلدون بهذا الحديث على أن المسائل العلمية والدنيوية راجعة إلينا ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم في هذه الموضوعات إنما هو متكلم كواحد من الناس ، وأن العبرة بما يثبته العلم وبما يدل عليه العلم .

آخذ من هذا الحديث أن النبي ص لم يكن يعرف (هو) ماكان يعرفه العرب من ذلك التلقيح للأشجار ،ومع ذلك جاءنا بهذه الآية القرآنية "وأرسلنا الرياح لواقح "التي تفوق ماكان معروفافي عصره ص

كذلك أيضا نجد القرآن يتحدث عن السماء " وأن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقنا هما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي (1)

---

(1) سورة الأنبياء

معجزتان اثنتان لم تكونا معروفتين عند العلماء القدماء ، بل كان المسلمون يتاولون هذه الآيات كون السماء والأرض لما كانت بخارا ودخانا في السماء يغشى الناس كما في الآيات الأخرى ، لما كانت على تلك الصفة ، ثم بعد ذلك وقعت رجة جيولوجية فانفتقت الأرض عن السماء كما يتحدث بذلك العلماء اليوم ، هذه معجزة لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم من قبل ثلاثة عشر قرنا ، وكذلك " وجعلنا من الماء كل شيء حي " فما كان الناس يعتقدون أن الماء هو سبب الحياة في كل شيء ، حتى جاء بعد ذلك العلماء يثبتونه في هذا العصر ، فاثبتوا بذلك معجزة القرآن التي تحدث بها في هذه الآية الكريمة .

وكذلك كون الله تعالى قال لنا :" إنه جعل من كل شيء زوجين اثنين " كما في الآية القرآنية " ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين " (1) ثم قال لنا في مسالة النبات وأنبتنا فيها من كل شيء موزون " (2) هذه العبارة ، أبدا ما استطعنا أن نجد شيئا في شعر الشعراء ولا في كلام العلماء السابقين يعني كلام الباحثين أو الكتاب لا العرب أو غيرهم نقرأ شعر هو مروس ، شعر اليونان وشعر الاوربيين وشعر العرب ، لا يمكننا أن نجد أحدا يصف في شعره النبات بانه موزون ، ولكن القرآن وصفه بذلك " من كل شيء موزون " والعلم اليوم يبين لنا معنى قوله تعالى " من كل شيء موزون " وهو أن كل نبات ، وكل نبته وكل شيء من الأشياء إلا وهو مركب من عناصر متعددة ، وهذه العناصر تبلغ من الدقة إذا أخذت بالوزن ، لابد أن توزن بعشرة جرام وميلجرام ، فهذا ما يدل على إعجاز

---

(1) سورة الرعد

(2) سورة الحجر

القرآن ، لأن هذالا يمكن أن يكون عرفه رجل في ذلك العصر كيفما كان ، فكيف برجل أمي في بلاد العرب ، هذامن معجزاته صلى الله عليه وسلم

باختصار ، يمكننا أن نقول إن القرآن فيه كنوز كثيرة من هذا النوع ، وأن السلف الصالح بذلوا مجهودهم في التفسير ، واليوم لا يمكننا أن نتجاهل هذه المعارف ، لأن القرآن يخاطب الخواص ، فالعلماء والعارفون بالعلم ينبغي لهم أن يدرسوا القرآن ، وأن يتفهموا هذه النواحي ، ويكتشفوا منها أشياء تدلهم على العلم ، هو في الحقيقة ليس كتاب علم ، حقيقة ليس مصنفا من المصنفات التي تؤلف لدراسة فن من الفنون ، ولكنه حينما يتكلم في الكون أو في شيء من الأشياء يتكلم بلغة العلم ، ويأتي بالأشياء الموافقة للحقيقة ، وعلماؤنا السابقون قد بينوا لنا الطريقة التي يجب أن نسلكها ، ناخذها في القرآن إن كان موافقا لكتاب الله (ما يأتي به العلم) فذاك ، وإن كان مخالفا لكتاب الله ، فإننا نؤمن بالقرآن ونؤمن بالعلم ،هذه هي النظرية الإسلامية ، نؤمن بما يقوله العلماء ، ولكن نقول إن العلم لا يمكن أن يكون قطعيا لأنه شيء ظني ، ولأنه لا يعد شيئا كما يقول العلماء أنفسهم :

وكما يقولون هم ، فالعلم لا يمكن أن يعد بشيء ، لأنه يتبدل ويتغير ، ولكن نؤمن بالعلم ونتبع العلم ، ونؤمن بالقرآن ونقول ماقاله الله : " كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، إن الله قوي عزيز " (1) هذه هي الطريقة التي خطها العلماء السابقون ، فالقرآن حقيقة ليس كتاب علم ، ولكنه كتاب يضع أرض العلم ، يضع الأسلوب الذي يجب أن يتتبع في العلم .

---

(1) سورة المجادلة

وقد قال السيد حنفي أحمد في كتاب له ، وهو من أنصار هذه النظرية ، وله مؤلف قيم جدا ، وهو كتابه معجزة القرآن فيما يرجع لعلوم الأقوال ، قد قال إن الطريقة التي يجب أن تتبع هي عكس الطريقة التي كانت متبعة من قبل ، كان العلماء يدرسون كل آية على حدتها ، لأن هذه العلوم الكونية مبثوثة في القرآن في أماكن متعددة ، ولكن لا يجمعونها في مكان واحد لدراستها ، فهو يقول : إذا أردنا ان نجمع ونفهم هذه المعجزات فينبغي لنا أن نجمعها في مكان واحد كما يقع للمكتشف العلمي ، فإنه يكتشف الجزئيات ، ثم بعد ذلك يجمع تلك الجزئيات ويجمعها في اكتشاف عام يكون معجزة أخرى تظهر للعلم ، وكدليل على ذلك آتي بمثال بسيط من القرآن الكريم ، وهو أن الله سبحانه وتعالى قال : " وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر " (1) هذه آية ، وفي آية أخرى قال سبحانه وتعالى :" وعلامات وبالنجم هم يهتدون (2) وفي آية أخرى قال : " والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب "(3) إذا أخذنا كل آية على حدتها ، ربما نجد هناك تناقضا ، وإذا جمعنا هذه الآيات نقع في اكتشاف ما اكتشفه العلم الحديث تماما ، فقوله سبحانه وتعالى : " وجعل لكم النجوم لتهتدوا بها " أول ملاحظة هو انه ذكر النجوم في هذه الآية ولم يذكر الكواكب ، والكواكب كما تعلمون هي غير النجوم ، السر في ذلك ، هو كون النجوم لها الإنارة من ذاتها ، ضياؤها من ذاتها ، وليس مقتبسا من غيرها ، فهي التي تكون فيها الإنارةمستمرة ثابتة " وجعل لكم النجوم

---

(1) سورة الأنعام

(2) سورة النحل

(3) سورة الطارق

لتهتدوا بها " واصطلاح القرآن أنه يطلق الضياء على ماهو من ذات الكوكب، من ذات الجرم السماوي ليكون التعبير أحسن ، ويطلق النور على ماهو من المكتسب ، على ما هو جرم يكتسب النور من غيره .

جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، لأن القمر يكتسب ضوءه من الشمس ، هذا اصطلاح القرآن في جميع الآيات إذا نحن تتبعناها . فنجد أن النجوم تنير من نفسها ، تضيء من نفسها ، وفي الآية الثانية قال : " وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون " لأن النجم له النور من نفسه (وعلامات) هذه تدل على أن النجم ثابت ، وربما يفهم منها أن هذا النجم لا يتحرك ، فإذا أخذنا هذه الآية وحدها ، نبقى في شك من دلالة القرآن ، ومن توافقها مع العلم الحديث ، ولكن إذا أخذنا الآية الثالثة من بعد " والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق " الطارق في اللغة هو الشيء الذي يأتي في وقت معين من ليل أو نهار ، فهو الذي يطرق المكان من ليل أو نهار ، " والسماء والطارق " والطروق لا يكون إلا بالحركة لأنه ينتقل من مكان الى مكان ويطرق المكان " والسماء والطارق وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب " وقد وصفه بالثاقب ، لكون إنارته وضوئه قويا ومستمرا ، ولكي نفهم ويزول ذلك الشك في كون النجوم ثابتة في السماء ، قال الله تعالى في آية أخرى " تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلى (1) فقوله تعالى " السماوات العلى " السماوات : كل ما أظل الإنسان ، والمقصود بها النجوم والكواكب ، فهذا يبين أنها على لأنه لم يقدر مسافة ..البعد ،والعلى : هذه العبارة تدل على أن علوها مرتفع جدا ، وقد عرفنا أن القرآن يصف السماوات طباقا ، وأن بعضها فوق

---

(1) سورة طه

بعض ، فهذه السماوات وهذه النجوم والاجرام والكواكب هي المرتفعة العالية ، إلى أسمى درجات العلو، التي تقدر بملايين السنين في الدقيقة الواحدة في المسافة ، ولكن مع ذلك قال " السماوات العلى " وترك لنا نحن أن نكتشف هذه المسافة على حقيقتها ، فلما سمعنا هذه الآية :" خلق الأرض والسماوات العلى " ووصفها بالعلو ، تبين لنا أن هذه النجوم التي نراها في السماوات ، نراها بعيدة ، ولذلك يخيل للرائي أنها ثابتة وهي ليست بثابتة ، وهذا مقصود القرآن ، وهذا ما يقوله العلماء في العصر الحديث لبيان أنها ثابتة .

كذلك ـ وهذه مسك الختام ـ نجد هذه الآثار التي تقع الآن ، والمجهودات التي تبذل لاكتشاف الفضاء ، نجد القرآن الكريم يقول : " ومن آياته خلق السماوات والأرض ، ومابث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير "(1) فنجد الله تعالى يشير لنا الى أن السماوات المخلوقة فيها دواب ، وهي هذه الإجرام التي يبحثون عنها، وعن سكانها ، هل هم من جنس الأناسي أو من غيرها "وما بث فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير " هي مفصولة ، " كانتا رتقا ففتقنا هما " ولكن في استطاعة أن هذه الدواب الموجودة في الأرض والدواب الموجودة في السماء أن تجتمع فيما بينها ، إذا يشاء الله سبحانه وتعالى ، " وهو على جمعهم إذا يشاء قدير " إذا التقى إنسان بالآخر أو قال له متى نراك ؟ أو شيء من هذا المعنى ، ولكن هي معناها أعمق من هذا ، والمقصود من هذا أن القرآن يرشدنا إلى الدراسة وإلى البحث ، فهو ليس كتاب تنبؤ أو كتاب علم بمعنى المصنفات العلمية ، ولكن فيه إرشادات للخواص وللعموم وللعلماء ، وينبغي للعلماء العارفين بالعلم ألا يهملوا هذا الجانب

---

(1) سورة الشورى

من البحث ، لأن فيه تنويرا للعقول ، ولأن فيه إرشادا لما في القرآن من كنوز ومن ثمرات ، "والله يقول الحق وهويهدي السبيل "وهو مسؤول سبحانه أن يرشدنا إلى معرفة ديننا ، وأن يرد اعتبار القرآن في نفوسنا ، ونساله سبحانه وتعالى أن ينقذنا من كل كفر وضلال ، ومن كل شك وإهمال ، كما نرجوه سبحانه وتعالى أن يكلأ جلالة الملك أمير المؤمنين ، وأن يحرسه بعين رعايته التي لا تنام ، وأن يوفقه إلى عمل الخير الدائم الذي هو من شأنه إلى هذه الأمة ، وأن يحفظ أسرته الكريمة ، ويقر عينه بولي عهده وأنجاله وإخوانه وإخوته وجميع رعيته ، كما نساله سبحانه وتعالى أن يوفق هذه الأمة جميعها ملكا وشعبا للعمل الصالح ، وأن يعود بها إلى دينها : " ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للأيمان ، أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد " (1) سبحان ربك رب العزة عما يصفون والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين "(2)

---

(1) سورة آل عمران

(2) سورة الصافات

الدّرس الرابع

في شرح الحديث الشريف

أنا عند ظن عبدي بي

رمضان 1386 ـ 1966

الدرس الرابع

شرح الحديث الشريف :

أنا عنـــد ظـــن عبدي بي (1)

بالسند المتصل الى الشيخ الإمام الحافظ الحجة ابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري في ، كتاب التوبة من صحيحه قال : "حدثني سويد بن سعيدحدثني حفص بن ميسرة ، حدثني زيد بن أسلم ، عن أبي صالح عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : قال الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حيث يذكرني ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بفلاة ، فمن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت اليه باعا ، وإذا أقبل يمشي إقبلت إليه أهرول .

هذا هو الحديث الشريف الذي بعض أجزائه من الحديث القدسي ، والطرف الآخر من قول النبي صلى الله عليه وسلم وهو من الأحاديث الصحيحة التي رواها الإمام مسلم في كثير من أبوابه ، رواها في باب الذكر ، ثم رواها في باب التوبة ، وقد اخترنا الرواية الموجودة في كتاب التوبة من صحيحه رضي الله عنه ، وهذا الحديث روي بألفاظ مختلفة ، وكلها ترمي إلى أن تصور لنا مقدار العلاقة

---

(1) الدرس الذي ألقاه فضيلة العلامة الاستاذعلال الفاسي رحمه الله في ذكرى محمد الخامس طيب الله ثراه وبمحضرجلالة الحسن الثاني رحمه الله بضريح مولاي الحسن بتاريخ 10رمضان 1386سنة 1966.

الموجـودة بين العـبـد وبـين الله ، بـين الأرض والسمـاء بحـيث أن الإنسان لا يمكن أن ينقطع رجاؤه في الله ، ولو ارتكب ما ارتكب من الذنوب ،ولو أتى ما أتى من المعاصي ، لأن أبواب التوبة دائما مفتوحة ، ولأن الله سبحانه وتعالى نادى عبده وقال له : ارجع الي ، وأقبل علي ، فانا مستعد لقبولك في أي وقت أتيتني ، وإنما مثلي ومثلك كمثل رجل كان في الفلاة في المفازة التي هي من طبيعتها لا ماء فيها ولا كلأ ، لا طعام ولا شراب ، وكانت عنده ناقة يحمل عليها زاده ، فيها طعامه وشرابه ، وأكله وكل حاجاته التي يتوقف عليها ، فوقف يستريح قليلا ، ونام ، وبينما هو نائم ، ذهبت ناقته تسير في الأرض ، فضلت الطريق ، ولم تعرف سبيل الرجوع الى صاحبها .

استيقظ صاحبها من تلك النومة الهادئة ، فإذا به لم يجد ناقته التي يحمل عليها زاده وأمتعته ، وذهب يبحث عنها في كل مكان من تلك الصحراء الشاسعة ، ولكن دون جدوى ، فقرر أن يرجع الى مكانه كما في الحديث الآخر وينام حتى يموت ، إذ لم يبق له أمل في النجاة . فلما رجع الى مكانه ، وجد ناقته واقفة في ذلك المكان ، تصوروا مقدار فرحة هذا الأعرابي ، حينما يجد دابته ، وقد رجعت إليه ، بعد اليأس ، وبعد أن ضاع أمله مدة طويلة .

يقول الله سبحانه وتعالى : ذلك مثلكم ومثلي معكم ، تلك الفرحة التي يكون عليها ذلك الأعرابي ليست شيئا كثيرا بالنسبة الى الفرحة التي أكون عليها أنا الله ، حينما ترجعون تائبين ، فأنتم بمثابة تلك الناقة الضالة ، إذا أذنبتم وانحرفتم ، ولكن عندما تقررون العودة الي ، أكون فرحا مستبشرا وأكون عند حسن ظنكم بي .

وهذا الحديث يشتمل على أجزاء مهمة ، أولها قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه :(أنا عند ظن عبدي بي)وفي بعض الروايات ، (فليظن بي ما شاء) يعني اننا إذا أردنا أن نذكر الله سبحانه وتعالى ، فينبغي أن نتصور أن هذا الذكر سيقبله ، فيكون مقبولا منه سبحانه ، وإذا رجونا منه المعونة فينبغي أن نعتقد أنه سيعيننا ، فإذا تيقنا في هذه المعونة ، فإنه سبحانه لا محالة سيعيننا ، وكذلك الأمر في الاستغفار ، فإن الله لابد سيكون عند حسن ظننا فيغفر لنا ، ويتوب علينا ان نحن تبنا إليه وأنبنا ، فكل ما نقوم به من أعمال ومن عبادات وطاعات ، يجب أن تكون مصحوبة بالظن الجميل في الله ، الذي هو وحده الكفيل بأن يقبل منا تلك الأعمال الصالحة .

(أنا عند حسن ظن عبدي بي) هذه الفقرة في الحديث تشتمل على معنى آخر ، وهو تحذير الإنسان من أن يفكر شيئا يخالف ثقته في الله وإيمانه به فهي على حد قوله تعالى : " وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله " فالعبرة بما يضمره المرء ، من الثقة في الله ، وحسن الظن به ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :" اذا دعوتم الله فادعوه وأنتم موقنون بالاستجابة " وقد وعدنا الله بها ، فلا بد أن تتحقق ، وهي إما أن يتحقق فيها المطلوب الذي نرجوه أو تعويض عنه ، إذا كان الله قد قدر خلاف ما طلبناه ، فالاستجابة على كل حال واقعة ، فلا ينبغي للإنسان أبدا أن يتشكك في استجابة الله لطلبه ودعائه ، وتوبته ، واستغفاره ، لأن ذلك ربما يؤدي به - والعياذ بالله - الى الإرجاء ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (الكيس من عمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني " وحسن الظن بالله هو الذي أوصى به النبي صلى اللع عليه وسلم غير ما مرة وأوصى به الصالحون من عباده .

وقد اختلف العلماء : هل ينبغي للانسان أن يغلب الرجاء في الله ، أو يغلب الخوف منه ، فذهب جماعة من العلماء الى أنه ينبغي له أن يغلب في حياته الدنيا ـ مادام صحيحا سالما ـ الخوف من الله ، لأن ذلك دليل على كون الانسان عارفا بالله عالما بقدرة ربه ، وبمكره ، فهو يخافه في كل شيء ولذا قال الشاعر :

على قدر علم المرء يعظم خوفه فلا عالم الا من الله خائـــف
وأمن مكر الله بالله جاهـــل وخائف مكر الله بالله عـــارف

وأصلهم في ذلك الحديث القدسي : (لاتأمن مكري وان أمنتك) ولذلك قال الصوفية :(ما قطع أكباد العارفين الا خوف الموت على سوء الخاتمة) لأنهم دائما يفكرون في مصيرهم ، ويعملون لتحقيقه عند الله ، ولا يعيشون في حياة الغرور ، وفي حياة الشهوة والاستلذاذ بملذات الحياة الدنيوية ، إنهم يخافون الله في كل الأوقات ويطلبون منه العفو والمغفرة ، ودائما يحاسبون أنفسهم ويتوبون ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد الناس استغفارا وتوبة لله ، قال عليه السلام (اني لأعرفكم بالله وأشدكم منه خشية) وقال أيضا : (إني لأتوب في اليوم والليلة ألف مرة) هذا مع العلم بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ومع ذلك فقد كان يتوب من كل خاطر ومن فكر ، من الصغيرة التي هو معصوم منها ، خوفا من أن يكون قد ارتكب شيئا ، لأنه " فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ". (1)

أما الطبقة المتفائلة من الصوفية فإنهم كانوا يقولون : انه ينبغي

---

(1) سورة الاعراف

للإنسان أن يغلب الرجاء في الله عملا بهذا الحديث (أنا عند حسن ظن عبدي بي) فإن الله سبحانه رحيم عليم حكيم ، لا يمكن أن يترك عباده تتالم وتتعذب ، ولا بد من أن يغفر لهم ويعفو عنهم ، بشرط أن تكون عندهم روح التوبة ، وروح القبول لما عند الله سبحانه .

وهنالك من الفقهاء من يقول : إن تغليب الخوف يجب أن يكون دائما مالم يصل وقت الاحتضار ، فإذا وصل وقت الاحتضار ، فينبغي أن يغلب الانسان الرجاء على الخوف ، ويجيب الصوفية : بأن الانسان دائما في حضرة الموت ، معد لأن يفقد حياته ، لأنه لا يعرف متى يموت . فينبغي أن يغلب جانب الرجاء في الله . لكن أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه ذهب مذهبا وسطا في حزبه الذي يرتله المغاربة فقال : (وأبهمت علينا الأمر لنرجو ونخاف ، فامن بفضلك خوفنا ، ولا تخيب فيك رجاؤنا ، فقد أعطيتنا الإيمان من غير مسالة) أبهمت علينا الأمر يعني كتمت عناالحقيقة ، فلا ندري أنا جون نحن ، أم صائرون الى عذاب الله ، فنحن بين الخوف والرجاء . فانظروا لهذه المعرفة الربانية التي في كلام ابي الحسن الشاذلي .

أراد الله سبحانه أن يجعلنا في هذا التردد الدائم ، لناخذ بالخوف والرجاء ، نخاف الله ، ولا نامن مكره ، نرجو الله ولا نغتر ولا نيأس من روحه لأنه "لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون "(1) الآية " فلا يامن مكر الله لا القوم الخاسرون "(2) الآية فامن بفضلك خوفنا ، لا محيد لنا من اللجوء الى الباري عز وجل ، لأنه الذي

---

(1) سورة يوسف

(2) سورة الاعراف

يستطيع وحده أن يطمئننا ، وحقق فيك رجاءنا ، فقد أعطيتنا الإيمان من غير مسالة ، تفضلا وامتنانا ، دون أن نطلب منك ذلك ، وهو القادر على أن يعطينا نتائج الإيمان ، وهي الطاعة والامتثال لأمره ، والاجتناب لنواهيه ، وعبادته حق عبادة والعمل بكل ما يريده ، ومع ذلك فينبغي لنا أن لا نامن مكره . فسيدنا صلى الله عليه وسلم كان لا يامن مكر الله ، فإن ما يصل إليه الانسان من الدرجات والمقامات ، إنما هو دون الدرجة العليا ، ولذلك قالوا : لا يمكن للولي ان يصل اعلى درجة ، ولاجل هذا كان سيدنا صلى الله عليه وسلم يدعو الله دائما ان يرزقه الوسيلة والدرجة الرفيعة ، والمقام المحمود عنده ، وامرنا بان ندعو له بذلك ، ونصلي عليه وعلى اصحابه وآله ، « ان الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلو عليه وسلموا تسليما ، الآية . قال العارف سيدي عبد الرحمن الفاسي : إنما أمرنا صلى الله عليه وسلم أن ندعوا له بالمغفرة والمقامات العلية والوسيلة والدرجات الرفيعة مع انه صلى الله عليه وسلم قد أعطي من المكانة عند الله ما لا عين رأت ولاأذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، والذي لا شك فيه أنه بلغ مبلغا لا يمكن أن يصله نبي ولا رسول ولا ملك ولا ولي ، فمقامه فوق جميع المقامات ، مع ذلك أمرنا بان نصلي عليه ، وندعو له بالرحمة والسكينة ، والمقام المحمود عنده ، وما ذلك إلا ليبين لنا نحن المسلمين وللناس أنه مهما كانت الدرجات ، فلا ينبغي لنا أن نقف عندها بل ينبغي أن نطلب المزيد من الجمال والكمال والمعرفة .

هذا هو مدلول الحديث القدسي « أنا عند ظن عبدي بي » ولا يخفاكم أن الظن ترجيح لاحد أمرين متساويين ، فإن المناطقة يقولون « ان الشك في احد المتقابلين شك في الآخر فاذا كان هنالك مرجح فالجانب المرجح يصبح ظنا والجانب المرجوح يصبح وهما » وهذا الحديث الشريف ينص على الظن ، والظن فيه ترجيح لجانب القبول عند

الباري عز وجل ، وربما يطلق الظن في القرآن الكريم ويراد به اليقين ، او يراد به المبالغة لأن الانسان اذا ظن في الله تعالى ، فلا بد أن ينال جزاءه على حسن ظنه ، فاحرى إذا تيقن في الباري عز وجل ، فان الله لا يحرمه من ذلك ، وهذا مثل قوله سبحانه في سورة المطففين :" الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين " الا يظن اولئك الذين يطففون في الكيل والميزان أنهم مبعوثون ليوم عظيم وهو القيامة ، يحاسبون فيه على مافرط منهم ، لأنهم لو كانوا يظنون في البعث والنشور لما ارتكبوا تلك المعاصي ، فالعمل الصالح دليل على أن العقيدة موجودة ، والطالح دليل على ضعف العقيدة .

والحديث ورد من جهات أخرى بزيادة (فليظن بي ماشاء) وحمله القابسي على أن المقصود من الانسان أن يكون حسن الظن بالله ، لأن حسن ظنه دليل على حسن نيته وعلى عمله الصالح ، قال الشاعر :

اذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه

وصدق ما يعتاد ه من توهـــــــم

فالقابسي يفسر هذا الحديث على أنه يحثنا على حسن الظن ، على اختيارالعمل الصالح ،ويؤيد ذلك ماثبت في الحديث الشريف (لا تموتن إلاوأنتم حسنو الظن بالله) يقول القابسي معناه لا تموتن إلاوأفعالكم الجميلة تدل على حسن ظنكم بالباري . ثم قال سبحانه في الحديث القدسي :" وأنا معه حيث يذكرني " أي مع عبدي حيث يذكرني " وهو معكم أينما كنتم الآية ، لأنه موجود في كل مكان ، ولا يحده زمان ولا مكان ، والمقصود هنا أنا معه بالحضور وبالتوفيق ، لأني أنا الذي وفقته لذكري، ولولا توفيق الله تعالى لعبده ، ما توفق لذكره ، فذكر الانسان لله يدل على محبته لعبده ، وتوفيقه له .

ويذكرون في هذا المقام : أن رجلا كانت له جارية ، فقام في قصره ليلا يتفقدها فلم يجدها ، وبينما هو يبحث عنها في زوايا القصر ، إذ به يجدها تسجد الله سبحانه وهي تقول : اللهم بمحبتك لي فاغفر لي ! فلما فرغت من صلاتها قال لها : يا هذه : لم تقولين اللهم بمحبتك لي ، ولم تقولي اللهم بمحبتي لك ؟ فاجابته : إن محبته لي هي التي أيقظتني للصلاة وأنامتك أنت .

فلولا توفيق الله لعباده ، ما استطاع أحد منا أن يعمل عملا صالحا ، فالكل من الله والفضل له سبحانه ، هو الذي اصطنع لنا المعروف وجازانا عليه كما يقول ابن عطاء الله ، (اذا أراد أن يظهر فضله عليك خلق ونسب اليك)

(فانا معه حيث يذكرني) أو المقصود أنا معه في سره حيث يذكرني ، فكما ذكرني في سره ، فانا أجازيه بمجازاة لا يطلع عليها أحد الا انا وهو ، لذا أجزيه بذلك العمل الصالح الذي قام به ، وهذه الفقرة فسرها في بعض الروايات الاخرى " ان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه " وهي موجودة في كتاب الذكر من صحيح الامام مسلم ، يريد أنه سبحانه ينادى وسط الملائكة ، وفي المقام العلي ، ان فلانا قد ذكرني ، فانا أذكره وأثني عليه ، وقد استفاد العلماء من هذا الحديث ان الملائكة أفضل من البشر ، لأنه قال : " ان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه " والملأ الذي عند الله هو الملائكة ، وقد اضطرب رأي العلماء في هذه المسالة : فمنهم من قال : ان الملائكة أفضل من عموم البشر ، ومنهم من قال : ان الانبياء والصالحين أفضل من الملائكة ، ودليلهم في ذلك أن الملائكة معصومون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يومرون ، فطبيعتهم مركبة على العصمة وعدم العصيان ، وأما الانسان ، فإنه

مركب على الامتحان على الخير والشر ، فالمطيعون المومنون المخلصون ، والانبياء والمرسلون ، هم افضل من الملائكة على هذا الرأي ، وهذا الخلاف لا يدخل عندهم فيه النبي صلى الله عليه وسلم الذي يعتقده المسلمون أنه أفضل من جميع الكائنات .

وهذا وقع عليه إجماع العلماء ولم يخالفه الا الزمخشري في الكشاف ، وعليه رد المقري في المراصد حيث قال :

نبينا أفضل بالاطلاق من كل مخلوق على الأطباق
وما انتحى الكشاف في التكوير خلاف إجماع ذوي التنوير

وهذا ما تشير اليه الأبيات المنسوبة لأبي نواس في مدح سيدنا على الكاظم ، وان كانت الأبيات بعيدة من جهة الصنعة عن نفس أبي نواس ولكنها تدل على المعنى المقصود :

قيل لي أنت أفضل الناس طرا في فنون من المديح النزيه
فعلى ماتركت مدح ابن موسى والخصال التي تجمعن فيه
قلت لا استطيع مدح إمام كان جبريل خادما لأبيه

ويؤيد هذا العلماء على أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم افضل بالاطلاق من جميع الكائنات من غير استثناء ، وهذه فضيلة لهذه الأمة المحمدية التي شرفها الله بسيدنا محمد وبعثرته آل بيته قال عليه السلام ، " تركت فيكم اثنتين ان اتبعتموهما لن تضلوا أبدا ، كتاب الله ، وعثرتي أهل بيتي " كما ثبت في بعض الأحاديث ، فإذن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم افضل من جميع المخلوقات ، فالفقرة في الحديث الشريف لا يقصد منها تفضيل الملائكة على البشر ،

ولكن الملائكة لهم مقامهم العظيم ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يومرون ،فإذا ذكر الانسان ربه في ملأ ذكره الله سبحانه في ملأ خير من ذلك الملأ عند الله (ولا يعلم جنود ربك إلا هو) ليس عند الملائكة فقط فهناك الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء والصالحون ، فينبغي للإنسان أن يذكر الله تعالى في كل مكان ، وأن يمجده بكل لسان

ثم انتقل صلى الله عليه وسلم من الخطاب الذاتي الى الغيبة وقال : " والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم إذا أصاب ضالته في الفلاة " قسم من النبي يعني تأكيد أن الله تعالى أشد فرحا ، بتوبة عبده حين يتوب ، من الرجل الذي ضلت ناقته في الفلاة ، ثم وجدها ، والمقصود بالفرح بالنسبة للباري عز وجل آثاره ، وهو الرضى ، لأن الذي يفرح بالشيء يرضى به ، فإذا تاب العبد فرح الله أي رضي عليه وبعمله ، وهذه التوبة عظيمة بشرنا بها في هذا الحديث وغيره ، وجعل لنا أبواب رحمته مفتوحة في كل وقت وحين فلا ينبغي أن نياس أو نمل أو نقنط ، مهما كانت ذنوبنا ، فبتوبتنا يغفر لنا كل ما سبق بشرط الإقلاع ، أي العزم على عدم الرجوع الى تلك الذنوب التي ارتكبناها وتلافي ذلك بالعبادات وأنواع الطاعات ، وقد بين الله التوبة التي يلتزم قبولها - ويعتبر ذلك رحمة منه وتفضلا - لأنه الحاكم المطلق الذي يفعل في ملكه ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لكن جرت سنته وفطرته سبحانه بأن يلتزم لعباده بأشياء ، فإذا التزم لهم فيستحيل في حقه سبحانه التراجع لأن التراجع معناه ظهور البدا على الله وذلك مستحيل في حق ألوهيته يقول الله تعالى في كتابه : " انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة تم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم ، وكان الله عليما حكيما ، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : "

إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار اولئك اعتدنا لهم عذابا أليما " (1) ذكر الله سبحانه في هذه الآية أمر التوبة وفصلها ، لنُعَرفَ اولا التوبة في مدلولها اللغوي والشرعي ، فالتوبة لغة معناها الانابة والرجوع فمن فعل شيئا ورجع عنه فقد تاب ، ومن ذهب ورجع فقد تاب ، وفي الاصطلاح التوبة الرجوع عن بعض الاعمال التي يرتكبها الانسان مخالفا بذلك امر الله .

وقد فسر التوبة الامام الراغب الاصبهاني الرجل العظيم والفيلسوف الاسلامي الكبير ، الذي ما عرف أحد مفردات القرآن كما عرفها هو قال : محللا أخلاق الانسان - إن الاعتذار عما يفعله الانسان لا يخلو من أمرين : اذا فعلت شيئا وقيل لك لم فعلته ؟ إما أن تقول لم أفعل ، أو تقول فعلت ، وتحاول تبرير ذلك الفعل ، وإما أن تقول فعلت وأسأتُ وأنا تائب الى الله وراجع عما فعلته ، وهذه هي التوبة الحقيقية ، فلا يمكن للانسان أن يلتجيء الى النكران او العناد محاولا تبرير أعماله السيئة .

ثم إن التوبة تُطلق على فعل التائب كما تطلق على فعل القبول من الله فيقال تاب فلان أي رجع عن غيه وتاب الله على فلان أي تقبل منه تلك التوبة .

والآية تبين لنا أن الناس بالنسبة الى التوبة أربعة أقسام :

1) الذين يبادرون بالتوبة ، يتوبون من قريب ، يفعلون السوء ، ولم يقل السيئات لان شانهم فعل السوء المرة بعد المرة ثم يتوبون من قريب اختلف العلماء في معنى القريب فقيل ان الحياة كلها قرب ،

---

(1) سورة النساء

لان الانسان مادام لم يصل الموت الا وقد تاب من قريب ، وقيل أن التوبة عند الغرغرة لأنها كذلك من قريب ، لكن الذي يفهم من الآية بالتفاصيل المذكورة فيها : أن التوبة من قريب ، تعني في زمن قريب من فعل السوء الذي ارتكب قربا نسبيا ، وليس المقصود الحياة برمتها ، والالم يكن هنالك فرق بين الذي يتوب من قريب والذي حضرته الموت .

والفرق موجود لا محالة فالذي يتوب من قريب مثل شخص يرتكب اساءة في حالة غضب ثم حينما تسكن نفسه ويرجع اليه ضميره ، يعتذر ويتوب الى الله سبحانه فهذه في الحقيقة هي التوبة من قريب ، التزم سبحانه وتعالى ان يقبلها .

انما التوبة على الله للذين يعملون السوء اما بجهالة اي سوء فهم ، واما - لان طبيعتهم كذلك ، واما لعجز عن كبح جماحهم ، فيقبل الله منهم التوبة ،والانابة وقد التزم ذلك والتزامه سبحانه لا تراجع فيه .

2) اما القسم الثاني فهم اولئك الذين ينغمسون في اللذات والشهوات والمعاصي غير مبالين ولا نادمين ، حتى إذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ، هؤلاء لا يلزم الباري أن يقبل توبتهم ، ولكن لا تسد في وجوههم ابواب التوبة فيمكنهم أن يتوبوا ويبقى أمرهم الى الباري عز وجل لعدله وإحسانه ، إن شاء عاقبهم ، وإن شاء عفا عنهم ، " ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ".

3) القسم الثالث هم الذين نص عليهم القرآن في هذه الآية " ولا الذين يموتون وهم كفار " والغريب أن القرآن تكلم في هذه الآية عن الكفار مع أن المقام مقام التوبة ، والتوبة للمذنبين العصاة لا الكفار ، فلماذا ذكر الكفار ؟

خرج العلماء ذلك مخارج كثيرة ، قيل ذكر الكفار تنبيها للمؤمن الى أن المعاصي بريد الكفر ، والى أن الانسان اذا واصل ارتكابها حتى مات فيخشى عليه من ان يكون قد مات على سوء الخاتمة - والعياذ بالله - وانتم تعلمون ان الله سبحانه وتعالى قد بين لنا في كتابه الكريم ان المعصية تنكت نكتة سوداء في قلب الانسان كما قال صلى الله عليه وسلم فاذا هو تاب واستغفر محيت تلك النكتة ، واذا استمر في معاصيه ازدادت نكتة على اخرى حتى يسود قلبه قال صلى الله عليه وسلم فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه " كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون "(1) اذ الاستمرار في المعاصي وعدم التوبة يؤدى الى تجاهل كل شيء ، والى الغرور بالحياة الدنيا ، والى نكران الدين ثم الى الكفر ، لذلك قال تعالى " ولا الذين يموتون وهم كفار " .

ويحتمل على مخرج آخر ، ان يكون المقصود بذكر الكفار هنا المبالغة لان مزية الاسلام ان يسمي بعض الاعمال الفظيعة كفرا او ليس ايمانا كقوله صلى الله عليه وسلم " من غشنا فليس منا " مع انه ولو غش يبقى مسلما ، وكقوله عليه السلام " ليس بمومن ، ليس بمومن ، ليس بمومن (ثلاث مرات) قيل من يا رسول الله : من لم يامن جاره بوائقه " وقوله عليه السلام (لايزني الزاني حين يزني وهو مومن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مومن) فلا شك أن المقصود ليس كفر الزاني فالزنا معصية لا تصل لدرجة الكفر وكذلك شرب الخمر . فسر الامام الغزالي ذلك في الاحياء مفلسفا العبارة النبوية فقال مثله كمثل المريض عاده الطبيب فوجد درجة السكر بلغت عنده قدرا كبيرا فمنعه من أكل السكريات والنشويات فاذا صدق الطبيب لم

---

(1) سورة المطففين

يتناول تلك الاطعمة والاشربة ، واذا لم يصدقه وأكلها فاثناء تناوله لها يكون غير مومن بقول الطبيب ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم لا يزني الزاني الخ ، فالانسان حينما يرتكب معصية الزنا يكون موقنا ان العقوبة التي ادخرها الله له صحيحة وانما خرج صلى الله عليه وسلم ذلك مخرج المبالغة " ومن طريف النكت هنا " مادمنا في مجلس الحديث الملكي " فقد وقعت نكتة في هذا الحديث الشريف حينما كان يقرأ في مجلس جلالة السلطان مولاي عبد الحفيظ رحمه الله بمدينة فاس وكانت كما لا يخفى في ذلك العصر فكرة المناقب سائدة وفكرة الخرافات منتشرة ، فقد سرد السارد هذا الحديث : لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مومن . ولا يزني الزاني حين يزني وهو مومن . فقام بعض العلماء من المعتقدين في تلك المناقب الكثيرة وقال له : والله يا مولاي لقد رايت الشريف الفلاني يشرب الخمر والنور ساطع على وجهه . فقال له مولاي عبد الحفيظ : ذلك مصداق الحديث ، ذلك نور الايمان قد خرج من ذلك الشخص الذي يشرب الخمر والمقصود ان الشارع يطلق هذه الاطلاقات ، مبينا ان العمل الصالح ينبغي ان يكون عن عقيدة وثبات ، وصدق نية ، والاسلام يبين لنا ان هذه المعاصي ربما تصل الى درجة الكفر ، فيحذر منها ولا يريد منا الوصول اليها وهذا هو السر في اطلاق الباري عز وجل على الذين يموتون وهم كفار . اولئك الذين يغفلون عن التوبة ، بحيث انهم اكثر ممن سبقهم لا يتوبون عند الموت ، ولكن يموتون ولا يتوبون فهؤلاء لا يلتزم لهم الله بمغفرةولكن يجوزان يغفر لهم ، لأن ابواب الرحمةواسعة لكل شيء .

أما القسم الرابع ، فغير مذكور في الآية لفظا ولكنه مفهوم منها ، وهم اولئك الذين لا يبقون الى وقت الاحتضار ، ولا يتوبون من قريب ، ولكنهم يتماطلون مع انفسهم قليلا قليلا وهم اصحاء ، وقبل

ان يصل اليهم المرض ، وهؤلاء ايضا لا يلتزم الباري لهم بالتوبة ، ولكنها على اي حال ودون شك من الاقسام المذكورة سابقا .

اختلف علماء التوحيد في التزام الباري عز وجل للتوبة : فاهل السنة يقولون انه لا يجب على الله شيء . والمعتزلة يقولون : ان قبول توبة التائب واجب لانه من باب الاصلح الواجب على الباري عز وجل ، ولكن الخلاف لا محل له ما دمنا قد قلنا ان الله قد التزم بنفسه وقد جرت سنته ان لا تبديل لكلمات الله وان ما اراده سبحانه لا يمكن ان يتبدل ويتغير ، فلا محل لتلك الخلافات .

والآن نريد ان نتكلم على مسالة التوبة بصفة عامة وعلى الفلسفة الاسلامية في هذا الباب التي يريدها الاسلام من المجتمع الاسلامي ، ذلك ان الناس فيما مضى قبل الاسلام وبعده اختلفوا طرائق متعددة : فمنهم اولئك الذين كانوا ياملون في المدن الفاضلة كافلاطون ومن نحا نحوه ، وكانوا يعتقدون ان الانسانية لابد ان تصل في يوم من الايام الى ان تكون في مدينة فاضلة ليس فيها اثم ولا خطأ ولا شهوة وتبعهم في ذاك بعض الفلاسفة المسلمين الذين انتحوا منحى المدرسة اليونانية كالفارابي في مدينته الفاضلة وابن الطفيل في رسالته حي بن يقظان ، وهذه الرسائل كلها تبين أملا كبيرا ومثلا عاليا يصله الانسان في هذه الدنيا ، ونجد اليوم نوعا من هذه المدينة الفاضلة يبشر بها الماركسيون في هذه الارض ، ويقولون : ان الدنيا ستصل الى ان ينصف الناس بعضهم بعضا ، فلا يحتاجون الى حكومة ، وهذه كلها في الحقيقة خيالات واوهام لا في الماضي ولا في الحاضر ، فالواقع ان الانسان مخلوق كما اراد الله وكما يبينه القرآن وكما سنبينه .

اما اليهود والمسيحيون فقد نحوا منحى آخر فذهبوا مذهب التشاؤم وقالوا : ان الانسان ولد اول مرة طيبا طاهرا ، لكن سقط في خطيئة آدم ، تلك الخطيئة التي انزلت الانسان الى الحضيض ، وجعلته غير قادر على النهوض ، فنحن نرث هذه الخطيئة نحملها على اكتافنا ، ولا يمكن ان نصل للتخفيف منها الا عن طريق الفداء ، لا فداءنا نحن ، ولكن فداء الباري في صورة بشر ، ولا بد ان يضحي بنفسه من اجلنا لكي نعيش يقولون يجب على الاله ان ينزل الى الارض ، مع ان الانسان يجب ان يرتفع الى السماء فهذه الا عتبارات الفلسفية التي ذكرت خيالات وخرافات لا اصل لها وتعتبر احتقارا للانسان ومساسا بقيمته ، اما الاسلام فانه جاء يبين الوسط والتعادل بين الجسم والروح وبين الخير والشر فيقول : ان الانسان وجد في هذا الارض مركبا من الخير والشر وهكذا اراد الباري وهكذا يجب ان يكون لان الله خلقه ليجعله خليفته في الارض ، وجعله خليفة يقتضي ان يكون له فكر ، وتكون له المسؤولية ، والمسؤولية لابد ان تكون معها الحرية ، والحرية لا بد ان يكون معها الصواب والخطا ، فالانسان مركب من هذه الطبيعة لتكون الحياة ويسعى فيها بخطيئته لا الاصلية ولكن بخطيئته التي يرتكبها هو ولذلك وصف الله سبحانه قصة آدم في قوله عز وجل ، " واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني اعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم .(1)

---

(1) سورة البقرة

فهذه الآية تبين جانبا من جوانب الكون ولا يعني الملائكة بالآية الكريمة ان الانسان لابد ان يرتكب الخطيئة ، وانما يقصدون ان التركيب الانساني مبني على أساس امكان ارتكاب الخطيئة ، ولذلك قالوا ان هذا الانسان الذي يمكن ان يفسد في الارض، ويسفك الدماء ، لا يصلح ان يكون خليفة ، وانما نحن المعصومون من الخطأ ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، فقال لهم الله ذلك الانسان المخطيء المذنب الغالط ، هو الجدير بخلافتي في الارض ، ثم علم آدم الاسماء وهذه اشارة الى ما ركبه الله في الانسان من القدرة على المعرفة واكتشاف الاشياء واكتناه معاني الالفاظ والمسميات ، فلما عرض عليهم آدم بذكائه وفطنته ومعرفته وعلمه قال لهم : أنبئوني بأسماء هؤلاء اشارة الى معرفة الانسان فقالوا : " سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا " فظهر عجز الملائكة من ان يكونوا من المعرفة ومن الاكتشافات للحقائق بما ركب عليه الانسان الكامل مثل آدم عليه السلام ، فالاسلام بعد ذلك جاء يبين لنا هذا الجانب من الكون ، وان الانسان خليفة الله في الارض، وانه مركب من الخير والشر اي فيه عنصر الخير والشر وان الله قد علمه ولقنه وهداه النجدين واعطاه الفكر الذي يدرك به الاشياء ولكن سلط عليه الشيطان عدوه وعدو الله ، سلط عليه روح الشر في هذه الدنيا ، شياطين الانس والجن " قال رب بما اغويتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم اجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين " (1) هذه الآية تبين جانبا آخر من جوانب الكون وان هناك عدو ا للانسان ، هنالك المعرفة والعقل والفكر وكل شيء وهنالك مخلوق وهو الشيطان مسلط على الانسان ليغويه ويضله دائما فهو يزين لنا الارض ، ويبعدنا عن

---

(1) سورة الحجر

السماء وهو يغوينا ، قال الله تعالى افعل ما تشاء اما الصراط الذي جعلته انا فهو مستقيم وعبادي المومنون بي ، الممتثلون لأمري ، لا تستطيع ان تغويهم " ليس لك عليهم سلطان " الا من اتبعك من الغاوين والضالين ، فانت تسيطر عليهم الى يوم يبعثون ثم يحاسبون ، انت واياهم على عملهم ، ثم في الآية الأخرى في سورة سبحان يقول الله تعالى :" واذ قلنا للملائكة اسجدوا لأدم فسجدوا الا ابليس قال أسجد لمن خلقت طينا ، قال ارايت هذا الذي كرمت على لئن اخرتني الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا ، ان عبادي ليس لك عليهم سلطان " فالشيطان يستفزنا في كل الأشياء . يحبب الينا الأموال والاولاد والمعاصي والخروج عن الشريعة يحبب لنا كل شر ، ولكن عباد الله المؤمنون بالله لا سيطرة للشيطان عليهم لانهم مومنون بالله ، ولانهم يتبعون أوامر الله ، ويتغلبون على كل شيطان من شياطين الانس والجن ، ووصف القرآن الجاهلين الاولين كذلك بقوله :"ان يدعون من دونه الا اناثا وان يدعون الا شيطانا مريدا لعنه الله ،وقال لا تخذن من عبادك نصيبا مفروضاولأصلنهم ولامنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الانعام ولأمرنهم فليغرن خلق الله " (1) لقد رأيتم كيف ان التغيرات التي يرتكبها الانسان في الدنيا والانحرافات التي يخرج بها عن الشريعة كلها من زيغ الشيطان واغرائه ، فما هو العلاج الذي جاء به القرآن ؟ هو الذي يصفه الله تعالى في قوله :" يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ، والله يريد ان يتوب عليكم

---

(1) سورة النساء

ويريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ميلا ميلا عظيما يريد الله ان يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا " (1) فالمجتمع الاسلامي مدعو لان يعمل بمقتضى هذه الآية الكريمة ، يريد الله ان يبين لكم ولا يريد ان يترككم لمجرد تفكيركم ، قد تخطئون في افكاركم وقد لا تدركون الحسن والقبيح كله بمجرد نظركم ، يريد الله ان يبين لكم ويهديكم ويرشدكم سنن الذين من قبلكم ، فلا يترككم تجربون تجارب اخرى بعد ان جربت الامم السابقة من قبلكم ، وفي ذلك موعظة لكم فهو يقص عليكم نباهم ، ويرشدكم الى أخطائهم ، ثم يرشدكم الى العلاج الذي امرهم ان يعالجوا انفسهم به ، " ويهديكم سنن الذين من قبلكم " ويتوب عليكم مما ارتكبتموه من الضلال في الجاهلية حين كنتم تعبدون الاوثان وتئدون البنات وتستعملون الربا الى غير ذلك من الفظائع التي كانت في أيام الجاهلية الاولى " يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم " (ويريد الذين يتبعون الشهوات)وهم دعاة الرفاهية ودعاة السوء والسيطرة الجسمانية والشهوانية على الانسان ، يريد الذين يتبعون الشهوات ان تميلوا ـ ان تنحرفوا عن الطريق المستقيم ميلا عظيما ، ويريد الله ان يخفف عنكم بعدم اتباع هؤلاء القوم ، وخلق الانسان ضعيفا لأنه سرعان ما يتاثر للدعوات المختلفة فهذه الآية تبين ان هنالك دعوتين في الافق مناديين : مناد من قبل الله يبين لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا ، ويريد منا ان لا نضل ولا نغوى ، وان نتبع الشريعة المطهرة ، والاخلاق الاسلامية الكريمة ، ومناد من قبل الشيطان وهم فئة المترفهين ، شياطين الانس والجن ، الذين لا يريدون الا ان تضلوا ضلالا بعيدا ، وتنحرفوا عن السبيل ، وانتم ضعفاء في تركيبكم ، فعليكم ان تتوبوا الى الله وترجعوا اليه وهذه الآيات التي تلوت

---

(1) سورة النساء

عليكم سابقا يقول فيها ابن عباس رضي الله عنه انها من الآيات التي هي افضل من الدنيا وما فيها .

ويقول سيدنا عبد الله بن مسعود : نزلت في سورة النساء آيات ما أحب أن لى بها الدنيا اولاها قوله تعالى : " ان الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تَكُ حسنة يضاعفها ويوت من لدنه أجرا عظيما ".

الثانية قوله سبحانه :" إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم من سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ".

الثالثة قوله جل وعلا : " ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ".

الرابعة قوله : ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ".

الخامسة قوله جل من قائل : " ومن يعمل سوءا او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما " فهذه الآيات المبشرات في كتاب الله عز وجل تبين كلها ان الاسلام ليس صعبا وان بناء المجتمع على أسس اسلامية ليس شيئا متعذرا وانما يحتاج الى شيء من الايمان والثقة بالنفس .

ان هنالك دعوات جاءت العالم الاسلامي من الاستعمار الصليبي الاجنبي ، هي التي جعلتنا نغتر بانفسنا ولا نثق في ربنا ودِيننا ، ولا نريد الرجوع الى الله سبحانه ونطلب منه التوبة ، مع ان الاسلام لا يطلب منا ان نكون ملائكة في الارض يمشون ولا يريد منا ان

نكون اناسا لا يعصون شيئا ماكان المجتمع الاسلامي قط بهذه الصفة ، كان مثاليا في العصور الاولية ، ومع ذلك كانت فيها معاصي واقيمت فيها الحدود ، فلا يقصد من مجتمع اسلامي ان الناس سيكونون بعيدين عن الرفاهية . بعيدين عن الحياة ومستلذاتها لكن بمجرد ما فتح نابليون مصر وصنع هنالك القانون المدني ابتعدنا عن الشريعة والدليل على ما قلته لكم من ان الانسان لا يطلب منه ان يكون ملكا في الارض ، وانما يراد منه ان يكون قابلا لمبدأ الطاعة لله سبحانه ، واذا ارتكب معصية تاب منها ورجع عنها ما يلي :

جاء جماعة من المصريين الى سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه كانوا من المتزمتين والحديثي عهد بالدين فقالوا له اننا راينا المسالة الفلانية في القرآن ولم نرها تنفذ ، ونريد ان تدخلنا على امير المؤمنين عمر بن الخطاب لعلنا نساله في ذلك ، فقبل عبد الله بن عمرو امرهم وذهب بصحبتهم الى المدينة المنورة عاصمة الخلافة الاسلامية وبقي اياما ، فلما رآه عمر ، قال : منذ جئت قال منذ بضعة ايام قال او جئت بإذن ؟ قال : لا ، ولكن جماعة من المصريين قالوا كذا وكذا ، قال فاجمعهم لي ! فجمعهم له ، فالتفت سيدنا عمر الى اقربهم اليه وقال : بالله عليكم ، وبحق الاسلام عليك ، هل حفظت القرآن ؟ قال اللهم نعم . قال : بالله عليك فهل احصيته في نفسك (يعني هل طبقته على نفسك) قال اللهم لا . قال بالله عليك هل طبقته في نظرك (يعني فيما يتعلق منه بالنظر هل طبقت احكامه) قال : اللهم لا . قال هل طبقته في سمعك قال : (اللهم لا) ثم سأل الثاني والثالث ، وما زال يسالهم جميعا وهم يقولون اللهم لا ، قال ثكلت عمر أمه ! كيف تريدون مني أن أحمل المسلمين على تطبيق كل ما في كتاب الله على أنفسهم ؟ لقد علم ربنا اننا سنذنب ، اما قراتم

قوله تعالى : " ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما " ثم قال لهم : هل سمع بكم احد في المدينة ؟ قالوا لا ، قال والله لو سمع بكم احد لوعظت بكم ، اي لعاقبتكم ولجعلتكم عبرة لمن وراءكم ، على تزمتكم وعلى كونكم تفهمون الاسلام هذا الفهم الضيق .

فانظروا كيف ان رجلا عظيما مثل عمر بن الخطاب معروف بشدته في الدين ومعروف بقوته ، ومع ذلك ما كان يفهم ان الناس سيكونون نسخة من المصحف الكريم تمشي على الارض ، كلا ! ولكن الناس ضعفاء فالمجتمع الاسلامي لا يطلب منه ان يكون مثاليا كما يتصور ، وكما يريد الناس ان يصوروه لنا ، انهم يريدون ان يعجزوا الناس عن الرجوع الى الاسلام ، انهم يريدون ان نقول لهم كيف تريدون ان تتركوا هذه الرفاهية وهذه الحضارة التي وصلتم اليها ، بالاسلام يمكننا ان نكون في هذه الحضارة واحسن منها ، ولكن نستبعد الموبقات والمشاكل التي نقلد فيها الاجانب من غير لذة او شهوة ، وانما بحكم التقليد ليس الا ، وفي الآية الكريمة :" ولو انهم اذ ظلموا انفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما " فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم " " الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ، يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت ، وقد أمروا ان يكفروا به " ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ، فكيف اذا اصابتهم مصيبة بما قدمت ايديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان اردنا الا احسانا وتوفيقا اولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فاعرض عنه وعظهم ، وقل لهم في انفسهم قولا بليغا " ياتون اليك ويقولون لك انما اردنا اقامة العدل بنشر هذا القانون

وبالتحاكم الى الطاغوت انما اردنا ان نثبت ان قوانيننا العصرية نابعة من المنابع التي نبعت منها قوانين بلاد الحضارات الاخرى .

بين لنا القرآن ان نعرض عن هذه الدعاية ، وان نعظ القائمين بها ، وان نبين لهم قولا بليغا في انفسهم من كتاب الله وسنة الرسول ، وان المطلوب من الجميع التوبة الى الله والرجوع الى اقامة شريعة الله .

وقد كان محمد الخامس رضي الله عنه يعلم ويعرف ان رجوع هذه الامة الى الاستقلال ، يعني الرجوع الى حظيرة الاسلام الصحيح والسنة المطهرة والى حظيرة البناء الكامل لاحكام الشريعة فكان يشجع التعليم الديني و يبارك العلماء ويؤسس اللجان التي تدون القوانين الفقهية ويريد بذلك الرجوع الى الشريعة الاسلامية الى احكام الله .

ولاشك ان سيدنا امير المؤمنين الحسن الثاني سيوفقه الله لاتمام ما بداه والده ، فهذه الأمة الاسلامية لا يصلح حالها الا بالعودة الى كتاب الله وسنة رسوله ، وكل حضارة لا تستقي من نبع الاسلام فهي حضارة زائفة ، وكل بناء لا يقوم على أساس الاسلام فهو بناء منهار ، وكل ثقافة لا تقوم على تعاليم الاسلام فهي ثقافة باطلة ، اننا لا نريد ان نبطل الرباط الذي بيننا وبين السماء ، الرباط الذي جعله الله بيننا وبينه مقابل رباط بين امم اخرى ، وجماعات تريد ان تخرجنا عن ديننا ، وان تبشرنا بانواع البشارات الكثيرة التي ترونها ، فالله سبحانه وحده الذي يجازي محمدا الخامس على ما عمله لهذه الامة والله سبحانه الذي يجازيه بتوفيق ولده وخلفه الى الاستمرار في عمله واداء واجبه حتى يوحد هذه البلاد من

الوجهة الترابية فيسترجع المناطق المغتصبة منها كلها وحتى يوحد كلمة المسلمين بهذه البلاد وعقيدتهم واعمالهم واحكامهم ، فيجمع المسلمين على عقيدة سواء ، الامر فيهالله ، والحكم لله ، والشريعة هي السائدة المسيطرة . والعربية هي اللغة الناطقة ، هذا ما نريده للامة كلها نساله سبحانه في هذه الليلة المباركة ان يرحم مولانا الفقيد وان يقعده مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ونساله تعالى ان يرزقنا نحن التوبة والمثوبة الى الله " ربنا اننا سمعنا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الابرار ، ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد " .

الدّرس الخامس

في شرح حديث

تطعم الطّعام وتقرأ السّلام على من عرفت ومن لم تعرف

قاله لرجل قال:

أيّ الإسلام خير؟

2 رمضان 1387 موافق دجنبر 1967

الدرس الخامس في شرح حـــديث :

تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف

قاله لرجل قال :

أي الاسلام خير؟ (1)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الكريم وعلى آله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين .

1ـ أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدى هدي سيدنا محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة وصاحبها في النار .

وبأسانيدنا المتصلة الى الشيخ الامام الحافظ الحجة الهمام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن برد زبة بن الاحنف البخاري رحمه الله ورضي عنه قال :

باب افشاء السلام من الاسلام

وقال عمار ثلاث من جمعهن فقد جمع الخير كله :انصاف من نفسك ، وبذل السلام للعالم ، والانفاق من الاقتار .

2ـ هذه باب عظيمة من ابواب الامام البخاري رضي الله عنه ، وهي في كتاب الايمان من صحيحه ، وقد جمع فيها وفـــي الابواب

---

(1) القى الزعيم الاستاذ علال الفاسي هذا الدرس من سلسلة الدروس الحسنية الرمضانية في الثاني من شهر رمضان المعظم عام 1387هـ موافق لـ ٤ دجنبر سنة 1967 م .

المتناسقة المتوالية احاديث كثيرة من شعب الاسلام اي الخصال الاسلامية التي تفسر طريق الايمان في داخل الاسلام . وقد عبر عنها النبي (ص) في الحديث الشريف الذي رواه البخاري اذ قال :الحياء شعبة من شعب الايمان وفي الحديث الآخر الذي رواه في الصحيح ايضا بلفظ :شعب الايمان ستة وسبعون شعبة اعلاها لا اله الا الله ، وادناها اماطة الاذى عن الطريق .

ولا شك ان الحديث الذي رواه الامام البخاري في هذا الباب ، وجواب النبي (ص) عن سؤال السائل : اي الاسلام خير من شعب الايمان .

وهذا الحديث مشتمل على جوامع الكلم ، وقبل ان نتكلم عنه ونفصل القول في اطعام الطعام وافشاء السلام يجب ان نتعرض في مدخل قصير لبعض المسائل المهمة ، ثم نتبعها بتمهيد مختصر كذلك .

اما المدخل فسنتعرض فيه لحقيقة الاسلام والايمان ، وللتصور الاسلامي للعالم ، ومركز الانسان في هذه الحياة .

واما التمهيد فنتناول فيه شعب الايمان .
وبعد ذلك نخلص للحديث عن هذين الشعبتين وهما اطعام الطعام وافشاء السلام .

المـــدخـــل

3ـ منذ اوجد الله الانسان في هذا الكون وهو على نوعين : طائفة اهمها امر نفسها فهي لا تفكر الا في اشخاصها ، تعتبر

انها من اعظم الناس واكثرهم قيمة ومنزلة ، وان مكانتها في الدنيا لا توازى وتكفر لذلك بالله ولا تعتبر له منة عليها ، حاسبة ان ما حصلت عليه في الدنيا من خير ومن نعم انما هو بكسبها او تيته على علم منها كما قال قارون ، (انما أُوتيته على علم عندي) ومن هؤلاء الفرعون الذي قال : (انا ربكم الاعلى) وهؤلاء كلهم طغاة مستكبرون يعيثون في الارض فسادا ولا يالون الناس ظلما واستبدادا ومكرا واستعبادا ، اما الطائفة الثانية فهي تحتقر نفسها ولا تعطيها مزية وتحتقر معها الانسان كله رات الظواهر الكونية فاستعظمتها ، فاهمها امر الشمس والقمر والعواصف والامطار ، والبحار والانهار ، ورات الموت بعد الحياة ، ظاهرة الفناء بعد ظاهرة الانبثاق ، فاحتقرت نفسها واكبرت تلك الظواهر وخافتها فعبدتها من دون الله ، وهكذا عبدت الشجر والحجر والشمس والقمر والجن والملك ، وكل كائن غير حقيقي او متخيل .

لقد وجدت هاتان الطائفتان منذ خلق الله الدنيا ، ولما جاء الاسلام اوضح للناس انهم ليسوا على واحدة من الحالتين ، ليسوا على تلك الدرجة من العظمة والجبروت ، ولا على تلك الدرجة من الحقارة والمهانة والعجز ولكنهم خلق كالخلق ، انشاهم الباري في أحسن تقويم ، وأوجدهم في كون ذي نظام ونواميس وجعل قيمتهم بالاعمال التي يقومون بها ، نبه القرآن الطائفة الاولى ، الى أصلها الذي نشات منه ، وانها خلقت من مني يمنى وتدرجت في اطوار من النشوء من صنع الله تعالى وحسن تدبيره ، وذكرها بأن ما تقوم به من أعمال في هذه الدنيا ليس من صنعها وانما هو من صنع الله ، وكل ما يصل اليها من خير ومنفعة من عند الباري عز وجل ، قال تعالى : (او لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسي خلقه ، قال من يحيي العظام وهي

رميم ، قل يحييها الذي أنشأها اول مرة وهو بكل خلق عليم) .

فينبغي للانسان ان يتدبر في نشأته ليعلم انه خرج من نطفة مذرة تدفقت عند شهوة انسانية ثم تحولت بإذن الله الى كائن انساني مختلف الحالات ، من هذه النطفة خرج العلماء والفلاسفة والمفكرون والانبياء والمرسلون والاولياء والصالحون والقواد العسكريون والصناع والعمال والامراء والرؤساء والحكام ومجرمو الناس وشياطينهم ، لو نظر الانسان الى نفسه وتدبر في اصله لعلم انه انما خرج للعالم بقدرة المدبر الحقيقي وهو الله ، وانما يستمر وجوده بامداده المتوالي فلا بد له من الاه يوجده ثم يمده في كل وقت ، ولا يتصور ان يستغني عنه لا ايجادا ولا امدادا اذ هو بمثابة العرض الذي لا يبقى زمنين ، لذلك ارشدنا الله عز وجل للتخلي عن صفات الطائفة الاولى ، التي هي الكبرياء والاستعلاء .

ونبه تعالى الطائفة الثانية الى انه لم يخلقها محتقرة ذليلة بل مكرمة عزيزة ذات حرمة عند الله ومكانة في الدنيا قال تعالى : (ولقد كرمنا بنبي آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) فهذه الكرامة اعطاها الله للانسان وفضله بها على غيره من المخلوقات مزية عظيمة له ، ماكان لينالها من ذاته او من اصله ، وانما نالها بفضل الله تعالى الذي اراد ان يجعله في هذه الارض ذا كرامة وحرمة ، وقد ارشدنا القرآن والسنة النبوية ان طبيعة الاسلام تريد من الانسان ان لايقف الموقف الاول موقف الكبرياء والجبروت ، ولا الموقف الثاني موقف التحقير لبني آدم ، بل عليه ان يقف في الوسط ، يومن بنفسه ويعترف بقيمته التي وهبها الله تعالى له ، ولكن يعد ذلك منة منه

سبحانه ،ونعـــمة تستوجب الشكر واخـــلاص العبـــادة للباري عزوجل .

4. فاذا انتفت الصفتان ، بقيت صفة الكرامة وحدها ، وهي تستلزم مقام الخلافة التي اعطاه الباري للانسان كل انسان ، فقد استخلفنا الباري على هذه الارض لنعمرها ، والناس كلهم مسلمهم وكافرهم متساوي في هذه الصفة صفة الخلافة عن الله ، اي على معنى التكليف بها وبمستلزماتها ، ولكن التحقق فيها لا يتم الا للمؤمنين المتقين اذا ءامنوا ثم اتقوا واحسنوا ، واما غيرهم فيصيرون للمثال الذي ءال اليه ابليس لما ابى واستكبر وكان من الكافرين .

فالخلافة اعظم مظاهر الكرامة ، ولكنها لا تتم الا بالعلم والامتثال . وكلكم يعرف قصة آدم عليه السلام وكيف امر الله الملائكة بالسجود له فسجدوا الا ابليس راى انه افضل من الانسان لانه خلق من نار وخلق الثاني من طين ، فبين الباري للملائكة ان المسالة ليست مسالة اصل وسلالة ، طين او نار ، وانما هي مسالة قابلية واستعداد ومعرفة " وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين " والمراد ان الله خلق الانسان ذا مقدرة علمية وملكة يستطيع ان يدرك بها الاشياء ، وذلك ما يعده لتسخير الاكوان له ، واذا كان قادرا على التحكم في الشجر والحجر والشمس والقمر فكيف يمكن ان يتردى الى عبادة هذه الاشياء التي هي في قبضته ؟ قال تعالى : " وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سالتموه " فالانسان اذن هو قطب الوجود والظواهر الكونية كلها موجودة لخدمته ، ومطوية في قبضته ، اذا هو سار في الطريق المطلوبة منه وارتوى من العلم ما ينمي قابليته ويزيد في مقدرته ، معترفا بنعمة

الله عليه ،وقائمابمهمة الخلافة المنوطة به ، مومنا بان مقامه في الدنيا موقت لاداء مهمته وتبليغ رسالته ، لان الدنيا دار عبور، لا دار قرار .

وتعني الخلافة ان الانسان بمثابة نائب الملك او الرئيس ، عليه ان يطيع من ينوب عنه وينفذ ما يصدر اليه من اوامر ويجتنب ما يعطيه من نواهي سالكا ما تقتضيه تعاليمه وما يعلم انه يرضيه من الاعمال ، على ان يسلك مع الرعية افرادا وجماعات ما يعلم ان الملك يسلكه معهم ، فالرحمة والعناية اللتان يمنحهما الباريء للخلق يجب على الانسان كخليفة لله ان يسلكها مع الناس ، وان يعاملهم ويعاملوه بالحسنى ، ويتساعد معهم متضامنين في الحياة ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر مظهر من مظاهر هذا التضامن الانساني .

5- ولم يتكلم شراح الحديث كثيرا عن معنى هذا الحديث ، بل لم يكتبوا الا سطرين او ثلاثة كلها ترجع للغة او للنحو ، فنحن مضطرون الى الكلام عليه بما يؤدي اليه الفهم في هذا العصر مبينين معانيه الشيقة وما تهدف اليه من مقاصد النبوة التي تمتليء بها احاديث الرسول المروية في الكتب الصحيحة والتي هي شعب الايمان ومحتوى الرسالة الخالدة .

ولقد قلنا ان الخلافة مهمة طوق بها الانسان فوق الارض تقوم في الدين مقام المواطنة في المدينة ، ونزيد الآن بان الله يريد من خلفائه اي من كل المواطنين اي من كل الناس ، ان يسلكوا في سيرتهم ما يقضي به الباري عز وجل ، فموافقة عمل الانسان لارادة الله وسعيه لتحقيق هذه الموافقة هما معنى الرسالة الانسانية وفحوى الخلافة الربانية .

وهذه الاعمال الموافقة لارادة الباري ، هي شعب الايمان ، وهي اخلاق الاسلام ففلسفة الاخلاق اذن التي هي صفات الاسلام ، ليست ماخوذة من المجتمع والاستفادة من المنفعة كما يقول بعض الفلاسفة (الاوروبيين مثل ديكارت وسبينوزا ومن اليهما ، وليست هي القيام بالواجب كما يقول انصار داروين وسبنسر واضرابهم ممن يومنون بالقوة والانانية ، خلق (الانا) وليست مجرد تطور من تطور العادات كما يراه فلاسفة متاخرون ، وانما الاخلاق في نظر الاسلام ثمرة الايمان ، فحينما يومن الانسان يشع نور الايمان على اعماله وسلوكه فيصير ممتثلا لاوامر الله مجتنبا لنواهيه اي متخلقا باخلاق الاسلام .

يعني منفذا لخطابات الله التي تقول له افعل ، لا تفعل ، انت مخير بين الفعل والترك ، فاحكام الشريعة اذن هي اخلاق الاسلام ، ولا يسير وفق الشريعة الا من يومن بانها من عند الله الذي يوقن بربوبيته ، فلا يتصور في الاسلام خلق مستقل عن الايمان ، وليس ثمرة له ، والذين زعموا من المستشرقين الغربيين ان الاسلام لا يشتمل على اخلاق لانه غير مبني على القواعد التي بنيت عليها المسيحية ، لم يفهموا الاسلام وما كان لهم ان يفهموه ، وقد غطى التعصب الاعمى ابصارهم وبصائرهم ، مع ان اخلاق الاسلام واضحة بينة ، ولكنها ليست مستقلة عن الايمان ، او مجرد خلق للمدينة او الجماعة كما يقولون ولا تطورا ناشئا عن عوامل اقتصادية واجتماعية ، بل هي ثابتة لانها اوامر ونواهي من عند الباري عز وجل وهذه ناشئة عن طبيعة التكليف الذي تحملناه بايماننا ، فلما آمنا وجب علينا ان ننفذ تعاليم الاله المنزلة في كتابه الكريم وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

تلكم هي الاخلاق الاسلامية لا تقصدها الا ثمرة للايمان ، ولا تسمح طبيعة الاسلام ان نتصور انسانا غير مومن ، ونعطي لما يتشبث به من تقاليد صفة الاخلاق الاسلامية ، حتى ولو كانت تلك التقاليد اسلامية الاصل وتدل عليها تعاليم الاسلام لانها اذا لم تستند الى الايمان سقطت ولم تعد اخلاقا اسلامية ، لان العبرة في الخلق الاسلامي ليس مجرد السلوك المظهري بل الباعث على السلوك والغاية منه ، لان السلوك يصبح نفاقا او عادة اذا لم يكن معه باعث الايمان وغاية الطاعة الله ، وليصبح السلوك خلقا اسلاميا يجب ان يكون ثمرة ايمان ورغبة في موافقة العمل لارادة الله ، وحبا في طاعته ، وهذا هو السر في عدم قبول اعمال غير المومنين ، وفي عدم اثابة المشركين على ما يقومون به من اعمال صالحة في الظاهر ، لان الغاية المقصودة منها تنقصها وهي رضا الله كما ينقصها الباعث عليها وهو الايمان وطاعة الباري عز وجل ، ومعلوم ان الغاية التي يعمل لها الانسان في هذه الحياة ، والتي جعلها الباري غاية من خلق البشرية في هذه الدنيا وتكليفها بانواع التكاليف هي الحصول على رضا الله ، فكل عمل صالح يقوم به المومن انما يقصد به ارضاء الباريء تبارك وتعالى ، والا كان عملا لا قيمة له واي قيمة تبقى لعملنا اذا رد علينا ولم يقبله الله منا ، ويكفي ان يحظى المومن بتقبل الله بعض اعماله لينال السعادة الكبرى ، وكم من عمل صالح يرد على الانسان لنقص فيه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في المصلي الذي ينقب صلاته نقب الديكة انها ترد عليه كما يرد الثوب الخلق ، وقال بعض العارفين ، لو علمت ان صلاة واحدة قبلت مني لكان ذلك افضل لي من الد نيا وما فيها ، وهذا يعني ان الساعة التي يحظى فيها الانسان بتقبل الباري لاعماله ، ساعة عظيمة بالنسبة له ، وكرم الله يستوجب ان يتقبل من عباده بعض

اعمالهم الناشئة عن ايمان به ، وسعي في رضاه ، كما يستوجب ان يوفقهم لبعض الاعمال الصالحة الجديرة بالقبول منه تعالى ، نسال الله ان يتقبل منا اعمالنا دائما ، ويوفقنا الى عمل ما يرضيه .

6. واذا كانت الاخلاق الطيبة التي يامر بها الاسلام لا تكون طيبة الا اذا كانت ناشئة عن الايمان ، فان الاسلام كذلك لا يتصور ايمانا من غيرعمل ، فلا تجد في كتاب الله كلمة المومنين الا مقرونة بالعمل الصالح . (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فلا يعتبر الايمان كاملا الا مع العمل الصالح ، ولهذا بحث العلماء الاقدمون في الايمان هل يزيد وينقص ام لا .

ولقد قال سيدنا نصره الله في السنة الماضية بانه ممن يقول ان الايمان لا يزيد ولا ينقص ، وهو مذهب لكثير من ائمة المسلمين ، واما الامام البخاري الذي يقول انه يزيد وينقص فانه لا يفرق بين الايمان والاسلام ، بل يجعلهما مترادفين ، والذين يقولون بزيادة الايمان ينظرون الى الاعمال كثمرة الايمان ، فالبخاري الذي يجعل الايمان عين الاسلام لا يختلف عنه ، يقول انه يزيد وينقص باعتبار الاعمال الصالحة اذ لاشك ان الاعمال تختلف ، فتم من يعمل كثيرا ومن يعمل قليلا،ومن يخلط الصالح بغيره والكل بخير ان شاء الله .

وعلى كل حال فالايمان ضروري للقيام بالاسلام وهو ضروري للعمل الصالح وكما لا يتصور الاسلام الايمان الا بالعمل الصالح لا يتصور العمل الصالح الا بالايمان ، ولا فائدة للاعمال الطيبة اذا لم يكن معها ايمان بالله وبكتبه ورسله ، واذا لم تكن ناتجة عن وعي بذلك الايمان وعن دافع نفساني رباني روحاني ومتى تحققت صفات تلك الاعمال كانت ناجحة ومثمرة .

والايمان مشتق من الامن فيلتقى مع الاسلام الذي هو استسلام وسلام ، والايمان متركب من الف وميم ونون ، اي من الامن والامن هو السلام الذي يطلبه الانسان حينما يطمئن للباري عز وجل كما نبينه ، لان المومن في الحقيقة يقع له السلام في نفسه وتقع له الطمانينة ايضا .

تمهيد :

7- اما شعب الايمان التي اشرنا اليها وهي موضوع التمهيد فهي جمع شعبة ويفسرونها بالخصلة وبالطريقة او بالقطعة من قطع الايمان .

ويسميها بعض العلماء شعب الايمان ، ان امور الايمان في الاسلام اي داخل الاسلام ، هي بمثابة تلك المشارب المتفرعة عن بحر اصلي هو بحر الايمان تتشعب في داخل الاسلام ثم ترجع اليه ، او ان تلك الاعمال اغصان شجرة مباركة هي الايمان ، تلكم هي شعب الايمان وقال النبي صلى الله عليه وسلم عنها انها 66 شعبة وثبت في بعض الاحاديث انها 76 بزيادة عشرة وقال القاضي عياض انها 96، وانه لابد ان يجد الانسان صعوبة كبيرة اذا اراد حصرها ، وقد اشتغل جماعة من علماء الحديث بها والفوا فيها ، وفي مقدمة هؤلاء العلماء الامام البيهقي وكذلك ابن حبان ، قال الحافظ ابن حبان ، تتبعت شعب الايمان في الاحاديث الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تبلغ تسعة وستين ، ثم قرأت القرآن وتتبعت كل ما فيه من شعب الإيمان فلم تصل بالقرآن وحده الى التسعة والستين ، ثم جمعت ما بين الشعب المذكورة في القرآن وما بين الشعب المذكورة في الحديث الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا بها تتم

لي تسعة وسبعون من شعب الايمان فعلمت ان النبي صلى الله عليه وسلم ، قصد مجموع الشعب المذكورة في القرآن او في الحديث ، وكتاب ابن حبان لم يصلنا ، ولم يصل ، كذلك للامام الحافظ ابن حجر ، وقد قال هذا الحافظ ان الذي نفهمه مما نقل عن ابن حبان ان لهذه الشعب اصولا ثلاثة : شعبا قلبية ، اي تتعلق بالقلب ، وشعبا لسانية اي تتعلق باللسان ، وشعبا بدنية اي راجعة لشؤون البدن .

واعلى الشعب المتعلقة بالقلب الايمان بمدلول كلمة الشهادة ، لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، ويدخل في الايمان بالله الايمان بصفاته وينضم اليها الايمان بملائكته وبكتبه ورسله ، واليوم الآخر، ويدخل في الايمان باليوم الآخر ، الايمان بالبعث والنشور والصراط والميزان والحوض والجنة والنار وسؤال الملكين بعد الدفن ، وغير ذلك من الأمور التي ورد وجوب الايمان بها في الكتاب وفي السنة ، والتي لا يمكن ادراكها الا من طريق الوحي ، والغيبيات هذه هي التي يسميها الفلاسفة ما وراء الطبيعة ، وقد تكفل الاسلام ببيان الغيب جملة واحدة ولم يترك فيه مجالا للبحث وانما اوجب الايمان به كما ورد . واذن فلا محل للبحث من غير الوحي عن كل ما يرجع لما وراء الطبيعة ، وبذلك حررنا الاسلام من تضييع الوقت فيما لا يمكن الوصول لمعرفته معرفة يقينية عن طريق العقل او التجربة ، واراد منا ان نشتغل باكتشاف مجاهل الطبيعة نفسها ، لاننا في قلب الطبيعة ولسنا خارجين عنها ، فيمكننا البحث عن اسرارها واسبابها ومسبباتها حتى نسخرها لخدمة الانسانية عامة والاسلام والمسلمين خاصة ، فنحن مامورون بالايمان بالغيب وبالشهادة ، ولكننا مامورون بالامساك عن البحث في الغيب وبالنظر في شؤون الشهادة اي ما يمكن ادراكه بالتجربة والبحث .

وتتضمن كلمة الشهادة الايمان برسالة الرسول وكونه خاتم

النبئين ومن علامةهذا الايمان اعتقاد القلب بمحبته واحترامه وتعظيمه واحترام اهل بيته وعلماء شريعته لانهم ورثة النبوة وحفظة الدين .

واما شعب اللسان فلا تتجاوز سبع شعب منها التوحيد ، اي النطق بكلمة الشهادة ، اذ لا يكفي الايمان بها قلبيا الا من العاجز عن ذلك .

ويعد من ابى ان ينطق بها مع قدرته على ذلك كافرا ، واما من ترك النطق في غفلة فقد اختلف في كفره ، قال عياض انه كالابي ، وقال الجمهور وابو منصور الماتريدي انه يعد كمن نطق بها .

وثانيتها تلاوة القرآن ، والثالثة تعليم العلم ، والرابعة البر اللساني اي المساعدة على اعمال البر ، والخامسة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والسادسة ترك اللغو اي عدم الكلام بما لا يعني ، وعدم الخوض فيما ليست فيه مصلحة دينية او دنيوية مشروعة ، وقد ثبت في الحديث " ان الرجل يتكلم بالكلمة لا يلقي لهابالاً ليهوى بها في النار سبعين خريفا " والسابعة عدم الاستماع للغو والمزح بغير الحق .

ونفهم من ذلك ان الانسان ينبغي له ان يعرض عن قراءة الكتب والصحف الخليعة او الداعية لهدم الدين وافساد الافكار او الاستماع للاذاعات ورؤية المتلفزات التي من هذا القبيل لان ذلك يغري بالفساد ويضيع وقت الانسان في غير منفعة ، واما الشعب الراجعة الى البدن ، فكثيرة منها ما يتعلق بالاعيان اي بالذوات ، كازالة النجاسة وستر العورة والطهارة الحسية والمعنوية ، والصلاة فرضا ونفلا والصيام فرضا ونفلا والحج فرضا ونفلا ، والتهجد

والعبادة والذكر والاستغفار والتعفف بالزواج وعدم ارتكاب المعاصي ، والجود ويدخل به اطعام الطعام المذكور في الحديث .

ومن الشعب البد نية ما يتعلق باتباع الانسان لا الانسان نفسه كالاحسان للزوجة والبرور بالوالدين ، وعتق الارقاء زمن وجود الرقيق او عتق الرقبة عموما كفكاك الاسارى ومساعدة من اجاز بهم الدين وكل عمل صالح يوصل الخير الى الغير ، ومنه انواع البر ، والامرة بالعدل اي امارة المومنين مع العدل ، ومن ذلك عدم العصيان اي عدم شق العصاعلى من ولاه الله امر المسلمين مادام قائما بالقسط ، وعدم مفارقة الجماعة ، اي السير في المحجة داخل اطار الجماعة الاسلامية اذ يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار كما في الحديث الشريف ، ومن ذلك الاصلاح بين الناس ، والضرب على يد البغاة والمحاربين والسالبة طبقا لما هو معلوم في كتب الفقه وفي كتاب الشفا للقاضي عياض ، ويندرج ايضا هنا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فعلالا بمجرد القول ، وحسن الآداب والتواضع مع الناس ، ومنه السلام على من عرفنا وعلى من لم نعرف امتثالا لامر الرسول ، اي تبادل التحية ، كما يدخل افشاء السلام بمعنى الامن في العالم وهو بذل السلام للعالم كما روى عمار .

8- تلكم هي شعب الايمان اجملناها كما هي قلبية ولسانية وبدنية ، وقد راينا كيف تتصل بجميع اعمال الانسان وسلوكه اتصالها بالايمان .

صور النبي صلى الله عليه وسلم هذه الاعمال وكانها اصل كبير تتفرع عنه كل الاعمال الانسانية سلبا وايجابا ، فهي شجرة ذات جذور وعروق وفروع واغصان .

3 ـ شرح الحديث :

9 ـ قال المصنف رضي الله عنه : " باب " هكذا بالتنوين " افشاء السلام من الاسلام " وفي بعض نسخ البخاري :" السلام من الاسلام " والكلام على حذف مضاف اي افشاء السلام او قراءة السلام من الاسلام وافشاء السلام نشره واذاعته بين الناس ، وسنتكلم على السلام بنوعيه : التحية ، والسلام العام . وقال عمار : " ثلاث من جمعهن فقد جمع الايمان " وفي حديث آخر : " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان " . واعراب ثلاث هنا كاعراب ثلاث هناك ، مبتدأ سوغ الابتداء به مع انه نكرة انه على حذف مضاف ، اذ المعنى : ثلاث شعب ، او ثلاث خصال " من كن فيه " اي من وجدت فيه هذه الخصال او من جمعها او من اجتمعت عنده هذه الخصال الثلاث كان عنده الايمان ، وذلك هو جواب المبتدأ ، اذ الايمان كله منحصر في هذه الشعب الثلاث التي سيذكرها عمار ، وعمار هذا هو سيدنا عمار ابن ياسر رضي الله عنه من السابقين الاولين في الاسلام ، وممن اوذوا في الله ، وعذبوا بمكة المكرمة وهو اول من اتخذ مسجدا في مكة قبل الهجرة النبوية ،كان يذهب عنده المسلمون يجتمعون في بيته وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اذهبوا الى مسجد آل ياسر ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة ، وقد توفى رضي الله عنه في موقعة صفين ، وكان مع على كرم الله وجهه ، وفي حقه روي : ويح عمار تقتله الفئة الباغية .

10ـ وهذا الحديث مروي هنا على انه موقوف على عمـــــار ، ورواه احمد ابن حنبل في مسنده عن جماعة من الصحابة مسندا الى النبي صلى الله عليه وسلم وكان عبد الرزاق يتحدث بهذا الحديث لجماعة في آخر عمره مسندا اياه الى النبي صل الله عليه وسلم

وقـــال ابـــن حجـر ان حديث عبد الرزاق معلول من جهة السند لانه اختلط في آخر عـــمره ولكن ثبـــت من جهة اخرى عند الطبراني انه مسند الى النبي صلى الله عليه وســـلم فيكـــون الحديث غير موقوف بل من كلام الرسول عليه السلام ، وفي هذه الطريق الثانية ضـعف قال ابـــن حجر في كتابه تعليق التعليق : روي هـــــذا الحديث من طرق كثيرة ويصح ان يكون مرفوعا الى النبي صلـى الله عليه وسلـم ومهما يكـــن فقـد اجمع حفاظ الحديث وشراحه على ان هذا الكلام سام وعال يشبه في اسلوبه جوامع الكلم وذلك ما يقوي الظن انه من نطق النبي صلى الله عليه وسلم .

11 ـ قال عمار : " ثلاث من جمعهن فقد جمع الايمان " الانصاف من نفسك هذه الاولى ، اي اذا تعلم الانسان كيف ينصف الله والناس من ذنبه يكون قد حصل على ثلث الايمان والاسلام . وطبعا فان ذلك لا يتاتى الا بمـعرفة الحقـائق على وجهـــها ، ومعرفة المأمورات والمنهيات الشرعـية فاذا تم ذلك للانسان وحصل منـه خطـأ فارتكـب امـرا يضر بدينه وبآخرته تذكر وندم وانصف من نفسه ، فاعترف بانه مـذنب واستغـفر الله وتاب اليه ، واذا اساء الى غيره ولو بظـن السـوء في اخيه يندم ويستسمح من اساء اليـه ويعـتذر له ، ولاشك ان تبادل الانصاف بين الناس من طرق افشاء السلام .

اما الشعبة الثانية فهي : (وبذل السلام للعالم) وينبغي ان نتدبر هذا التعبير الجليل السامي الذي استعمله سيدنا عمار رضي الله عنه ، فهو لا يدل على مجرد قراءة السلام على من عرفنا وعلى مـــن لم

نعرف ، بل يدل على نشر السلام في العالم ، والمقصود بالسلام ليس التحية ولكن الامن والطمانينة بحيث نهتم بسلام الناس قاطبة ونبذل ما نستطيعه من جهد وجهاد وتعاون مع ذوي النية الحسنة والرغبة الصادقة حتى يحل السلام في العالم محل الحروب والامن الخاص والعام مكان الخوف من مصائب اليوم والغد ويريد الاسلام منا ان نكون في الحرص على السلم والدعوة اليه مثلا صالحا ، فقد جعل الله السلام من اسمائه ، واشتق منه الاسلام فسمانا بالمسلمين على اعتبار ان لا تبقى في نفوسنا ولافي سلوكنا شائبة من جاهلية ووعدنا جزاء على عملنا بدار السلام عند ربنا وسمى المدينة بدار السلام ، وامرنا ان نجعل السلام تحيتنا ، ووعدنا ان تكون تحيتنا في الدار الآخرة سلاما ، كل ذلك لنعلم اننا مكلفون برسالة خالدة هي نشر السلام والاسلام في العالم ، وضمان القوت للعالم كما سياتي .فقول عمار او نقله عن الرسول (بذل السلام للعالم) يبين لنا الغاية من افشاء السلام ، وما التحية الا جزء من هذه الغاية ووسيلة لتحقيقها ، لان تبادل التحية مما يزرع المحبة بين الناس ، وقد قال الشاعر :

كيف اصبحت ، كيف امسيت مما

يزرع الود في فؤاد الكـــريـــــــم

والشعبة الثالثة في حديث عمار : (والانفاق من الاقتار) اي عند الاقتار وهو الفقر ، والمقصود ان انفاق الغني من فيض ماله محمود ، ولكن الذي هو من شعب الايمان هو انفاق الفقير مع فقره لما فيه من الايثار وقد قال الشاعر :

ليس العطاء من الفضول سماحـــــة

حتى تجود وما لديك قليـــــل

وقد وصف القرآن الانصار بقوله : " ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة " فالاسلام يحث على الانفاق حتى عند الاقتار ، ويجعل ذلك من شعب الايمان .

فاذا اجتمع للانسان مع ايمانه ، انصافه من نفسه ، وبذل السلام للعالم وانفاقه مع الاقتار فقد تحقق له معنى الايمان ، وتم له مدلول الاسلام .

ومن الواضح ان هذه الشعب الثلاث تؤدي كلها الى السلام ، فالانصاف الذي هو ادق من العدل لانه يعني قيام ضمير عدل عند كل انسان يدفعه الى عدم الاعتداء على احد او الاجحاف بحق احد ولو لم يكن هنالك رادع قضائي يؤدي الى السلام لان التناصف يعني عدم التخاصم ، واطعام الطعام من الاقتار يجعل الانسان يفكر في الضعفاء والمحتاجين . ومتى سدت حاجة الجميع الى الطعام ، ومتى قام الكل بما يجب من توفير التغذية للناس قاطبة زال سبب كبير من اسباب التطاحن ودواعي الخصومة وحل محله سبب الرضى والامن ، ثم اذا كان المجهد الانساني كله بعد ذلك مبذولا لازالة اسباب الحروب والتقرب بين الشعوب تحقق السلام للعالم .

12 - ورسالة الاسلام ملخصة في هذا الحديث ، على المسلمين ان يسيروا عليها ويدعوا لها ويجاهدوا في سبيل تحقيقها ، عليهم ان يكونوا مثلا صالحا في اقامة العدل والانصاف في محاكمهم وفي معاملاتهم الخاصة والعامة ، وفي التعاون مع الغير على اقرار

علاقات دولية بين الشعوب والحكومات شعارها الانصاف ومناطها التساوي في الحقوق وفي الواجبات .

وعليهم ان يحققوا العدالة الاجتماعية بضمان القوت للجميع ، عن طريق توفير اسباب الكسب واتاحة الفرصة لكل مواطن حتى يسد حاجته عن طريق جده ونشاطه ، وفي الوقت نفسه ينفقون العفو من مالهم ولو كان ما بيدهم قليل ، ويدخل في ذلك تعاونهم الدولي على توفير التغذية للناس كلهم ، ودعوتهم العالم الى التخلي عن النفقات الزائدة في الحروب والاستعداد لها وفي الابتكارات الجهنمية ، والتنافس في اسباب القهر والغلبة ، ان تكون امة هي اربى من امة ، وحجز تلك النفقات لضمان اسباب الحياة للشعوب المتخلفة حتى يكون للناس قاطبة حقهم فيما خلقه الله من خير لهم جميعا .

واخيرا عليهم ان يكونوا دعاة سلم ، وبناة عالم آمن مطمئن ، يسارعون الى كل ما من شأنه ان يوحد بين الامم ويجمع الناس على الاخوة والتضامن ، والتحالف على تحريم الحرب مطلقا مع اقامة نظام عالمي ضمن جمعية اممية حقيقية للوقاية من الاعتداءات التي من شأنها ان تثير الحروب وتخرج بالانسانية عن صراط الله السوي صراط العدل والانصاف والضمان الجماعي ، وحق الكل في التمتع بالحرية وكسب الحياة ، وبذل السلام للعالم .

13 ـ ذكر الامام البخاري حديث عمار هذا معلقا ، والتعليق عدم رواية المؤلف الحديث بسنده المتصل الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فهو حديث صحيح ، ولعله لم تجتمع فيه شروط البخاري التي اشترطها لتخريج الحديث في صحيحه ، ومن عاداته ان ما كان

كذلك يرويه معلقا ، ولكن البخاري روى لنا حديثا آخر مقصودا بالذات من الترجمة ، وهو ما سيرويه لكم القارىء قال : (حدثنا قتيبة : تصغير قتب ويجمع على اقتاب وهي الامعاء ، وقتيبة هو ابن سعيد ابو الرجاء علي قال : (حدثنا الليث) هو ابن سعد امام المصريين المجتهد الكبير ، الحافظ الحجة ، قال : (عن يزيد بن حبيب) وهو من حفاظ الحديث ورواته ، ورجال هذا الحديث مصريون قال : (عن ابي حبيب ، عن ابي الخير عن عبد الله بن عمرو بن العاص) رضي الله عنهم جميعا ، وبهذا السند يروي الحديث البخاري هنا ، وقد خالف فيه ذكر اثنين من شيوخه ، ورواه في كتاب الايمان في باب اطعام الطعام من الاسلام ، وفي الباب الثاني افشاء السلام من الاسلام ، وفي باب السلام على المعرفة وغير المعرفة وكذلك رواه مسلم في باب التفاضل بين اعمال الاسلام .

قال البخاري : (ان رجلا سال رسول الله) لم يسم البخاري الرجل في هذا الحديث والذي قاله جمع من المحدثين انه هو ابو ذر الغفاري ، وما اجدر ابا ذر ان يسال هذا السؤال ويجاب ذلك الجواب .
(اي الاسلام خير ؟) اي ماهو افضل انواع الاسلام ؟

14- حقيقة الاسلام

يجب ان نقف هنا قليلا لنفهم معنى كلمة الاسلام . لان كثيرا من الكلمات المشهورة لدينا نستعملها في كل الاوقات ونذكرها بمناسبة وغير مناسبة ولكننا ننسى معناها الحقيقي وما المقصود منها ، نحن مسلمون ولكننا لا ندري معنى اننا مسلمون ، هل نعرف ما تقتضيه مناصفةُ المسلم وما تكلفنا به ؟ اننا ندعي التمسك بالاسلام ولكن ماهو الاسلام ؟ هل هو مجرد قشور او هو امر اعلى واعظم ؟

لنفهم ذلك يجب ان نرجع الى تحليل المجتمعات الانسانية كما بدانا في اول هذا الدرس ، ففي الناس طوائف ، واحدة لا تؤمن بالله ابدا وتعطي لنفسها الحرية المطلقة تفعل ما تشاء وتترك ما تريد لا تلتزم بطاعة ولا تتكلف القيام بعمل من الاعمال . هذه الطائفة موجودة في كل زمان ومكان ، وهي التي تسمي نفسها اليوم بذوي الفكر الحر . اولئك الذين لا يومنون بدين ، ولا ينتظمون في طاعة ، ولا يتخلقون بخلق ثابت ، يحسبون ان الحرية هي الاباحية ، مع انها صفة سلبية تقتضي ان لا يفعل الانسان ما يريد بل ما ينبغي له ان يفعله ، وقد كانت هذه الطائفة موجودة عند بزوغ الاسلام .

اما الطائفة الثانية فهي التي تتمسك بايمان ما ، او على الاقل تزعم انها تومن بالله وبرسله وكتبه وتعرف الحلال والحرام والخير والشر .

ولكن اعمالها تختلف تماما عن افكارها وعن ادعائها ، وكانت هذه الطائفة ممثلة عند مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم في اليهود الذين كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويكذبون على الله ورسله ويرتكبون افظع المحرمات زاعمين انها تتفق مع دينهم ، والحال ان الديانة الموسوية الحق بريئة من اعمالهم . كانوا يقولون ليس علينا في الاميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ، كانوا يرفثون وينهبون يظلمون ويعاملون بالربى كل من ليس اسرائيليا زاعمين ان ذلك هو الدين اليهودي ، ولا يزالون يسلكون هذا المسلك الى اليوم ، كما راينا اعمالهم في فلسطين وفي القدس الشريفة ، انهم يعتبرون انفسهم شعب الله المختار ويحتقرون من عداهم من الشعوب ، وقد سلك غير اليهود مسلكهم ، فادعوا الايمان واتباع دين من الديانات ولكنهم ارتكبوا كل ما يتنافى مع ذلك الدين في معاملات الناس وفي سلوكهم الخاص ، وناهيك بما قام به

المسيحيون من مظالم استعمارية واعتداءات راسمالية مع ان ذلك كله مناف لتعاليم المسيح الذي يزعمون الايمان به ويطرونه الى حد ادعاء الالوهية به .

اما الطائفة الثالثة فتتمسك بما وجدت عليه آباءها واجدادها ، تقتفي اثرهم في كل ما يفعلون لا تبحث هل هو خير كله ام شر كله ، فاذا قيل لهم لا تفعلوا قالوا : تلك سنة ءاباءنا وطريقة اجدادنا ، لا يمكن ان نخرج عنها ، وهذه اغرب الصفات التي توجد في الانسان صفة التقليد والجمود على مخلفات الآباء والجدود ، ولذلك شنع الله على هؤلاء في قوله : (واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباؤنا) قال تعالى (قل اولو جيئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم) وقال عز وجل : (اولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون)

ويدخل في هذا الباب ادعاء ان كل ما فعله الماضون حسن جميل وان كل ما جد في العصر محدث قبيح ، فقد يوجد في العصر من الظواهر الحسنة مالم يتات من قبل ، ومثل ذلك ادعاء ان كل ما وقع في هذا العصر جميل ، او ادعاء ان ما تفعله الدول الاجنبية كله حسن يجب ان يتبع ويقتدى به لانهم ارقى منا او اسبق الى انواع من الحضارة الحديثة . مع ان لكل مجموعة بشرية محاسن ومساويء وعلينا ان نقيس كل شيء بمقياس الشرع فناخذ ما يوافقه ونترك ما يخالفه ، طبقا لصراط الله المستقيم الذي امرنا بالسير فيه وعدم الانحراف عنه ، وقد وصف الله المومنين بانهم (اولئك الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، اولئك الذين هداهم الله واولائك هم اولوا الالباب) قال تعالى (ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين)

15. تلكم هي صفات المجتمعات الثلاثة التي كانت عند بعثة النبي ، وقد دعا عليه السلام الى الغائها كلها ، وبناء مجتمع اسلامي يقوم على اساس الطاعة لله ولما جاء عن الله على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم) يتخلق افراده باخلاق القرآن ، ويتمسكون بشعب الايمان ، كما كان الرسول عليه السلام فقد وصفته عائشة فقالت :(كان خلقه القران يرضي لرضاه ويغضب لغضبه) اعطانا عليه السلام القدوة من نفسه ليبين لنا ان هذه الشرائع والاخلاق والشعب الاسلامية يمكن تحققها في الاشخاص اذا هم آمنوا واخذوا انفسهم بممارستها ، واذا كان عليه السلام مصحفا يمشي على قدميه ، فقد اصبح المثل الاعلى والانسان الكامل الذي يمكن لكل منا ان يقتني منه على قدر طاقته ولكن يظل دائما يعمل ويجد السير في معارج السلوك والمعرفة التي توصله الى مقام الصديقين ، واذا كان لا مطمع في وصول د رجة النبوءة فلا اقل من ان يتطلع المومن الى ماهو في مكنته وان يموت وهو مصمم العزم على طلب المقامات العليا ، وكما قال البوصيري :

وكلهم من رسول الله ملتمس
غرفا في البحر أو رشفا من الديـــــم

وصف عائشة خلق النبي بانه القرآن ، يوذن بان المورد العذب والمنهل الصافي الذي يجب ان يستقي منه المريد والسالك وهو كتاب الله ، لانه الكتاب الذي يهدي الى الحق والايمان ويفصل شرائع الاسلام واخلاقه .

ولقد اهتدى المسلمون الاولون بهدي القرآن واقتفوا آثار الرسول فكان منهم جيل عظيم مثل ابي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي

وبلال وسمية وسلمان وعمار بن ياسر واضرابهم من الصحابة الكرام الذين كانوا يحفون برسول الله ويقتبسون من نوره .

16- تصوروا ايها المومنون ، ويا امير المومنين اننا ندخل المسجد النبوي في فترة من الفترات فنجد النبي صلى الله عليه وسلم يدخل ومعه هذه المجموعة من الصحابة : ابو بكر بجلاله وشخصيته ومقامه بين المسلمين الاولين وعمر ذو المواقف الكبيرة في نصرة الاسلام وعثمان ذو النورين الذي تستحيي منه ملائكة الرحمن وعمار المعذب في سبيل الله وطلحة والزبير ، وعلي بن ابي طالب ، وخالد بن الوليد وابو عبيدة وبلال ، لنتصور هؤلاء الابطال الاولياء، وغيرهم من رفقائهم ، يدخلون وما منهم الا بطل كبير او قطب عظيم في الدين والدنيا ، في السياسة وفي العسكرية ، وملابسهم بسيطة ، لا ياكلون الا ما يسدون به الرمق لا يجمعون بين ادامين ، يصومون ويصلون ، تبيت جنوبهم تتجافى عن المضاجع ، يذكرون الله آناء الليل واطراف النهار يسبحون ربهم ويقدسون اسمه ، فاذا دعوا الى غزوة تقدموا كالاسد لا يهابون الموت ولا يوثرون الحياة ، فاذا كانت مجالس العلم هبوا اليها آخذين ومعطين ، متعلمين ومعلمين ، لا يشغلهم ذلك كله عن الضرب في الارض والاخذ باسباب الكسب ، وتنظيم الاسرة والدولة ، والسفر لنشر الدعوة او لكسب الحلال .

اولئك هم المسلمون حقا ، وتلكم هي الصورة الحية التي يجب ان تظل بين اعيننا ونستشعرها كلما قلنا إننا مسلمون ، ان اولئك الصحابة جلهم كان موجودا قبل البعثة لم تتغير اجسامهم عما ولدوا عليه ، هم خلائق كالخلائق برؤوسهم وافواههم وانوفهم وايديهم وارجلهم ، ولكن الاسلام غير من عقلهم ومن ذهنيتهم وطهر

قلوبهم ، لقد كان عمر بن الخطاب يصنع الصنم من الحلواء يعبده ثم ياكله ، كان يئد بنته ، وتحكي الرواية انه جاء يدفن بنته وهي تنفض التراب عن لحيته ، لم يتاثر لها لان سلطان العادة فوق كل عاطفة ، هذا العمر اصبح بعدما اسلم اعظم رجل في الدنيا ، بعد ابي بكر ، بطلا في النضال وعبقريا في الحكم ، ونبراسا في الملمات ، عطوفا برا يتالم للآخرين وللمكر بهم ، ويبكي مخافة ان يصاب جمل في الصحراء دون ان يكون له علم بذلك ، فيعاقبه الله عليه ، لقد وصل به الهم حتى كان يقول : ليت عمر لم تلده امه ، ليتني كنت نباتا ملقى في الثرى ، انه الذي قال لابن الاكرمين (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا) وهذا الامام هو الذي دخل فاتحا بيت المقدس راكبا اتانا ورجلاه تطين في نعلين . وجاء القياصرة والاكاسرة وهو نائم في المسجد فقام وتكلم معهم كلام العارف بما يجب له وعليه ، اليس الاسلام هو الذي صنع هذا البطل ؟ اليست شعب الاسلام التي جاء بها الرسول هي التي ربته ؟ لننظر كل واحد في الصحابة الاولين ، فعمار بن ياسر مثلا كان يثقل بالحجارة ويوضع وهو ثابت في ايمانه يقول : احد ، احد . وبلال ذلك الاسود الذي كان عبدا محتقرا عند سيده يعذبه لايمانه ، اصبح اماما من ائمة المسلمين قال عمر في حقه ان ابابكر سيدنا واعتق سيدنا ، هذا الاسلام الذي حول المسلمين الى هذه الصفة الانسانية الحرة الكريمة التي اصبحت تبحث عن الخير وسال احد ابنائها النبي صلى الله عليه وسلم (اي الاسلام خير ؟)

17 ـ هذا السؤال الذي ينم عن وعي ، والذي لا يصدر الا في مجتمع يومن بالله ويعمل بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مجتمع يدرك معنى الحرية وانها لا تتعدى الحدود الشرعية ولا تتجاوز ما اباح الله للانسان ، يعلم ان الحرية كما قلت صفة سلبية ، تلجم الانسان ، فلا يكون كالماعز التي تدخل ارضا

فيها الكلأ والمرعى فلا تبالي اي زهرة او نبتة اصابت لا يزجرها عنها الا الراعي بعصاه ، بل يكون ذا ضمير يردعه ونفس مومنة تزجره ، ذلك مجتمع الاسلام .

والاسلام في اللغة يعني الاستسلام اي الطاعة والخضوع لاوامر الباريء عز وجل ، استسلام الواعي العارف بما ياتي وما يذر ، ويقابله الجهل ، فالاسلام مقابل الجاهلية والمسلم غير الجاهل ، وليس المقصود بالجهل عدم العلم ولكن الوحشية ، والنعرة السلالية والمنهجية التي كان العرب في جاهليتهم يتصفون بها ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لسلمان حين عير بلالا بنسبه ان فيك خصلة جاهلية ، وفي المغرب استعمال يفسر لنا ما اردناه من مدلول الجهل والجاهلية ، فاننا نطلق على الثور المتمرد الصعب انه جاهل وذلك ما نصف به الانسان الشديد الذي يرتكب بعض اعمال الوحشية نقول عنه انه جاهل ، وقال عمر بن كلثوم في معلقته :

الا لا يجهلن احد علينـــــا
فنجهـــل فوق جهل الجاهليـــن

فالجاهلية هي الوحشية وهي التي سماها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث بالحمية فقال : ان الله اذهب عنكم حمية الجاهلية وفخرها بالانساب ، الناس من آدم ، وآدم من تراب ، لافضل لعربي على اعجمي ولا لأبيض على أسودعلى أحمر الا بالتقوى) قال تعالى : (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) هذا هو الاسلام والمتصفون به هم المسلمون ، وفي الاستسلام طمانينة وأمن فهو سلام كما ان في الايمان معنى السلام لاشتقاقه من الامن ، قال الصحابي للرسول :" اي الاسلام أفضل ؟" والاسلام ليس فيه فاضل ولا مفضول فالمقصود

اي اعمال الانسان في الاسلام افضل ؟ وهذه الاعمال لا تفضل بذاتها وانما تفضل بالنفع الذي يحصل منها ، فلذلك اجاب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : (اطعام الطعام ، وافشاء السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف) او تطعم الطعام ، وهو كما قال الشراح على تقدير ان ، وعليه فيقرأ بفتح الميم كما تضم تاء المضارعة ، ويمكن ان يقرا بضم الميم على طريقة تسمع بالمعيدي خير من ان تراه ، واللغتان صحيحتان ، ويمكن ان يقدر انت تطعم وانت تسمع بالمعيدي .

18 ـ **اطعام الطعام** : من المعلوم ان الاسلام يحث على اطعام الطعام للفقراء والمساكين لم يبذل النبي صلى الله عليه وسلم جهدا بعد نشر الايمان والتوعية به بقدر ما بذله في سبل ازالة الفقر عن المسلمين وتحسين احوالهم المادية والمعنوية ، واول شيء نبهنا اليه هو ان لا ننظر الى الدنيا على انها شر وانه يجب الزهد في كل ما تحتوي عليه ، لا نتمتع بشيء من خيراتها ، بل انه على العكس من ديانات اخرى حثنا على التمتع بخيرات الدنيا وقال لنا : " قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة " اي هي للذين آمنوا ولغيرهم من الكفار في الحياة الدنيا ، وهي لهم وحدهم خالصة يوم القيامة ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضاة ازواجك) فالاسلام يامرنا بالكسب والسعي لنيل نصيب من الدنيا ونصيب من الآخرة ، ويدعونا الى عدم الاستبداد بما نكسبه من مال بل نعتبر ذلك احسانا من الله لنا يستوجب منا ان نحسن الى غيرنا ، قال تعالى : (واحسن كما احسن الله اليك) وقال سبحانه (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا ، انما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا

شكورا) ويحثنا الاسلام على الاطعام في كل الاوقات ، ويتخذ لذلك تشريعات مهمة بعضها واجب وبعضها مندوب ، وبعضها واجب وجوبا وقتيا ، فقد شرع الزكاة الاجبارية والاسلام اول من شرعها ، لاصلاح حالة المجتمع والقضاء على الفقر اذ لم تكن الصدقات من قبل الا اختيارا حتى جاء الاسلام فجعل في مال الاغنياء حقا معلوما للسائل والمحروم ، وهي واجبة في المسائل السبعة المذكورة في كتب الفقه بمقاديرها وانصبتها ، واختلف العلماء فيما وراء ذلك ، وقال بعضهم ان المسائل السبعة انما هي امثلة لما تجب فيه الزكاة ، والحقيقة ان من الصعب القول بوجوب الزكاة في القمح وعدم وجوبها في القطن ، مع انه شكل واحد للانتاج ، والثمرة المادية واحدة ، ولذلك وسع جماعة من العلماء مواضيع الوجوب للزكاة واستقراوها حتى ابلغوها نيفا واربعين نوعا . منها التجارة والفلاحة وملكية العقاروغيرذلك ، اما المالكية فيقولون ان الزكاة الواجبة هي ما ذكره الله في كتابه ، وهي المعروفة لدينا في ما نؤدي عنه الزكاة والعشر ، ونقول بعد ان في المال حقا غير الزكاة ، وقد ثبت في الحديث : ان في المال حقا غير الزكاة . والظاهر ان هنالك حالة يكون الواجب فيها على المسلم هو الزكاة ، وذلك حينما تكون الحالة الاجتماعية حسنة ، والاقتصاد سائرا سيره الطبيعي ، والشعب كله مكفي المؤونة ، وليس هنالك ما يهدد بيضة المسلمين ويمس حريتهم . وهنالك حالة تكون الحاجة فيها ماسة الى مزيد من الدخل العام لبيت المال ، اما لظروف اجتماعية كمجاعة او جفاف او بطالة واما لتهديد خارجي يستوجب الدفاع ونفقاته ، حينئذ يجوز لمن ولاه الله امر المسلمين ان يفرض اداءات اخرى ويوجب على القادرين مغارم على نسبة الحاجة الماسة ، نص على ذلك الامام الشاطبي صاحب الموافقات ، وهو من الفقهاء الممتازين المجهولين ويالاسف من كثير من المسلمين ولا يهتم بدراسة آثاره ومعرفة ترجمته

والمجهودات التي بذلها في سبيل الاصلاح الديني ، الا القليل من رجال الفكر والعلم . مع ان كتابه الموافقات من اعظم المؤلفات في الاصول حتى لو قال قائل انه وضع علما جديدا للاصول لكان مصيبا ، انه في هذا الميدان بمثابة ابن خلدون في علم الاجتماع ، وكلاهما بقي عمله بكرا لم يجد من يواصله ويعنى بالزيادة فيه او النقص او التنقيح ، وتلك ظاهرة من ظواهر التخلف الذي اصاب المسلمين ينبغ فيهم نوابغ ولكنهم لا يستفيدون منهم .

المقصود انه يمكن لولي الامر ان يفرض من الجبايات ما فيه مصلحة المسلمين بشرط ان ينفق ذلك في المصالح العامة او في تحسين احوال الفقراء والمساكين ، اذ الاسلام يفرض على الدولة ضمان الاقل الحيوي لكل انسان ، فقد رويت لكم ان عمر كان يقول : لو باتت ناقة جائعة في الخلاء لسئل عنها عمر ، فالاسلام لا يسمح بشبع جماعة وجوع اخرى بل على من وجد وسيلة الشبع ان يشاطر اخاه الجائع ، ولامير المؤمنين ان يفرض من الضرائب ما يستوفي به هذا الحق ، وان يحجز من الدخل القومي ما يخصصه للضمان الجماعي ، اذ الضمان الجماعي في الاسلام ليس خاصا بالعمال ولا بالعاطلين ، ولكنه شامل لجميع افراد الامة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : طعام الواحد ياكله الثلاثة ، فمن في بيته طعام يكفيه يلزمه ان يقاسمه عند الحاجة اثنين آخرين ، وقد افتى بذلك سيدي عبد القادر الفاسي لسبب مجاعة حصلت زمن مولاي اسماعيل ، وهذه مسائل معروفة في كتب السنة والفقه لاحاجة للاطالة فيها ، ومذهب مالك على الخصوص واسع في هذا الميدان لاسيما فيما يرجع للملكية العقارية التي تدل روايات عن الامام انه كان يقول ان ملكية العقار مباحة للاشخاص ولكن يجب على المالك ان يزدرع العقار بنفسه او يسلمه لمن يزدرعه ولا يجوز له اكراؤه

بالمال ولا اعطاؤه بطريق المخابرة اي ببعض ما يخرج منه ، ولامير المومنين ان ينتزع الارض من يد مالكها المهمل لها ويسلمها لمن يزدرعها وينتفع بها دون تفويت لملكية الاصل على صاحبها ، والاسلام لا ينكر حق الملكية ولا يعتبرها مثل الاشتراكيين وظيفة اجتماعية بل لها وظيفة اجتماعية والفرق بين الامرين اننا اذا اعتبرنا الملكية وظيفة اجتماعية بنفسها لم يصح لنا ازالتها او نزعها اما حينما نقول ان لها وظيفة اجتماعية فاننا نعتبرها مؤسسة لهذه الغاية فان قامت بها فذلك والا استبدلنا بها نظاما آخر ، والاسلام لا يقول بان هنالك حقا طبيعيا ، وانما هنالك جعلية ، لان الطبيعة لا تعطي شيئا ، وهي اذا تركت على طبعها لم يكن لها الا ما يشبه الادغال والغابات العذراء التي لا تدع لمار منفذا ، فلابد من تشذيب الطبيعة وازالة الاشواك والقذاء منها ، والمسلمون اليوم حينما يقولون هذا حق طبيعي انما يضاهون قول الذين كفروا من قبل ، جهلا منهم بحقيقة الاسلام ، فليس هنالك شيء طبيعي ، وانما هنالك شيء شرعي ، الحرية نفسها عطاء شرعي اي مكتسب بالشرع ، وكذلك الاخلاق ، فالمحبة لم تكن من طبيعة البشر في بداية امرهم كما اثبت ذلك علماء الانتيرليولوجي ، ولم تكن الام تحب وليدها بل تخاف منه ولا الولد يحب ابويه ، حتى نزل الوحي ووصى المومنين بالابوين والابناء ولو ان الامر كان طبيعيا ما احتاج الدين للاهتمام به ، ولكن الناس تعلموا الدين وتخلقوا بتعاليمه حتى صار ذلك ممتزجا بهم فعدوه طبيعيا والعادة كما قيل طبيعة ثانية ، وكم احتاج الانسان من تربية وتوجيه حتى اصبح على هذا الشكل الحضاري الاخلاقي الذي نراه اليوم ، وصدق المثل المغربي القائل : " الله اعلم بمن اهبطهامن الجبل "

19- وفي الامر باطعام المطعام ارشاد للمسلمين ليكونوا رسلا لبث هذه الدعوة المحمدية الى ضمان القوت للناس ومقاومة الجوع

والعري في الدنيا ، لقد اصبح المالكون ذوو الثروات الضخمة في اوربا وامريكا يزعمون ان العالم قد ضاق بالسكان ويثيرون بتحديد النسل مبشرين بمجاعات تقع في السنين المقبلة وهم في الواقع مغرضون ، همهم ستر امرهم والاحتفاظ بثرواتهم ، فقد اثبتت الاحصاءات الدولية لمنظمة التغذية العالمية ان ممكنات العالم تتضاعف وستزيد في المستقبل على ماهي عليه اليوم ، وان في الدنيا من الاطعمة ما يكفي سكانها ، وتصرف في امريكا عشرات الملايير لاحراق البطاطا ، وفي المدة التي بين 1955-56 صرفت روسيا وامريكا في صنع القنبلة الذرية ما يربو على التسعمائة مليار من الدولار ، وتقول المنظمة الدولية ان هذا القدر كاف للنهوض بالشعوب المتخلفة في العالم كله ، فالتجويع والحرب ناتجان في العالم عن تكوين الثروة في يد الكبار لتكون امة اكبر من امة ودولة اغنى من غيرها ، وقد امر القرآن بتوزيع الغنائم بين الناس ليلا تكون دولة بين الاغنياء ، فالاسلام لا يقبل ان تصبح غاية الناس ان تتفوق جماعة على اخرى ، وان تجوع طوائف لتشبع طائفة ، بل يريد ان يكون الناس سواء في التمتع بالحياة والاستفادة من خيراتها ، متضامنين في حلو الحياة ومرها ، وقد اوضح القرآن ان قتل النفس الواحدة بغير حق كقتل البشر كله واحياء النفس الواحدة كاحياء امم الارض جميعها قال تعالى :(أنه من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكانما قتل الناس جميعا ، ومن احياها فكانما احيا الناس جميعا) واطعام الطعام احياء للناس وتجويع بعضهم تفويت لحياتهم .

ومن دلائل هذا الحديث وجوب قيام المسلمين بتحقيق مقاصد الشريعة الاسلامية ، وتزعمهم العمل على ان يكون ما خلقه الله للناس كافة ، للناس كافة ، فتنظيم العمل الدولي لضمان التغذية العامة للناس وتنظيم العمل كذلك على ايصال كل واحد ما ينوبه ، رسالة على المسلمين ان يؤدوها . ومن ضمنها مقاومة الاحتكار وكل سياسة تؤدي الى اشباع فئة على حساب اخرى .

ومما زعمه المترفون ان الارض ضاقت بالسكان مع ان الاحصاءات الرسمية للمنظمات الدولية ، تبين ان متوسط السكان في كل كيلومتر اثنا عشر شخصا ، مع ان هولندا يقطن في كل كيلومتر منها الف شخص ، اذن يسع الكيلومتر الواحد الف شخص ، وشتان بين الف وبين اثني عشر شخصا ، فلا ينبغي ان نتحدث عن ضيق العالم قبل ان يمتليء كل كيلومتر مربع منه بالف من الناس ، والى ان يقع ذلك سيكون الله قد هدانا للمخرج ، وربط بيننا وبين مناطق كونية اخرى ، اليس هو الذي يقول : (وهو على جمعهم اذا يشاء قدير) فالقمر والنجوم والكواكب مسخرات بامره وليس علينا الا ان نعمل .

20 ـ قالوا ان القصد من اطعام الطعام الذي امر به الحديث الحث على الصدقة ، واستدلوا بقوله تعالى : (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيرا انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) وقوله عز وجل (فلا اقتحم العقبة ؟ وما ادراك ما العقبة ؟ فك رقبة ، او اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة او مسكينا ذا متربة) وكل هذا صحيح ، فالصدقات مطلوبة ، والزكاة واجبة ، ولكن لا ينبغي للناس ان يعيشوا على الصدقات ، بل على الحقوق التي اعطاها الله لهم ، بل لما قال معاوية ان المال مال الله ، قال له ابو ذر ، المال مال المسلمين ، اي يجب ان يعطى للمسلمين

ويصرف في مصالحهم ، في ضمان اكلهم ولبسهم وسكناهم واقرائهم وعلاجهم ، على الدولة ان تضمن الاقل الحيوي للجميع ، ثم يبقى بعد ذلك لمن كد واجتهد ان يستفيد من نتيجة عمله وكسبه ، الاسلام لا يمنع الانسان من الكسب ولا ينزع عنه ما له بغير حق ،وانما يطلب منه الانفاق اي عدم احتكار المال وادخاره قال تعالى :(ويسالونك ماذا ينفقون ؟ قل : العفو) والعفو هو الفاضل عن حاجة الانسان ، وليس المقصود بالانفاق فيما افهمه من هذه الآية بذل المال الفاضل كله عطاء لا رجعة فيه ، ولكن اخراج المال ليروج ويدور ، فالقصد الاسلامي هو ان لا يدخر المسلم المال الفاضل عن نفقته ونفقة عياله ، وقد هداني الله لان افسر بهذا المعنى قوله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم) ، لقد قال المفسرون وكل المجتهدين ان هذه الآية توعد لمن منع الزكاة ،وان الكنز مع اداء الزكاة واجب ، وقال ابو ذر انها دالة على منع كسب ما زادعلى نفقة الانسان وروى في المعنى حديثا مرفوعا للنبي صلى الله عليه وسلم : (اجعل المال درهمين درهما تنفقه لعيالك ، ودرهما تقدمه لآخرتك ، الثالث يضرك ولا ينفعك لاتريده) والذي هداني الله اليه ولا اعلم احدا سبقني اليه ، هو ان المقصود بالانفاق وعدم الكنز ، اخراج المال وترويجه ليسير في سبيل الله ينفع كل من يمر بيده ،وارى ان الاسلام لا يفرض علينا ان نتصدق بجميع مالنا ونزهد فيه ونعيش عيشة الفقراء وانما امرنا ان لا نترك المال في يدنا دون ان نستعمله ، ومن غير ان نوظفه ، وقد حرم الشارع الربا ، لان كسب الفائدة من الادخار يؤدي الى الكنز المحرم ، واوجب الزكاة في المال الذي يدور عليه الحول دون ان ينفق ، لان ذلك يشجع على اخراجه وترويجه ، اذ الزكاة تاكل المال والربا يمحقه .

21. والخلاصة ان الحديث يجعل من خير الاعمال ان نطعم الطعام بانفسنا وندعو القادرين عليه ونحارب الجوع حتى يتمتع كل انسان بالحرية وطيب الحياة ، وهذه هي الشعبة الاولى ، اما الشعبة الثانية فهي التي تدل عليها الفقرة الاخيرة من الحديث ، وهي قوله عليه السلام : (قراءة السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف) اما شراح الحديث هنا فهم لا يخرجون بالسلام عن التحية ، كل ما يرونه دالا عليه ان يطالب المسلم بمبادأة اخيه بالسلام بان يقول له السلام عليكم ، سواء عرفه او لم يعرفه ، والتصرف اللغوي في قراءة السلام ، انك اذا اردت ان تقول لا حد بلغ السلام لفلان تقول له : اقرا على فلان السلام ، واذا كتبت له تقول اقرا لفلان السلام ، والسلام بهذا المعنى تحية المومن في الدنيا وفي الآخرة ، وهو مشتق عن الاسلام ، والمقصود به الطمانينة والهناءة ، فانت تبادر حينما تلقى اخاك بتامينه وطمانينته ، وقد حثنا الشارع في احاديث كثيرة على تبادل التحية ، وقال عليه السلام مبينا قيمة الفعل : (يعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) والغرض هو عدم التقاطع وتبادل المحبة والوئام واستعمال الوسائل المؤدية لذلك ومن جملتها اداء السلام ، ورده باحسن منه كما قال تعالى : (واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها اوردوها) والسلام المذكورفي الحديث يشمل التحية قطعا ولكن لا يخصها وحدها وإنما يجعلها وسيلة من الوسائل الموصلة لغاية اسمى واعلى وهي نشر الامن بين الناس ، وهذا ما يلزم ان نفصل القول فيه :

22 ـ دعوة الاسلام للسلام

لكي نفهم تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم على حقيقتها ينبغي ان ندرك انه جاء داعيا الى دعوة لم يتقدم لها مثيل في تاريخ

الرسل والمصلحين ، انه لم يكن بدعا من الرسل ، جاء بالعقيدة والاصول العامة التي جاءوا بها ، ولكنه جاء مبشرا بالرشد الديني وبختم النبوة فاشتملت دعوته على اشياء لا قِبَل للديانات بها من قبل ، في مقدمتها تواحيد الاسلام ، فقد نظر الاسلام الى الكون والى البشر نظرة شاملة عامة ، واراد ان تكون هنالك وحدة كونية ينسجم بها الانسان مع الكون ومع اخيه الانسان كيفما كان وفي اي مكان وجد ، فالعالم منظم من قبل الله تنظيما طبيعيا خاصا ، ليس فيه فطور ولا اختلاف ، (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) السماء مرفوعة على شكل عجيب ، افلاكها تدور طبقا لنظام مرسوم والى اجل معلوم ومكان معلوم ، وتسير البحار وحدها تتوالى مع بعضها ولا يبغي احدها على الاخر ، والاشجار والجبال والروابي كيف وضعت على الارض ، ويعيش الانسان في هذه الدنيا وهو منسجم نوعا ما مع الطبيعة يبحث فيها ويستفيد منها ، وقد ابان سبحانه في عدة آيات واحاديث لا نطيل سردها ، ان في الكون انتظاما لا يزول وتناسقا لا يتخلف ، وفي الوقت نفسه يبين الاسلام انه لا تتخذ على الله عادة ، اذ في استطاعته سبحانه ان يغير ما يشاء ويحول ما يريد ، وقد جرت ارادته ان لا تبديل لكلماته ، بذلك قضت حكمته ، والمعجزة حينما تقع توافق سنة كونية يعلمها هو وحده ، ليست خارقة للعادة بالنسبة اليه ولكنها خارقة للعادة بالنسبة الينا .

وتريد هذه النظرة الكونية من الناس ان يكونوا اخوانا وعلى الخير اعوانا منسجمين مع الكون ، لانهم جميعا صنع الله واخوان فيه ، هو الذي انشاهم واعطاهم الخلافة في الارض ، فينبغي ان يتخلقوا بالسلام صفة الباري عز وجل ، ويدعوا الى السلام ، لا السلام الدولي فقط ، بل كل انواع السلام ، سلام الضمير ، اي السلام

الباطني للفرد حينما يوحد الانسان الله ويومن بصفاته وبرسالاته ورسله ، يجد اطمئنانا لا تؤثر فيه دعوات التثليث والشرك ، ولا يثيره قلق الذين يعبدون الشجر او الحجر او البقر ، يومن بعقيدة سهلة فطرية يدركها العقل البشري وينسجم معها ، (لا اله الا الله محمد رسول الله) ليس هنالك الوهية لبشر ولا لحيوان او نبات او كوكب او ملك ، والرسول سبيل لنزول الوحي الينا ، بشر مثلنا يوحى اليه ، اذا انسجمت هذه العقيدة مع الضمير زالت الاوهام والخرافات ، واصبح المرء مومنا بما وراء الطبيعة كما جاء به الدين عارفا ان كل بحث او تفلسف في شانه عبث ، انه الغيب الذي لا يمكن ادراكه الا بالوحي ، ومن ثم سكت عنه المسلمون وانكبوا على ما في الشهادة يبحثونها ويجادلون فيها ، انها ميدان العلم الذي نحن مكلفون بدراسته وتبادل الراي فيه والجدل الطيب في مسائله ، ذلك ما يرجع للسلام الباطني سلام الضمير ، سبله الايمان ، وهديه الدين والعلم .

ثم ياتي سلام المعاملة مع بعضنا ، فقد طلب الاسلام منا ان يحب بعضنا بعضا وفي الحديث القدسي : طوبى للمتحابين من اجلي ، وفي الكتاب العزيز :(انما المومنون اخوة فاصلحوا بين اخويكم) فكان الصفة الوحيدة للمسلمين هي الاخوة ، ويطلب الشارع كل ما يؤدي الى الحب والى الآخاء ومنه تبادل التحية وعيادة المريض ومواساة المنكوب والدفاع عن المظلوم والصلح بين الاخوان ، فاذا بغت طائفة على اخرى وجب التضامن مع المعتدى عليه حتى يرجع المعتدي لامر الله قال تعالى : (فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا ان الله يحب المقسطين) وهذا الاجراء الذي كلفنا به القرآن يدل على وجود تضامن جماعي بيننا ، بحيث لا يمكن ان لا نهتم باقرار السلام بين الاخوان ولا يجوز لنا ان نترك الامر يتفاحش

حتى يؤدي الى تحاقد مستمر او حرب قاسية ، ولا شك ان العزم على الضرب على يد الظلم يستوجب من المسلمين قيام قوة دولية تستعملها سلطة عليا في سبيل اقرار القسط والقيام بالاصلاح بين المتخاصمين ، وهو نظام دولي ما تزال الانسانية تتعثر دون الوصول اليه ، ولو وصلوا اليه لما بقيت هذه الحروب الاهلية والدولية ، لان مجرد وجود قوة اكبر من القوات المحلية كاف في ردع من تحدثه نفسه بالبغي والاعتداء .

وبعد ذلك ياتي السلام العائلي وقد شرع له نظام الاسرة ، وجعل الزواج قائما على المودة والرحمة وعلى اعتبار المراة سكنا يسكن اليها الرجل وتطمئن بها نفسه كما تطمئن هي الى صدره ، وعلى الرجل ان يقوم بشؤونها واحترامها ، وكانت آخر وصاياه صلى الله عليه وسلم وهو محتضر فداه ابي وامي (النساء وما ملكت ايمانكم) وفرض الاسلام على الرجل والمراة ان يسلكا سلوكا حسنا مع بعضهما ومع اقاربهما وابنائهم وجعل الامر شورى بين الزوجين في كل ما يتعلق بالبيت ، وجعل رئاسة الاسرة للرجل بشرط ان لا يتحكم او يشتط في استعمال حقه ، لان الشطط في استعمال الحق ممنوع وقد قال عليه السلام " لا ضرر ولا ضرار " فاذا لم تطب العشرة فقد شرع الاسلام الطلاق دون ان يترك الاسرة تتلظى في جحيم الخصومة على ان ابغض الحلال الى الله الطلاق ، فهو ضرورة تقدر بقدرها ويحرم استعماله تعديا وظلما او لمجرد الشهوة ، واباح المراجعة اولا وثانيا فان وقعت الثالثة فقد ابيحت المراجعة بعد ان تنكح زوجا غيره وذلك دليل على رغبة الشارع في استمرار الزوجية ودوامها .

ومن وسائل السلام العائلي تربية الاولاد والقيام بغذائهم وكسائهم وتعليمهم والاهتمام بامورهم ، وعليهم البرور بالوالدين والاحسان اليهما (اما يبلغن عندك الكبر احدهما او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا) وفرض الاسلام حسن المعاملة للاخوة والانفاق عليهم ان لم يكن عندهم ما يسد حاجتهم ، بل اوجب ذلك على الاغنياء في حق الفقراء مطلقا .

تلك سبل السلام في الاسرة اختصرنا القول فيه ، والا ففيه مجال كبير.

وياتي بعد ذلك سلام المجتمع ، وهو في السلوك الحسن مع العموم ومجادلة المخالفين بالحسنى قال تعالى (ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن ، الا الذين ظلموا منهم) والوفاء بالعقود للجميع ، ثم في اقرار العدل الاجتماعي ، وإعطاء الحرية للناس ليعبروا عن آرائهم ، ويامروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، في استقامة وموعظة حسنة ، وسبيل السلام الاجتماعي مراقبة الباري عز وجل ، واعتقاد انه ينظر الينا والى اعمالنا ، وانه يريد منا ان نحب لغيرنا ما نحبه لانفسنا .

وبعد هذا نخلص للسلام في الحكم ، فحين شرع الشارع الخلافة ووضع الحكومة في الارض فقد اراد ان تكون مدعاة للامن ونفاذ حكم الله وتدبير مصالح المومنين الدينية والدنيوية ، واحسن تعبير عن صفة الحاكم المسلم قول النبي صلى الله عليه وسلم (سيد القوم خادمهم) فالحاكم ليس مخدوما بل هو الخادم للناس ، وقيمة امير المومنين ليس في القدرة على الاستبداد والظلم ولكن في اقرار

العدل وخدمة المواطنين ، والسهر على مصالحهم ، وهو واياهم في خدمة المجتمع واعطاء كل ذي حق حقه ، وكلنا راع وكلنا مسؤول عن رعيته كما في الحديث ، فالمسؤولية موزعة والحاكم الاعلى اعظم مسؤولية ، لانه مطالب بالحرص على ان يقوم كل بواجبه وامتاع كل واحد بحقه ونحن مسؤولون ايضا ، لاننا مطالبون بالحرص على ان يقوم الحاكم بواجبه ، ويؤدي مهمته .

واخيرا ياتي السلام الدولي ، وقد اشرنا اليه في البدء ، وقد عرفنا ان من مقاصد الاسلام العمل على نشر السلام في العالم والقضاء على الحروب ، وقد جاء الاسلام وفي الدنيا انواع من الحروب ، فحرم الحرب في سبيل المال ، وحرم الحرب لاسر الناس واستعبادهم ، وحرم الحرب لمجرد اظهار الشجاعة والاستعلاء ، وحرم الحرب لان تكون امة هي اربى من امة ، وهي الحرب التوسعية ، ولم يترك مباحا من الحروب الا حرب الدفاع حينما يهدد امن العقيدة ، اي اذا تجرا العدو على محاولة اكراه المسلمين على الكفر ومنع المسلمين من نشر دينهم وبث تعاليمه ، فحينئذ يجوز لهم ان يقاتلوا للذب عن حرية العقيدة قال تعالى :" اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله) وقال عز من قائل ، (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) وقال تعالى : (لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي)

ومع ذلك فان هذه الاباحة للحرب موقوتة وضرورة تقدر بقدرها فاذا ظهرت سانحة للسلام وجب علينا ان نقتنصها . ذلك قوله تعالى :

(وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله) ومن مقاصد الاسلام بذل السلام للعالم ، قال تعالى : (يا ايها الناس ادخلوا في السلم كافة ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان) انه لنداء رباني لجميع الناس ، علينا ان نتامله وندرك مغازيه ، اننا نحن المسلمين مكلفون بتبليغه للبشرية ودعوتها اليه ، وبذله لها ، فمن مهمتنا ان نعمل على ان يقبل العالم تحالفا دوليا بتحريم الحرب في جميع الحالات وبقيام نظام دولي يحول دون وقوع الحرب واندلاعها ، ويضمن القوت للجميع ، وحرية الشعوب في ان تحكم نفسها بنفسها في الوقت الذي تدخل في السلم كافة ، في وفاق تضامني يحميها من نفسها ومن من تحدثه نفسه بالاعتداء عليها .

ذلك معنى هذا الحديث الشريف الذي يبين ان افضل الاسلام اطعام الطعام وافشاء السلام على من عرفنا وعلى من لم نعرف ، وهما قضيتان اساسيتان ، السلم والقوت ، شعبتان يجب ان نسلكهما وندعو الدول الشقيقة والصديقة والعدوة اليهما ، ان فيهما نجاة العالم وامنه وازدهاره ، وفيهما بذور المحبة والاخاء ، ورحم الله عمارا فقد اضاف اليهما في روايته ، الانصاف من النفس ، لو انصف الفرد من نفسه والقاضي من نفسه والمجتمع من نفسه والحاكم الاعلى من نفسه لزالت الحروب وزال الجوع ، وحل الامن والرخاء في كل الدنيا .

هذه ايها المومنون ويا امير المومنين خلاصة ما يقتضيه المقام من الكلام عن هذا الحديث الشريف الذي يحمل الينا هذه الرسالة المحمدية الطاهرة لنقوم بادائها طول حياتنا ، رسالة اطعام الطعام وافشاء السلام ، رسالة الايمان والمحافظة على شعبه في الاسلام .

نسال الله سبحانه وتعالى ان يوفقنا ويصلح احوالنا وياخذ بيدنا لما فيه صلاح امتنا ووطننا وينصر ملكنا ويؤيده ويعينه على مواصلة هذه الرسالة التي حملها اسلافه الكرام وقاموا بما يجب لها والتي نرجو ان يقوم بها على الوجه المطلوب ان شاء الله لصالح المسلمين وصالح العالم .

كما نساله سبحانه وتعالى ان يمد برحمته ورضوانه جلالة الملك الراحل امير المومنين محمد الخامس رضي الله عنه ويجعلنا محافظين على عهده ثابتين في محبته ومحبة ذريته ويؤيد ملكنا وولي عهده وجميع ابنائه الكرام ويقر عينه بهم على الدوام والسلام عليكم ورحمة الله .

الدّرس السّادس

في شرح حديث

مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خيرًا يُفقّهه في الدِّين

2 رمضان 1388 موافق نونبر 1968

الدرس السادس في شرح حديث :

من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين [1]

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامين ، وعلى آله وصحبه اجمعين .

اما بعد فان اصدق الحديث كتاب الله . وخير الهدي هدي سيدنا محمدصلى الله عليه وسلم ، وشر الامور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار . وباسانيدنا المتصلة الى الشيخ الامام الحافظ الحجة الهمام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري الجعفي رحمه الله تعالى ورضي عنه ، من كتاب الغنائم ، في باب قول الله عز وجل : (فان لله خمسه وللرسول) يعني له قسم ذلك صلى الله عليه وسلم ، وقال صلى الله عليه وسلم انما انا خازن ، وقاسم ، والله سبحانه المعطي ، الى آخر الحديث الذي قراه القارىء .

هذا الحديث الشريف رواه الامام البخاري رضي الله عنه في اماكن من صحيحه بحسب ما استفاد منه في الابواب التي عقدها له ، فرواه اولا في كتاب العلم ، ورواه في كتاب المغانم ، ورواه كذلك في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، ورواه الامام مسلم كذلك في كتاب الزكاة ، وفي كتاب الفتنة ، ورواه جماعة من الائمة باسانيد مختلفة . وبالفاظ مختلفة .

---

(1) هذا الدرس القاه الزعيم الاستاذ علال الفاسي ضمن الدروس الحسنية الرمضانية بتاريخ الثاني من رمضان المعظم عام 1388هـ الموافق لـ 23نونبر 1968 م .

حق النبي صلى الله عليه وسلم في قسم الخمس لا في اخذه ، ولذلك قال : باب قوله سبحانه وتعالى (فان لله خمسه) وهذه الفقرة من الآية الكريمة هي من قوله سبحانه وتعالى : (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . وخلاصة ما ذهب عليه الامام البخاري رحمه الله هو ان النبي صلى الله عليه وسلم يختص بالخمس ولكن لا ياخذه لنفسه ، ولا ينفقه على اسرته من خمس الغنائم ، وانما ياخذه ليتولى قسمه بحسب المصلحة العامة ، هذا هو المذهب الذي مشى عليه البخاري وهو الذي روى له هذا الحديث المعلق في اول الباب وهو قوله صلى الله عليه وسلم : انما انا قاسم وخازن والله سبحانه المعطي ، والمسالة فيها خلاف بين الائمة ، وهي ترجع الى قضية قسم الغنائم .

ثم بعد ذلك نتحدث عن لفظ الحديث فمجموع المسائل التي سنتكلم عنها بمقتضى هذا الحديث اربعة ابواب :

اما الباب الاول فيرجع الى مسالة الغنائم لبيان التعليق الذي ذكره الامام البخاري في اول الباب .

واما ثانيا ففي شرح معنى قوله صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين .

واما الجزء الثالث فيرجع الى قوله صلى الله عليه وسلم انما انا قاسم والله المعطي .

والرابع في قوله : لا تزال امتي ظاهرين على من خالفهم حتى ياتي امر الله .

فاما الترجمة التي ترجم بها البخاري ، فقد بينا انه يقصد منها مسالة تقرير مذهبه الذي ذهب اليه وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم له الخمس ولكن لا يصح له ان ينفق شيئا منه على نفسه ، او على اسرته ، وانما ينفقه في سبيل الله بمعنى ان له الاختيار المطلق في توجيه النفقات التي ينفق ذلك الخمس فيها ، فمثلا يمكنه ان يتالف بها المؤلفة قلوبهم ، ويمكنه ان يصرف بها في القراع وفي السلاح ، ويمكنه ان يجهز بها جيشا مثلا ، ويمكنه ان يعطي بها الجوائز لاولئك الذين قال لهم صلى الله عليه وسلم قبل ان يدخلوا المعركة :" من قتل قتيلا فله سلبه " ويمكن كذلك ان يؤدي بها واجبات بعض الخدمات التي قام بها بعض الصحابة رضوان الله عليهم في اثناء القتال .

هذا هو المذهب الذي سار عليه الامام البخاري ، وهذا المذهب يتناول قول الله تعالى :(واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول) على ان ذكر الله سبحانه وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم انما هو على جهة الاستفتاح لان كل شيء هو لله سبحانه وتعالى .

ثم بعد ذلك يذكر رسول الله على انه هو الذي يتولى القسمة في الاشياء لانه هو في الواقع رئيس الدولة الاسلامية المكلف بقسم تلك الغنائم التي ينالها المقاتلون المسلمون وقد أعطي هو من الصلاحية في طريقة القسم ، وفي توجيه ذلك بما يتفق مع المصلحة العامة بما لا يحتاج معه الى استشارة ولا الى غيرها . ولذلك قال الله سبحانه

وتعالى : (واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه) هذا مذهب البخاري وفي المسالة خلاف .

فقدذهب جماعة من الفقهاء ان النبي صلى الله عليه وسلم يحق له ان ياخذ لنفسه وان ياخذ لقرابته ، وان يعطي سهم الله كذلك ، فعلى هذا يكون هنالك لله سهم ولرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم ، ولليتامى وللمساكين وابناء السبيل سهم ، والباقي من الاربعة الاخماس يكون للغزاة ، وهذا هو الذي رواه ابو العالية عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يوتى بالغنائم ، فكان صلى الله عليه وسلم يقسمها خمسة اخماس ، اربعة اخماس يوزعها على المقاتلين الذين شهدوا تلك المعركة ، والخمس يضرب فيه بيده صلى الله عليه وسلم فما علق بكفه منه فانه لله سبحانه وتعالى يصرفه في الكعبة في تطييبها وتزيينها وفي مصالحها ، ثم الخمس الباقي يصرفه في قضايا المسلمين ، وكذلك في نفقة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونفقة قرابته .

اما الا ربعة اخماس فانها تنفق على المسلمين الغزاة بالتساوي ، لا فرق بين فقيرهم وغنيهم لانهم جميعا ابلوا البلاء الحسن ، هذا هو المذهب الثاني .

واما المذهب الثالث فانه مذهب ابن عباس رضي الله عنه ، وانه لا فرق بين سهم الله وبين سهم رسوله صلى الله عليه وسلم في ان للنبي ان ياخذ من ذلك ولكن ينفق الباقي في المصلحة العامة للمسلمين ، وهذا هو الذي مشى عليه محمد بن الحسن ابن الحنيفة ، وهو الذي مشى عليه الحسن البصري ، وهو الذي مشى عليه عطاء ابن ابي رباح ، وقتادة وجمع من الائمة الكرام رضوان الله عليهم .

وذهب جماعة الى ان القسمة يجب ان تكون سداسية ، طرف لله وطرف للنبي صلى الله عليه وسلم ، والباقي يصرف على الغزاة ، ويصرف منها كذلك على الفقراء واليتامى والمساكين وابناء السبيل .

وذهب جماعة آخرون الى ان لا فرق بين سهم الله وسهم رسوله صلى الله عليه وسلم وان الجميع يرد الى بيت المال وان النبي صلى الله عليه وسلم انما ينفق ذلك بحسب المعروف ، وان الائمة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يمضون على ما مضى عليه صلى الله عليه وسلم فينفقون ذلك بالمعروف ، ويعطون بحسب المصلحة لقرابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء القرابة في نظرهم هم بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، واختلف فقهاؤنا المالكية هل ان القرابة هي بنو هاشم وبنو المطلب او هاشم فقط ، اما بنو عبد شمس وبنو عبد مناف فانهم اسقطوا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقد جاؤوا الى الرسول عليه الصلاة والسلام فطلبوا منه ان يلحقهم فقال لا وانما بنو عبد المطلب هم شيء واحد مع بني هاشم ، في الجاهلية والاسلام ولم يفترقوا قط ، فيكون صلى الله عليه وسلم ينفق من هذه الغنائم على قرابته صلى الله عليه وسلم من بني هاشم وبني المطلب ، وبعد ذلك ينفق ائمة المسلمين على بني هاشم وعبد المطلب ، او على بني هاشم فقط .

وبحسب هذين المذهبين اختلفت نسخنا الشيخ خليل رحمه الله تعالى حيث ان في بعض النسخ : بني هاشم لا المطلب ، وفي بعض النسخ بنو هاشم والمطلب ، وهل سهم القرابة للرسول صلى الله عليه وسلم لا يزال باقيا ام لا ؟ اختلف في ذلك الائمة ومذهب الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ان سهم القرابة قد انقطع بموت النبي

صلى الله عليه وسلم وحينئذ فلا يبقى هنالك محل للاختلاف في مسالة بني هاشم وبني عبد المطلب وان كان الجميع متفقا على ان آل البيت الذين هم بنو هاشم وبنو المطلب لا يصح لهم ان ياخذوا من الزكوات ولو كانوا من مستحقيها ، وقد عوض لهم ذلك في نظر هؤلاء الفقهاء بما يعطونه من مال الغنائم من خمس النبي صلى الله عليه وسلم ، هذا هو خلاصة ما تكلم عليه الفقهاء في هذه المسالة وقد نظر العلامة المصلح الشيخ جمال الدين الافغاني نظرة اخرى في مسالة القرابة وفهمها انه اذا كانت هذه القرابة في عهده صلى الله عليه وسلم فينبغي ان تؤول على ان هذه القرابة يقصد بها قرابة المقاتلين ، وقال الامام جمال الدين الافغاني رضي الله عنه ان هذا الفهم هو الذي يبين لنا ان هذه الغنائم وقسمتها كانت هي الطريقة التوجيهية الاولى لاشراك جميع المسلمين في موارد الثروة المالية للدولة الاسلامية ، لانه اذا كان في ذلك الوقت يتكلمون عن الغنائم فربما كانت في ذلك الوقت هي المصدر الوحيد الذي يرد للدولة من تلك الغزوات التي كان يقوم بها صلى الله عليه وسلم واصحابه ، فلما اكتسب المسلمون بتلك الغنائم اموالا ، تقرر بالدين وبالشريعة وبالقرآن كيفية القسم الذي ينبغي ان توزع به هذه الثروة الطارئة على المسلمين قال جمال الدين : فهذه الثروة الطارئة توزع بطريقة العطاء التي اعطيت بدون شك لرئيس الدولة وللموظفين وللقواد ولغيرهم ، ويعطى كذلك لجميع الذين قاتلوا و طبعا هذا هو الجيش ثم ينفق من ذلك على اليتامى والمقصود باليتامى والقرابة هنا قرابة المقاتلين ويتاماهم ، لانه لا يعقل ان يذهب المقاتلون الى المعركة وتبقى قرابتهم من غير ان ياخذوا شيئا ينفقونه على انفسهم لانهم فقدوا عائلهم فلابد لهم من ان تقوم الدولة بالنفقة عليهم ، وكذلك ما يرجع لمسالة اليتامى هم يتامى الحرب المذكورون في هذه الآية وبعد ما تسد حاجات هذه الاشياء تعمم النفقات بعد ذلك على عموم

اليتامى وعلى المساكين وعلى ابن السبيل ، فحينئذ تكون الدولة متحملة للنفقات على جميع الذين يشتغلون معها ولحسابها ، وكذلك على اولئك الذين اقعدهم الفقر وقلة ذات اليد وعدم المقدرة وعدم التجهيز على الكفاح معها بحيث لا يبقى هنالك ضعيف ولا مسكين الا وينال من هذه النفقات العامة .. ويظهر ان هذا الوجه الذي بينه السيد جمال الدين الافغاني يجمع بين اقوال المذاهب كلها ، ويبين لنا ان المقصود باعطاء ذوي القربى ليس لقرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم فقط ، ولكن لكونهم قرابة رسول الله الذي هو في الوقت نفسه القائد الأعلى للجيش ورئيس الدولة الاسلامية ، فهم ياخذون بهذه الصفة لانه هو الذي ينفق عليهم ، وهو عائلهم صلى الله عليه وسلم ، اما اذا كانوا فقراء او مساكين فانهم ياخذون كذلك اسهمهم من بيت المال ولكنهم لا ياخذون الزكاة ، وهذا تكريم لهم ، لان النبي صلى الله عليه وسلم منع نفسه ، بما انه هو الذي سيتولى قسمة الزكاة فقد تنزه صلى الله عليه وسلم هو واسرته الكريمة عن ان ياخذوا الزكوات وقد كان في بيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في صحن المسجد صبرة من تمر فجاء حفيداه سيدنا الحسن ، وسيدنا الحسين رضي الله عنهما ، وارادا ان ياخذا تمرة من تلك الصبرة فقال لهما كخ كخ ، يعني لا تاخذا فانها لا تصلح لكما ، وقال انما هي اوساخ الناس فهذا من باب التنزه الذي تنزه به سيدنا صلى الله عليه وسلم وذريته عن ان ياكلوا من هذه الصدقات التي هي في الحقيقة خاصة بالضعفاء والمساكين ولها مصروفات خاصة مذكورة في كتاب الله .

والمقصود من كل هذا هو ان الغنائم قد تولى سبحانه وتعالى قسمها بنفسه وسنبين ذلك في شرح الحديث الشريف بعد هذا ، وانما هذه تقدمة نبين بها الخلافات الواقعة بين الائمة ومذهبنا

نحن المالكية هو الذي قاله عبد الملك بن الماجشون ان الله سبحانه وتعالى آسى أي ساوى بين الاغنياء والفقراء في مسالة الغنائم وفي الفيء لذلك كل ما يرد على بيت مال المسلمين من الموارد الشرعية التي هي الغنائم والتي هي ايضا الفيء والتي هي ايضا الجزية التي ياخذها المسلمون من اهل الذمة ، والاشياء التي يصالح عليها الاجانب مثلا ، وكذلك المداخيل التي تاتي من التجار الحربيين الذين يفدون الى بلاد الاسلام للتجارة فيها فانهم كذلك يدخل مالهم الى بيت المال ويوزع كذلك هذا التوزيع الذي توزع به الغنائم وكذلك ما يؤخذ من مواريث المشركين الذين لا وارث لهم ، وكذلك ما يؤخذ من بعض الجمارك التي يعطيها اهل الذمة الذين يتجرون بين بلدان المسلمين ، الى غير ذلك من هذه المداخيل المختلفة التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، ويقاس عليها غيرها من المداخيل الاخرى فما اخذ من ذلك فانه ينفق اولا على ارزاق ولي الامر اولا ، ثم على ارزاق القضاة ، وارزاق الموظفين ، وارزاق الذين تحتاج اليهم الدولة كلها ، وتبنى بذلك قناطرهم هكذا يقول عبد الملك بن الماجشون ، وتبنى بذلك مساجدهم ، ثم بعد ذلك يوزع الباقي على اليتامى والمساكين وابناء السبيل بحيث تقوم الدولة بمسالة الضمان الجماعي فيما يرجع لعموم طبقات الامة .

واذا قلنا الغنيمة فان الغنيمة في اللغة هي كل ما يغنمه الانسان ويكسبه واما في الاصطلاح فهي المال الذي يناله المسلمون بمشقة ، يعني هو المال الذي يوجف عليه المسلمون بالخيل والركاب ، هذا هو الذي يسمى غنيمة ، واما ما ياخذه المسلمون عن طريق الصلح فهذا يسمى فيئا ، وله احكامه الخاصة ، وهي التي اشار الله سبحانه وتعالى لها في كتابه الكريم حيث قال الله : (ماافاء الله على رسوله من اهل القرى فلله ولرسوله ولذي القربى واليتامى

والمساكين وابن السبيل ، كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم ، وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب) هذه الآية الكريمة تبين لنا كذلك طريقة قسمة الفيء في القرآن ما افاء الله على رسوله من اهل القرى اي ما فتح الله على رسوله من القرى من غير ان يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، فانها كذلك لله ولرسوله ولذي القربى ولليتامى والمساكين وابن السبيل وهكذا ينفق هذا القدر كله كما تنفق الغنائم السابقة ، الا الزكاة ، فان لها مصروفاتها الخاصة التي يشير اليها قوله سبحانه وتعالى : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله) فهذه التنظيمات المالية التي جاءت في القرآن لموارد الدولة ، ولنفقاتها ، على هاته الصفات التي ذكرناها وقد قال سبحانه وتعالى في ختام آية الفيء (كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم) علِل ذلك التقسيم وهذا التوزيع الذي تنفق به الاموال حتى لا يكون دولة يعني يتداوله الاغنياء فقط ، لان المال اذا بقي يتكدس في ايدي جماعة خاصة فانه لا يتصرف فيه الا الاغنياء ،ولا يصل الى افراد الامة ،ولا الى الفقراء ، فلذلك قال الله تعالى : (كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم) .

ولهذه الآية قصة ينبغي ان نرويها هنا ، وهي ان الصحابة المهاجرين رضوان الله عليهم ، حينما هاجروا مع النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة ، جاء منهم جماعة كانوا فقراء ، وليس عندهم ما يحملونه معهم ، وكان معهم جماعة من الاغنياء ولكنهم سمحوا في اموالهم وخرجوا عنها كابي بكر رضي الله عنه وكسيدنا عثمان رضي الله عنه وكسيدنا عبد الرحمن بن عوف الذين كانوا من اغنى القرشيين هؤلاء سمحوا في ديارهم واموالهم وهاجروا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، فلما

وصلوا المدينة المنورة وجدوا الانصار فآووهم ونصروهم (والذين تبؤوا الدار والايمان يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويوثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) فكانوا يوثرون الصحابة المهاجرين رضي الله عنهم على الجميع وكانوا يشركونهم في اموالهم ، وحتى ارادوا ان يشركوهم بان يتنازلوا لهم عن بعض نسائهم ولكن المهاجرين رضوان الله عليهم امتنعوا عن ذلك ، وكثير منهم اخذ قليلا من المال واخذ يتجر ، وكان الانصار هم اصحاب فلاحة ونخيل ولكن المهاجرين الذين جاؤوا من مكة كانوا اصحاب تجارة وقوافل كما هو معلوم ، فبقي صلى الله عليه وسلم ينظر الى هذه الحياة ويرى ان المجتمع الاسلامي من المدينة المنورة وان كان يقوم على الايثار الذي يوثر به الانصار المهاجرين فان فيه نوعا من عدم التوازن ، هنالك طبقة من الاغنياء الانصار وهنالك طبقة من المهاجرين عالة على اولائك الاغنياء من الانصار ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم بحاجة الى ان يطلب من الانصار ان يعطوا شيئا لانهم قد ادوا كل ما يراد منهم كما شهد بذلك القرآن ، فانتظر صلى الله عليه وسلم حتى كانت موقعة بني النضير فاستولى النبي صلى الله عليه وسلم على قريتهم من غير ان يوجف عليها بخيل ولا ركاب ، وانما اخذت صلحا فاخذ تلك القرية بما فيها من وسائل الثروة كلها وقدمها هدية للمهاجرين وحدهم دون الانصار واعطى لاثنين من الانصار كانا يشتركان في الحالة التي كان عليها المهاجرون اثنان من الانصار كانا فقيرين هما اللذان اخذا مع المهاجرين وقد قبل المسلمون ذلك وقال النبي صلى الله عليه وسلم للانصار : اتحبون ان يذهبوا بالشاء والبعير وتذهبون بمحمد صلى الله عليه وسلم فرضوا بذلك وقبلوا ففي هذا التصرف الذي تصرف فيه النبي صلى الله عليه وسلم وفي هذا التفسير والتعليل الذي بينه القرآن في قوله كي لا يكون دولة

بين الاغنياء منكم ما يوجه المسلمين الى انه اذا لم يكن هناك توازن مستمر في المالية وكانت هنالك طبقة تتمتع بثروة ضخمة عظيمة . وطبقة فقيرة فان الموارد الآتية يقدم فيها لا اقول تؤخذ اموال الاغنياء كلها ولكن ما يرد على الدولة من المال فانه يقدم فيه الضعفاء والمساكين ، حتى يصبح هناك نوع من التوازن بين هذه الطائفة وتلك ، ويكون هنالك تقارب بين الطبقات ، ولا تستفحش الطبقة الغنية على الطبقة الفقيرة كما قال الله تعالى : (كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم) يعني حتى لا يبقى المال متداولا في يد الاغنياء وهذا هو الذي يقع اليوم بسبب الراسمالية الربوية البنكية حيث ان الاموال تتكدس في يد طائفة قليلة في العالم كله ومنها تنتقل الى يدفيد ، والا فمجموع الشعوب انما هي جماعات تشتغل في الحقيقة لهذه الطبقة فقط .

هذا ما يقتضيه بيان الآيات الكريمة في قوله :(ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه) يعني ما اعطاكم من مال فخذوه (ومانهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولائك هم الصادقون) يعني هذا المال سيعطى للفقراء المهاجرين الذين سمحوا في ديارهم وفي اموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا فهذا هو مقتضى هذا الحديث الذي ذكره الامام البخاري تعليقا في الباب ، والصحيح انه ليس بتعليق وانما هو ترجمة لانه فسر الآية بقوله : يعني له قسم ذلك اي لرسول الله صلى الله عليه وسلم قسم ذلك قال وبه اليه قال : حدثنا حبان ، هذا حبان المروزي قال اخبرنا عبد الله ، هذا سيدنا

عبد الله بن المبارك وهو امام من ائمة المسلمين وفيلسوف من فلاسفتهم ومحدث عظيم من محدثيهم وشاعر كبير من شعرائهم وقد ترجم له الكثيرون وهو من الرجال القلائل المفكرين الذين جمعوا بين العلم الديني ، والحديث ، والفكر والنظر حتى عد في عداد الفلاسفة المسلمين باكرا ، عن يونس ، ابن يزيد الايلي ، وعبد الله بن المبارك مروزي ، عن الزهري ، هو ابن شهاب محمد بن شهاب الزهري الحافظ المشهور عن حميد بن عبد الرحمن حميد هذا نجل سيدنا عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه انه سمع معاوية يقول : هو معاوية بن صخر يوجد في الصحابة عشرون رجلا يسمى باسم معاوية ولكن ليس فيهم احد اتفق اسمه واسم ابيه مع معاوية ابن ابي سفيان فهو معاوية بن صخر وحده وقد اسلم عام الفتح وتوفى عا م ستين من الهجرة وعاش ثمانية وسبعين سنة واصيب في آخر عمره بلقوة ، وروى من الاحاديث مائة وثمانية وستين حديثا روى منها الامام البخاري ثمانية ، وروى منها الامام مسلم خمسة ، واتفق البخاري ومسلم في رواية اربعة من احاديثه رضي الله عنه وترجمة سيدنا معاوية معروفة ، وقضيته مع سيدنا على واختلافهم في مسالة الخلافة شيء معروف والصواب هو الامساك عما شجر بين الصحابة رضوان الله عليهم ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " مَن هذه ، صلة يعني الذي يريد به الله خيرا ، ولكنها تدل على معنى الشرط من يرد ، ولذلك جزمت الفعل الذي بعدها ويفقهه في الدين كذلك مجزوم لانه في مكان جواب الشرط وجزائه ، من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين والارادة عند المتكلمين هي صفة مخصصة لأحد المقدورين بالوقوع هذا هو التعريف الصحيح عند جماهير المتكلمين صفة إلاهية مخصصة لاحد المقدورين لاحد الشيئين الذين يقدرهما الله تبارك وتعالى بالوقوع وبالتحقيق فهنا المقدوران هما التفقه وعدم

التفقه ، من يرد الله به الخير يفقهه في الدين ، اي يرجح جانب احد المقدورين على الآخر وهنالك من فسر الارادة بانها هي اعتقاد النفع والضر ، وهنالك من فسرها بانها الميل الى الاعتقاد ولكن تفسير الارادة الالهية بالميل الى الاعتقاد لايصح لان الميل لايصح في الاله القدير من يرد الله به خيرا والخير نكرة في جواب الشرط هنا تعتبر عامة فتعم كل الخيرات فكانه قال من يرد الله به الخيرات وخير هنا ليس افعل تفضيل ولكنه مجرد اسم من يرد الله به خيرا يفقهه في "دين ، والخير هنا يقصد به كل اعمال الخيرات ، ويقصد به المصير النهائي الذي هو الدخول الى الجنة لاننا سنتكلم بعد هذا عما يقابل عدم المتفقهين في الدين بان مصيرهم هو النار كما قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم من يرد الله به خيرا يفقهه : يعني يجعله فقيها ، الفقه في اللغة هو الفهم ، وليس هو العلم لانه اعم من العلم ، والعلم اخص ، لان العلم باشياء معينة ، وأما الفقه فهو العلم مع الفهم ، فلذلك يفقهه هذا الفقه بمعنى يقال فقه الرجل فهو فقيه من جماعة الفقهاء او هو فقه بدون ياء من جماعة فقهاء ويقال فقه الرجل ككرم اذا صار فقيها يعني اذا تخرج في ميدان الفقه ، واما في ميدان اللغة فانه يقال كل من فقه شيئا فهو فقيه ، من تعلم صناعة فهو فقيه في صناعته ، ثم اطلقت بعد ذلك في الاصطلاح على العلم بانواع الاحكام الشرعية المستنبطة من الادلة التفصيلية ، وعن هذا الاطلاق الذي استعمل في هذا الموضوع ، يقول الامام الغزالي انه انتقال من الاطلاق الذي كان في عهد السلف الى اصطلاح متاخر ، وقد اختلف جماعة من الفقهاء هل ان الفقه اطلق في الصدر الاول بمعنى الفقه الذي نسميه الآن بمعنى القانون او انه اطلق فقط على قراءة القرآن وعلى كل ما يوصل الى الباري سبحانه وتعالى ولكن الذي يظهر ان اطلاق الفقه لم يكن خاصا بهذه الابواب المعروفة الآن في كتب القانون المتعلقة باحكام الاسرة

والمتعلقة بانواع البيوع والمعاملات ، وغير ذلك من الاحكام لانه كان يشمل العبادات وكان يشمل كذلك التوحيد ، وغير ذلك ، ولكنه كان اطلاقا عاما يشمل كل ذلك ايضا ، والدليل على ذلك ان الله سبحانه وتعالى قال : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) فالمقصود من التفقه في الدين هو ان يعرفوا احكام الدين ومواعظه ، ويرجعوا الى قومهم لينذروهم لعل قومهم يحذرون ذلك ، ومن جملة الانذار الذي سيحمله هؤلاء المتفقهون ما يقوله الله : (يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) فهذا في الحقيقة من المواعظ التي سينقلها هؤلاء المتفقهون في الدين كما في الآية الكريمة فلذلك الفقه يطلق في الاصل على الفهم ويطلق على الاحكام الشرعية وعلى المواعظ ، مواعظ القلوب وعلى كل ما يشمله التصوف والعقائد ولكنه انتقل بعد ذلك في العصور المتاخرة الى التخصص باحكام الفقه المعروفة ، التي يتدارسها الناس في الكتب وهي كتب القوانين الفقهية مثلا .

هذا ما قاله الغزالي وما قاله معه جماعة من الفقهاء ونحن اذا راينا الصدر الاول فاننا نجد احاديث كثيرة وآيات كريمة تحث على الفقه وعلى التفقه في الدين ، من جملتها من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسلمين : تفقهوا قبل ان تسُودوا او قبل ان تسَوّدوا أي قبل ان تتزوجوا لان الزوج هو سيد كما في الآية الكريمة في سورة سيدنا يوسف ، :" والفيا سيدها لدى الباب " يعني زوجها ، فلذلك قبل ان تسودوا يعني قبل ان تتزوجوا فتشتغلوا بزوجاتكم واسرتكم ولا يبقى لكم مجال لطلب العلم ولطلب الفقه واما ان يقال ان تسودوا يعني قبل ان تنالوا السؤدد والمكان الرفيع في وظائفكم او في

اشغالكم العامة فتصيرون محترمين في الوسط فلا تقدرون على الطلب ، ولذلك زاد ابو عبد الله البخاري بعد رواية كلام سيدنا عمر ، قال ابو عبد الله : وبعد ان تسودوا وقد طلب الصحابة الفقه بعد ان كانوا كبارا ، الترجمة في احدى تراجم البخاري قال هذا يعني ان الصحابة رضوان الله عليهم ما طلبوا العلم صغارا ولكن طلبوه كبارا ولذلك ينبغي لنا ان نطلب العلم قبل ان نسود وبعد ان نسود بحسب ارشاد الامام البخاري رضي الله عنه .

ومن جملة الاحاديث التي تحثنا على تعلم الفقه هو الحديث الذي رواه سيدنا عبد الله بن مسعود : افضل الناس افضلهم عملا اذا فقهوا ، اي اذا صاروا فقهاء ، وسيدنا علي كرم الله وجهه يروي لنا حديثا مهما وهو ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الا ادلكم على الفقيه كل الفقيه قالوا بلى يارسول الله ، قال من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤيس الناس من روح الله ، ولم يؤمن الناس من مكر الله ، ولا يدع القرآن رغبة عنه الى ما سواه ، الا لا خير في عبادة من غير فقه ، ولا في علم من غير تفهم ولا في قراءة من غير تدبر هذا هو الحديث الشريف الذي رواه سيدنا علي كرم الله وجهه عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال الا اخبركم بالفقيه كل الفقيه قلنا بلى يا رسول الله قال من لم يقنط الناس من رحمة الله : يقنط الناس يجعلهم قانطين من رحمة الله بحيث لا ينكر لهم الا الشدائد ، والا المصائب ، لا يعتبر الرحمة والمغفرة وانما يعتبر العقاب الشديد ، ولم يؤيس الناس من روح الله ، لانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ولم يؤمن من مكر الله ، لانه لا يأمن من مكر الله ، الا القوم الخاسرون ، في الحديث القدسي ، لا تامن مكري وان آمنتك ، لان الانسان ينبغي ان يبقى بين الخوف والرجاء ، كما سبق لنا ان بينا هذا في احد الدروس بمحضر سيدنا نصره الله

فهذا الحديث يبين لنا ان الفقيه الحقيقي ليس هو الذي يعرف المسائل الفقهية فقط ، ولكن الذي عنده حاسة ومقدرة ، واسلوب في السلوك ، ومعرفة بحسن التربية ، وحسن المعاملة مع الناس ، بحيث اذا سئل عن شيء يجيب بصفة تجعل الناس يقبلون ذلك الحكم ، يحدث الناس على قدر ما يفهمون ، اتحبون ان يكذب الله ورسوله ؟ كما في الحديث الشريف فهذا الحديث في الحقيقة يقول : مَن لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤيسهم من روح الله ولم يؤمنهم في الوقت نفسه من مكر اله ولكن تارة وتارة ولا يدع القرآن رغبة عنه الى ما سواء :

يقول المنذر بن سعيد البلوطي العالم البربري المغربي .

عذيري من قوم اذا جئت طالبا دليلا اجابوا هكذا قال مالك
فان قلت قال الله جدوا واكثروا وقالوا جميعا انت قرم مُماحِك
فإن زدت قالوا قال سحنون مثله وقد كان لا تخفى عليه المدارك

فالمهم انهم لا يقبلون النصوص القرآنية والاحاديث النبوية ويكتفون باقوال الناس ، ومع الاحترام الكامل لجميع الائمة رضوان الله عليهم ولجميع الفقهاء الذين لهم الفضل في تفهم الكتاب والسنة ، ينبغي لنا ان لا نقتصر على ذلك بل ينبغي ان نرجع الى كتاب الله وسنة رسول الله ، ودراستهما الدراسة الكافية .

فيستفاد من مجموع هذا ان مما يطلب من المسلمين ان يتفقهوا في الدين ، والدين المقصود به الاسلام .. لان الله تعالى يقول :(ان الدين عند الله الاسلام) والفقه في الدين واجب على جميع المكلفين ، لان كل واحد من المسلمين يجب عليه ان يعرف احكام التوحيد واحكام العبادات وبعض الاحكام التي يتوقف عليها في شؤون الزوجية

وغير ذلك ، وكل واحد يريد ان يقوم بعمل من الاعمال الا ويجب عليه ان يتعلم الفقه فيما يرجع لتلك المسائل التي سيقوم بها ، لان الاجماع من المسلمين على انه لا يجوز لامرىء مسلم ان يقدم على امر حتى يعلم حكم الله فيه .

هذا ما يرجع للفقه بهذا المعنى ولكن لكي نفهم الآية الكريمة على وجهها ينبغي لنا ان نرجع الى القرآن ، فالقرآن يقول في آية اخرى (ولقد درانا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها اولئك كالانعام بل هم اضل) فهذه الآية الكريمة تبين لنا ماهو الخير المذكور في قوله صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ، قال تعالى : (ولقد درانا يعني ولقد خلقنا وبثثنا لجهنم كثيرا من الجن والانس كما خلقنا وبثثنا كذلك للجنة كثيرا من المخلوقات (ولقد درانا لجهنم كثيرا من الجن والانس) لماذا ؟ لهم قلوب لا يفقهون بها . القلب في اللغة اذا اطلق اريد به الجسم فمن المعروف انه هو تلك المضغة الصنوبرية الموجودة في الجانب الايسر من جسد الانسان واذا اطلقت في اللغة واريد بها النفس الانسانية فانها يراد بها الادراك الذي يكون عند الانسان ويراد بها الى جانب الادراك كذلك؛ التفهم واثر ذلك في سلوك الانسان وفي وجدانه الاخلاقي والعقلي فتطلق على العقل وتطلق كذلك على الوجدان وهو ما يسمى في هذا العصر بالضمير ، ويماثلها في اللغةاللب ، اللب : هو كذلك العقل ، ويماثلها النهية ، وجمعها نهى (ان في ذلك لآيات لاولى النهى) اي لاصحاب العقول الذين يتفهمون الاشياء على وجهها ولنتدبر قول الله سبحانه (لهم قلوب لا يفقهون بها) فلم يقل ليس لهم قلوب يفقهون بها ولكن قال لهم قلوب لا يفقهون بها ، لانه لو قال ليس لهم قلوب ما كانت عندهم كلفة ولا

مسؤولية لانهم لم يخلقوا من غير قلب ولكن هؤلاء لهم قلوب ومع ذلك لا يفقهون بها ، بمثابة اولئك الذين لهم عيون ولا يبصرون بها ، ولهم آذان ولا يسمعون بها ، واذا رجعنا الى القرآن نجد ان مادة الفقه قد ذكرت في عشرين محلا من القرآن تسعة عشر منها تدل على دقة الفهم ، كما قال قوم نوح لنوح (ما نفقه كثيرا مما تقول) وهو كلمهم بلغتهم التي كانت معروفة في ذلك الوقت وهم يعرفون اللغة ، ومع ذلك قالوا له : (ما نفقه كثيرا مما تقول) لانه ليست عندهم دقة الفهم ، وليست عندهم القابلية التي يتقبلون بها تلك المعلومات ، وتلك الارشادات التي يعطيها لهم نبيهم عليه السلام ، وقد لبث فيهم زمنا طويلا دون ان يحصل منهم على نتيجة فلذلك قالوا (ما نفقه كثيرا مما تقول) فالفقه حينئذ ليس هو مجرد معرفة القواعد الفقهية والاحكام ، ولكن التذوق لهذه الاشياء ، وتكوّن الحاسة الموجودة عند الانسان التي يدرك بها الفرقان بين الحق والباطل ، لان الله تعالى اذا اتقاه الانسان يجعل له فرقانا ، الصواب في تفسير الفرقان انه الفارق بين الحق والباطل يعني يعطي الله المومنين المتقين حاسة يدركون بها الحق من الباطل ، وهذا ما ينسجم مع مجموع المذكور في هذا الحديث ، وما يجيب عن المشكلات التي اوردها الشراح هنا ولم يستطيعوا لها حلا جميع الشراح ، العيني ، وابن حجر ، وغيرهما لم يستطيعوا حلا لكون هذا الحديث يشتمل على ثلاث فقرات ، كل فقرة منها في ناحية ، فما وجه الاتصال بينها ، لان مسالة الفقه هي في ميدان العلم ، ولكن الحقيقة أ ن الفقه لم يذكر هنا للحث على تعلم الفقه وانما ذكر ليبان فقه القلوب بدليل الآية الكريمة ، (لهم قلوب لا يفقهون بها) فالقلب يطلق في اللغة بمعنى العقل كما في الآية الكريمة (او لم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها : (يفقهون بها) او آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار (ولكن تعمى القلوب التي في

الصدور) فهنا القلب بمعنى العقل والقلب يكون في القرآن وفي الاطلاقات اللغوية بمعنى الوجدان او الضمير (اذا ذكر الله إشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) الاشمئزاز: اضطراب يقع في ضميرهم (قلوب يومئذ واجفة) فهذه الآية الموجودة في هذا المعنى التي تدل على ان القلب يضطرب ويشمئز ويقع فيه وجف هي بمعنى الاضطراب وبمعنى الوجدان ، والسبب في الاطلاق اللغوي للقلب على هذه المعاني ، هو ان الانسان حينما يشمئز ، وحينما يضطرب ، يضيق صدره وحينما يتقبل الاشياء بضميره ووجدانه فانه حينئذ يحصل له انشراح في الصدر ، هذا هو السبب الذي استعمل العرب كلمة القلب في هذا المعنى ، والا فان المعاني اللغوية ليس من الضروري ان تتوافق مع القواعد العلمية ولكن هذا الاطلاق الذي استعمل في القلب على العقل وعلى الضمير ، يتفق مع ما اكتشف الآن من ان التفكير الانساني ليس هو عقلا ، ولا قلبا ، ولكنه شيء خارج عن هذه المواد كلها ، فلذلك الآية الكريمة تنسجم مع آخر ما عرف في هذا المعنى خصوصا بعد زرع القلوب تبين ان القلب يمكن ان يتجدد وليس هو الذي يؤثر في الحياة ، ويتحدثون عن امكان زرع المخ كذلك ومن هنا نعرف ان الحياة هي من امر الله ، وان الروح من امر الله سبحانه وتعالى . فالقلب اطلقه العرب على هذه اللطيفة التي لا يمكننا ان ندركها (قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا) لانه يمكن ان تتركب في جسم الانسان آلات ومواد مختلفة ويعيش الانسان كما تبين ذلك بطريق العلم ، وكما يتنبأ به العلماء في المستقبل ، ولكن مع ذلك يموت الانسان بحالة لا يعرفها احد ، ولا يمكنه ان يعرفها ، لان الموت والحياة مكتوبان لابد منهما قد يطول عيش الانسان ولكن الموت لابد منها ، لابد من ان يصل اليهاكل انسان ، ولذلك فالفقه هنا يطلق بمعنى الدقة في الفهم .

فاذا رجعنا للآيات التي سردناها نفهم ان الله سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين مبينا لهم احوال الامم السابقة ، والمشركين والكفار ، ولماذا هم كفار ، ولماذا لا يومنون ، ولماذا حالتهم سيئة ، وحالة المسلمين في ارتفاع ، يبين لهم ذلك ، بان لهم قلوبا لا يفقهون بها ، وعيونا لا يبصرون بها ، وآذانا لا يسمعون بها فهم بمثابة الانعام ، بل اضل من الانعام ، والانعام لا يستعملون عقولهم الا في بعض المسائل البسيطة التي يتوقفون عليها في الاكل والشرب ، فكذلك هؤلاء الذين لا يومنون بالله حق الايمان ، ليس لهم قلوب يفقهون بها معنى الايمان ، ومعنى التوحيد لله سبحانه ، وما هي الحرية التي ينالها الانسان حينما يوحد الله عزّ وجلّ ويعبده لا شريك له ، ولا يعبد شجرا ولا حجرا ويتعلق به وحده ، ولا يتعلق باحد ، لا من الجن ولا من الانس ، ولا نبي ولامَلَك مقرب ، ولا ولي من الاولياء ، وانما يتعلق بالباري ، ولا يستعمل الخرافات من تمائم ورقى وغير ذلك من تلك الخزعبلات التي هي من انواع الشرك والضلال ، التي ورثناها عن الجاهلية الاولى هؤلاء الناس الذين عندهم الفقه يعني فقاهة في الدين ، ودقة في الفهم ، لا يمكنهم الا ان يوحدوا الله وحده لا شريك له ، ويعبدوه عبادة صادقة بكل معنى الكلمة ، فهذه العبادة التي بهذه الصفة ،تحتاج الى دقة الفهم ، وليس لهم قلوب يفقهون بها ، حتى يعرفوا لذة العبادة ، ولذة الصلاة ، ولذة الصيام ، ولذة الزكاة ، ولذة الحج ، فهم يعتبرون شهواتهم ويقدمونها على غيرها ، وليس لهم قلوب يفقهون بها حتى يعرفوا ان دراسة العلم ، وتناول الاشياء ، واتباع الانظمة الصحيحة ، والسير على منوال متين ، كما بينه الله سبحانه وتعالى لرسوله في القرآن وفي السنة النبوية ، والتنظيم ، والاستعداد في وقت الحاجة الى الحرب ، واستعداد الامة ، وتكوين الصنائع المهمة ، وغير ذلك من الحاجات التي يتوقف عليها الانسان ، لان هذه كلها عبادة من

العبادات الكفائية ، وهؤلاء الذين هم كفار في قلوبهم ، جاحدون لا يفقهون لهم قلوب لا يفقهون بها هذه الاشياء وهم يتجولون في الارض ويرون الامم كيف تقدمت ، وكيف ارتقت ، ويرون المسلمين في ذلك الوقت ، ولهذا قال سبحانه في بعض الآيات (لانتم اشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بانهم قوم لا يفقهون) لانتم ايها السملمون اشد رهبة وخوفا في نفوس الكفار من الله ، يخافونكم اكثر مما يخافون الله وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم انه نصر بالرعب مسافة شهر حينما يتحرك يخاف الذين امامه لمسافة شهر من المشركين ومن الكفار هذه الصفة لماذا ؟ لانهم قوم لا يفقهون السر الذي جعلكم تتقدمون وتتحدون ، السر الذي وحد هذه القبائل العربية بعد ما كانت متفرقة ، السر الذي جعل من المسلمين خير امة اخرجت للناس ، تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ، السر الذي جعلكم تطيعون امامكم وتنظمون نفوسكم وتستطيعون ان تتقدموا في الحروب بالصفة الهائلة التي يغلب فيها القليل منكم الكثير منهم ، ولكن بغاية الاسف هذه الاخلاق ، اخلاق المسلمين قد انقلبت فيصح ان يقال لنا اليوم هؤلاء اشد رهبة في نفوسنامن الله لاننا قوم لا نفقه ،لان مقتضى هذه الديانة ، ان المسلمين يكونون أعلم وأفقه من غيرهم ليس في مسالة العبادة فقط ، ولا في مسالة الاقتصاد ، ولا في غيرها ، بل حتى في مسائل النظم الحربية وما تتوقف عليه من اعمال ، ومن صناعات ، ومن انتاجات ، ومن سياسات ، ومن استراتيجيات جديدة ، يجب عليهم ان يكونوا مثل ذلك .

هذا من اثر الدين الاسلامي ، لان الدين الاسلامي ليس دين كنيسة ، ودين خمول ، ولكنه دين عمل في جميع الميادين فحيث ان المسلمين اليوم قد اعرضوا عن تعاليم الدين ، واصبحوا لا يفقهون ، ولم يرد الله بهم خيرا حتى يفقههم في الدين ، هذا الفقه الذي هو فقه

القلوب ، لاغرابة اذا اصبحوا لا يعرفون شيئا ولا يعرفون كيف ينظمون انفسهم ، ولا كيف يتقدمون امام اعدائهم ولا غرابة اذا لم يتحدوا ولا غرابة اذا لم يجتمعوا ، ولا غرابة اذا لم تتحد كلمتهم ، لانهم قوم لا يفقهون ، لا يعرفون سر الحرب ، وسر النجاح ، وسر الانتصار ، وهو الوحدة وهو الاستقامة وهو الثقافة وهو التعلم ، والتطور في الحياة مع الحياة ، كما يريد الله سبحانه وتعالى، فلذلك قال سبحانه وتعالى (لانتم اشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بانهم قوم لا يفقهون) وهكذا نجد الآيات الكريمة كلها" التسعة عشرة آية في القرآن ،" كلها في الحقيقة في هذا المعنى ، ونجد آية واحدة هي التي تدل نوعا ما على الفقه بمعنى : الفهم ، والادراك فهم اللغة وان كانت لا تبعد عن معنى الدقة في الفهم وهي قضية سيدنا موسى (رب اشرح لي صدري ويسر لي امري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي) فهذه هنا بمعنى اللغة لان اللسان منعقد فيحتاج الى تفهيم الكلام ، ولكنها ليست بعيدة عن المعنى العام الذي ذكره القرآن .

والخلاصة ان المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ليس الفقه بمعنى العلم ، وليس علم الفقهاء فقط وان كان الفقه مطلوبا من الدين وواجبا على المسلمين ، ولكن المقصود ماهو اعظم من ذلك ، وهو فقه القلوب وهو ان يتفهم المسلمون الفقه بحقيقته وان يدركوه على وجهه حتى يمكنهم ان يتذوقوا بانفسهم ذلك ، ومجموع الحديث يدل على هذا المعنى (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين) ولا يحتاج الى ان ياتي فيسال النبي صلى الله عليه وسلم لماذا اعطيت لفلان اكثر من فلان لانه صلى الله عليه وسلم انما هو قاسم والمعطي هو الباري عز وجل ، فهذا هو السر في جمع هذه الاشياء في هذا الحديث ولم ينتبه لذلك الشراح

ابدا ، لم ينتبهوا مع ان المعنى واضح تماما ، لان النبي صلى الله عليه وسلم في موقعة خاصة وزع الغنائم على المسلمين ، ووزع الخمس كما اقتضت المصلحة العامة لذلك ، فجاءه بعض الاعراب ، يساله لماذا اعطيت فلانا اكثر من فلان ، فقال صلى الله عليه وسلم (من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين)يعني يكون عنده الحاسة الفقهية ، الحاسة الذوقية القلبية التي يدرك بها ان محمدا صلى الله عليه وسلم ليس الا مجرد قاسم ، وانه لا يمكنه ان يتجاوز في قسمته ما امر الله به ، انما انا قاسم والله المعطي ، وفي الحديث السابق انما انا خازن ، وهذه الفقرة الثانية من الحديث الثاني في الواقع تتوقف على شيء كثير من الكلام ولكننا سنوجز ذلك بقدر الامكان فيما بقي لنا من الوقت وهو ان نقول :

ان النبي صلى الله عليه وسلم قاسم ، بمعنى مكلف من الله ان يقسم لعباده ، والله المعطي ، فسر ايضا الشراح هنا المعطي بان الله هو الذي يقدر - حقيقة - الله الذي يقدر ، والله الذي يعطي كل شيء ، والله الذي اعطانا نبينا صلى الله عليه وسلم ايضا وأعطاه حق القسمة بين الناس ، ولكن ليس هذا هو المقصود في الحديث ، المقصود في الحديث انا قاسم والله المعطي ، ومعنى المعطي : الله الذي يعطي كل واحد ما يستحقه تشريعا لا تقديرا فقط ، لان الله هو الذي انزل الآيات في القرآن (يسالونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول) ثم نسخها بقوله (واعلموا ان ما غنمتم من شيء) ثم قال في الآية الاخرى (ما افاء الله على رسوله من اهل القرى) ثم قال في الآية الاخرى (انما الصدقات للفقراء والمساكين) فكل ذلك بوحي من الله ، والنبي صلى الله عليه وسلم ليس له الا ان يتبع السياسة المالية التي امر الله باتباعها في الارض ، والسياسة المالية في الاسلام تعتمد باختصار تارة على التشريع ، وتارة على التوجيه ،

فسيدنا صلى الله عليه وسلم يشرع في المالية اشياء كثيرة ، فقد شرع مثلا الزكاة ، وجب ان نؤدي الزكاة لتوخذ من الاغنياء وترد على الفقراء بانصبتها المعروفة ، وتوزع على بعض الاشخاص ، وعلى بعض المصالح ، كما في قوله تعالى :(انما الصدقات للفقراء والمساكين) لان فيه الاشخاص وفيه كذلك سبيل الله ، وابن السبيل ، فسبيل الله كما قال الامام الشافعي : سبل الله كثيرة بحيث ما تنفق فيه الزكوات وكذلك ايضا فرض علينا ما زاد على الزكاة ، لان النبي صلى الله عليه وسلم قال في المال حق غير الزكاة ، بحيث لولي الأمر اذا اقتضت المصلحة العامة ان يفرض فرائض اخرى وجبايا اخرى بحسب المصلحة العامة اذا كان يتوقف عليها لتجهيز جيوش المسلمين ، او كان يتوقف عليها للقيام بمصالحهم ، في التعليم او في مصالحهم ايضا في النمو الاقتصادي ، او في غير ذلك من هذه الاشياء بحسب المصلحة العامة كما افتى بذلك ابو اسحاق الشاطبي ، وعلماء الفقه المالكيون المغاربة ، والاندلسيون بالخصوص هم زعماء الدفاع عن هذه الفكرة ،وان في المال حقا غير الزكاة بحيث تبقى الزكاة محجوزة فقط للضمان الجماعي الذي يشمل العمال وغيرهم .

هذا ما يرجع للتشريع .. الزكاة اولا ، الغنائم كيف تقسم ثم زاد على ذلك بحسب ما تراه الحكومة الاسلامية ويراه امام المسلمين اما جانب التوجيه فالنبي صلى الله عليه وسلم قد وجهنا لننفق كل ما عندنا (ويسالونك ماذا ينفقون قل العفو) اي الفاضل : الفاضل عن قوتك وقوت عيالك ينبغي لك ان تنفقه ولكن ليس واجبا هذا وانما يوجهنا الشارع ليلا ندخر المال وليلا نكتنزه (ان الله اشترى من المومنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله .الخ) ليس فقط النفس : الجود بالنفس اقصى غايات الجود كما يقول الشاعر ، ولكن كذلك الجود بالمال ، بحيث يجود الانسان بنفسه

وبماله فاذا انفق ذلك كله فانه سيصل الى النتيجة المطلوبة التي هي انفاق كل شيء في سبيل الله وقد روى سيدنا ابو ذر رضي الله عنه قال : خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوما نحو احد فقال لي : يا ابا ذر ، فقلت : لبيك يا رسول الله فقال : (الاكثرون الاقلون يوم القيامة الا من قال هكذا وهكذا) واشار صلى الله عليه وسلم بيمينه ويساره يعني أنفق ماله يمينا ويسارا ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم مع ابي ذر وقال له يا اباذر : فقلت له : فداك ابي وامي يارسول الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (ما أحب ان لي مثل احد ذهبا انفقه في سبيل الله واترك منه حين موتي شيئا ولا قيراطين قال له ابو ذر : ولا قنطارين يارسول الله ، قال : لا ولا قيراطين ، اريد الاقل ، وتريد الاكثر يا ابا ذر ، فهذا الحديث الشريف يدل على توجيه المسلمين نحو الانفاق بقدر ما يستطيعونه في سبيل الله ، لهم الحق في ان يكتسبوا وان يملكوا وان يكون لهم كل شيء ، ولكن ينبغي لهم زيادة على النفقات الواجبة ان ينفقوا هذه الاشياء ، وليس مقصودنا ان ننبه الى انهم ينفقون كل ما عندهم ، ولكن المقصود ان ننبه الى ان الاسلام يربي المسلمين الى انهم بعد ما يؤدون الواجبات يكون لهم استعداد نفسي لقبول ما تقرر الامة ، وما تقرر الدولة اخذه من اموالهم لاجل المصلحة العامة ، فهم يعتبرون بمثابة الوكلاء في اموال الامة .

وهذا الحديث الكلام فيه طويل لانه يتوقف على بيان مصادر الملك في الاسلام التي شرعها الاسلام ، وطريقة انفاقه ، وكذلك طريقة المسائل المحرمة ،وطريقة التنمية الاقتصادية من هذا الحديث ، كما ان خاتمة الحديث التي ترجع الى مسالة الاستبشار بانه لابد ان يبقى من هذه الامة من هم ظاهرو ن على من خالفهم ، تحتاج الى بيان والى الاجابة عن الاشكالات ، لان هذا التنبؤ النبوي مع الحالة

الظاهرة الموجودة عند المسلمين ولكننا ناخذ من ذلك على الاقل الامر بانه يجب على المسلمين ان تبقى منهم فئة ظاهرة على الحق لا يضرها من خالفها حتى ياتي امر الله ، وان هذا وان صدر في مقام التنبؤ ولكنه ينبغي ان يؤخذ على انه امر واجب على المسلمين في جميع الارض ، وليس من الضروري ان تكون الامة الاسلامية كلها بهذه الصفة ، بل تكون منها جماعة كما قال سبحانه وتعالى :(ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ولتكن منكم هذا تجريد من المسلمين جردوا من انفسكم امة بمعنى ان الامة كلها يجب ان تكون قائمة بهذا الواجب كما تقول لصاحبك ليكن لي منك صديق .

نرجو الله سبحانه وتعالى ان يوفقنا لصالح الاعمال ، وان يصلح احوال المسلمين في جميع البقاع ، وان يحرر بلاد المسلمين ، وان يرد بلاد المقدس وبلاد فلسطين ويحمي الاماكن المقدسة كلها ، حماية ربانية ، ويوفق المسلمين الى الوحدة والى التوافق والتصالح حتى يستطيعوا ان يقوموا بواجبهم امام هذه المصائب التي تهاجمهم ، ليتحقق فيهم هذا الوعد الذي وعد به نبينا صلى الله عليه وسلم وهو لابد ان يتحقق إن شاء الله ، ونسال الله سبحانه وتعالى كذلك ان يتغمد برحمته امام المغرب المجاهد الكبير جلالة محمد الخامس رحمه الله وجازاه عن الاسلام وعن المغرب احسن الجزاء ، ونرجو الله تعالى ان ينصر خليفته والقائم بامره من بعده والسائر على نهجه ومنواله مولانا الحسن الثاني اعطاه الله كل ما يتمنى وغاية الاماني وبلغ به لامته كل ما ترجوه منه من خير واسعاد ، ونرجو الله تعالى ان يحفظ ولي عهده وجميع انجاله الكرام وان يحقق بهم جميعا كل ما يرضيه وما يرضي الامة الاسلامية ان شاء الله .

الدّرس السّابع

في شرح حديث:

أنا أولى من كل مؤمن من نفسه من ترك مالاً فلأهله، ومن ترك دَيناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ

رمضان 1389- 1969

الدرس السابع في شرح حديث : (1)

أناأولى من كل مومن من نفسه
من ترك مالا فلأهله . ومن ترك دينا أو ضياعا فإلي وعلي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

باسم اله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا الى يوم الدين .

اما بعد فبسندنا المتصل الى الشيخ الامام الحافظ الحجة الهمام ، ابي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري رحمه الله تعالى ورضي عنه عن شيخه محمد بن المثنى عن استاذه كذلك عبد الوهاب بن عبد المجيد قال : حدثني جعفر بن محمد عن ابيه عن جابر بن عبد الله الانصاري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا خطب احمرت عيناه . وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كانه منذر جيش يقول صبحكم مساكم ويقول : بعثت انا والساعة كهاتين ويقرن بين اصبعيه السبابة و الوسطى ويقول : اما بعد فان خير الحديث كتاب الله وخير الهُدى هُدى محمد صلى الله عليه وسلم وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ، ثم يقول صلى الله عليه وسلم : انا اولى من كل مومن من نفسه ، من ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا او ضياعا فالي وعلي .

---

(1) الدرس الذي القاه فضيلة العلامة الاستاذ علال الفاسي رحمه الله ضمن الدروس الحسنية الرمضانية بمحضر جلالة الحسن الثاني طيب الله ثراه في رمضان عام 1389موافق لـ سنة 1969.

هذا الحديث الشريف الذي رواه الامام مسلم هنا فيه فوائد جليلة وفيه قواعد مهمة جدا ، وقد اجمل الشراح في شرح هذا الحديث مع انه يشتمل على فوائد كثيرة مهمة .

فاول ما يشتمل عليه هذا الحديث هو آداب الخطبة خطبة الجمعة ومن المعلوم ان خطبة الجمعة شرط عند الامام مالك رضي الله عنه في صحة صلاة الجمعة ، بحيث لا تصح صلاة الجمعة الا اذا وقعت الخطبة الاولى والثانية على ماهو المذهب الصحيح عند الامام مالك رضي الله عنه وعند جماعة من الائمة ولابد من وقوعها كلها في وقت الصلاة ، بمعنى انه لايصح ان تقع الخطبة قبل دخول وقت الصلاة ، والى ذلك يشير الشيخ خليل بقوله : وشرط الجمعة اداؤهاوالخطبة كلها في وقتها بمعنى انه لابد ان تقع الخطبة برمتها في الوقت ، ومن هنا نعلم ان ما جرى به العمل في بعض مساجد المغرب من انهم يقدمون الاذان ويبتدئون في الخطبة قبل دخول الوقت هو مناف للفقه الاسلامي ، وهو على مذهب الامام مالك يبطل الصلاة ، ولكن الامام احمد بن حنبل يقول بصحتها ، فالشرط الاول فيها ان تكون الخطبة في وقت الصلاة كما ان الصلاة لا تصح الا في وقتها ، لان الخطبة على مذهب الامام مالك تعتبر جزءا من صلاة الجمعة ، وشذ الحسن فقال : انها سنة فقط وانه اذا صلى الامام الجمعة من غير خطبة فان ذلك يصح ، ورواه ابن الماجشون كذلك عن الامام مالك ، ولكن الرواية الصحيحة المعمول بها هي التي سبق ان ذكرناها ، وهي انها شرط في صحة الصلاة ، وكذلك لابد ان تكون الخطبة خطبتين : الخطبة الاولى والاستراحة والخطبة الثانية ، والاستراحة عند الامام مالك على مارواه المازري شرط لاتصح الصلاة بدونها ، وقال القاضي عياض : انه يمكن ان يقال : ان الصلاة تصح ، ولكن الذي صلى قد أساء ، ولكن الصلاة تجزئه لو

فعل خطبة واحدة من غير خطبة ثانية ولا استراحة بينهما ، اما الشافعي فيقول ببطلان الصلاة قطعا اذا لم تقع الخطبة الاولى والاستراحة ثم الصلاة .

ومن آداب الخطبة التي كان يفعلها صلى الله عليه وسلم انه كان يخطب قائما ، وهذا هو السنة ، ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه خطب جالسا قط ، وقد جعلوا ذلك شرطا في الخطبة ، وقال بعضهم انها سنة فقط ، واول من خطب جالسا معاوية رضي الله عنه حين ثقل سنه ، فبدأ يخطب جالسا ، ولكن السنة الصحيحة ان خطبة الجمعة يجب ان تكون قياما وقد ثبت في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم استنكر بعض الخطباء الذين خطبوا جلوسا ، هذه آداب الخطبة ، اما طريقة إلقائها : اولا يجب ان تكون غير طويلة فان النبي صلى الله عليه وسلم يامر الخطيب بان يقصر الخطبة ويطيل الصلاة ، وقال إطالة الصلاة وتقصير الخطبة مَئِنَّة فقه الرجل . وهذا الحديث في صحيح مسلم ياتي بعد الاحاديث التي رويناها ، النبي صلى الله عليه وسلم يقول : تقصير الخطبة وتطويل الصلاة مَئِنَّة اي مظنة فقه الرجل دليل على ان الرجل الخطيب فقيه اي انه يعرف المعروف في الشريعة . وليس المقصود من تقصير الخطبة الاقتصار فيها على بعض الجمل ، بل لابد فيها مما يشمله لفظ الخطبة عند العرب ، ولذلك يشترطون ان تكون فيها الحمدلة وشيئا من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم الوعظ والارشاد المكلف به الخطيب . ولابد من ان يذكر آية من كتاب الله وحديثا من سنن النبي صلى الله عليه وسلم . وبعض الخطباء اليوم يهملون هذا الشرط فيخطبون وقد ياتون بالحديث دون الآية ولا ياتون بالحديث والآية معا وهذا مضر بصحة الخطبة عند جماعة من الائمة ، ثم بعد ذلك لابد ان يقول : اما بعد او ما

اليها من الكلمات المتفقة معها لانها هي فصل الخطاب الذي يفصل بين بدء الخطبة وبين ما يعقب ذلك اي بين الخطبة الافتتاحية المشتملة على الحمد وعلى التسبيح والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وبين الخطبة المقصودة بالذات كما كان يفعل النبي عليه السلام كما سنبينه في شرح الحديث ، فقد كان يقول : اما بعد .

ثم بعد ذلك يلزم ان تكون الخطبة مشتملة في طريقة القائها على الصفة التي تؤثر في السامعين ، فينبغي له ان يبحث عن الموضوعات التي يتوقف عليها العصر والتي يتوقف عليها الوقت ، ولا ينبغي ان تكون الخطبة دائما مشتملة على اشياء وكلمات واحدة معروفة في الاسبوع الاول من الشهر الفلاني والاسبوع الثاني من الشهر الفلاني الى آخر ماجرت العادة به . فينبغي ان يبحث الخطيب عن الحوادث الاجتماعية وان ينقل وعظه وارشاده الى بعض المخالفات الشرعية الواقعة في البلاد فيحث الناس على اجتنابها وينذرهم بوقوعها .

ثم انه صلى الله عليه وسلم كان في القائه للخطبة على هذه الصفة التي رواها جابر بن عبد الله : اذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه ـ حتى كانه منذر جيش ، واشتداد الغضب المقصود به هنا انه يكون في ساعة القائه في حالة الغضبان ، لا المقصود انه يكون غضبانا بالفعل ، وانما يوحي الكلام وكانه غضبان ، او يكون المقصود انه في هذه الساعة التي كان يلقي فيها تلك الخطبة صلى الله عليه وسلم كان يغير منكرا رآه عليه الصلاة والسلام فلذلك كان يلقيه بصفة ا لغضب ، لانه راى مخالفة لشريعته ، او يكون المعنى كما يقول الامام النووي رحمه الله ان المقصود كونه صلى الله عليه وسلم كان يتكيف بحسب الموضوع الذي يلقي

فيه الخطبة ، فاذا كان ينذر الناس مثلا من عذاب الله او من مخالفة الشريعة اوما الى ذلك فانه صلى الله عليه وسلم يتكيف بحالة الغضب التي يقع الانذار بها ، فهو صلى الله عليه وسلم كان اذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كانه صلى الله عليه وسلم منذر جيش اي يتكلم بصفة المخوف المهول للمسائل التي يحس بها الناس ، والدليل على ذلك ان ينذر بقرب الساعة وقيامها يقول ذلك المنذر : صبحكم جيش الاعداء ومساكم ، يعني كان منذرا ينادي قومه ويقول لهم ان الاعداء قد صبحوكم ، ان الاعداء قد مسوكم فهلموا الى الكفاح والنضال .

فكذلك يكون صلى الله عليه وسلم يخاطبهم هذا الخطاب الذي ينذرهم بعذاب الله ويحذرهم من الوقوع في العاصي ويخوفهم من الساعة ، ثم كان صلى الله عليه وسلم يقول : بعثت انا والساعة كهاتين ويقرن بين اصبعيه السبابة والوسطى بنصب السبابة وهو الصواب ويصح ان تقرأ بالرفع ويقرن بالضم هو الصحيح وفي روايةبكسر الراء ومن جهة اللغة تجوز اللغتان معا . والسبابة سميت كذلك لان العرب كانوا يسبون بها ، وهذا القرن الذي يقع بين الاصبعين بمعنى انه عليه الصلاة والسلام يلاقي اصبعيه ويقول بعثت انا والساعة كهاتين ، هل مقصوده عليه الصلاة والسلام التشبيه بالفرق الموجود في طول الوسطى وطول السبابة ؟ او المقصود هو الاقتران والاتصال بين السبابة والوسطى ؟ والصحيح الذي نختاره هو انه صلى الله عليه وسلم كان يريد ان يقول انه بعث في آخر الزمان الذي تقع فيه الساعة . ليس هناك نبي آخر يدخل بين الساعة وبينه صلى الله عليه وسلم . بمعنى انه خاتم النبيئين فهو عليه الصلاة والسلام قد بعث قبل قيام الساعة . وبعثه هو علامة من علاماتها كما سنبينه .

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد انتهت به النبوة والرسالة فهو ملاق للساعة ومقترن معها كما تقترن السبابة بالوسطى اذا نظرنا اليهما عرضا ، واما بعض العلماء وبعض الشراح فقد ارادوا ان يفهموا ان الاقتران في الطول بمعنى ان ما مضى من الدنيا طويل جدا وما بقي شيئ يسير لقيام الساعة ، وقد بنوا على هذا اعتبارات وروايات في عمر الدنيا وفكريات كلها من الاسرائليات ، لم يرد عن النبي صلى اله عليه وسلم في حديث صحيح ولافي حديث حسن تحديد لعمر الدنيا ، واما هؤلاء الذين رووا الاسرائيليات فقد حددوها بان قالوا : ان الاصبع فيه مثلا سبعة اجزاء ، الجزء السابع منها هو الذي بقي لفناء الدنيا ، وهذا الراي مشي عليه جماعة من العلماء المتاخرين في العصور المنحطة ، ومن بينهم الامام السيوطي رحمه الله الذي الف تاليفا سماه :الكشف في مجاوزة هذه الامة الالف ، ومعنى ذلك ان الامة تتجاوز الالف بقليل وان الدنيا ستفنى بعد الف وخمسمائة سنة ، ولكن هذا كله لا اصل له وانما هو من قبيل الخرافات الاسرائيلية ، لان الله تعالى قد بين لنا ان الساعة لا يعلمها الا الله سبحانه وتعالى وقد جاء في القرآن الكريم :" يسالونك عن الساعة ايان مرساها ، قل انما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها الا هو ثقلت في السماوات والارض لا تاتيكم الا بغتة يسالونك كانك حفي عنها قل انما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون "

فهذا يبين أن وقت قيام الساعة لا يعرفه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، وانه مما استاثر الله بعلمه ، وكذلك لا يمكننا ان نعرف الزمن الذي مضى من الدنيا وان كان فيه اقوال وروايات فانها كلها ليست الا فروضا وتخمينات ، والعلماء المعاصرون اليوم يريدون ان يحددوا زمناماضيا للدنياولوقت وجودهافيقدرونهابثلاث مليارات ونصف من السنين او باربع مليارات بناء على بعض الحفريات وبعض آثار

الجماجم وغير ذلك ، ولكن هذا ايضا لا يفيد يقينا ، وقد قال سبحانه وتعالى : "ما اشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق انفسهم" فمعرفة ماضي السنين ومستقبلها شيء بعيد جدا ولا يمكن الا عن طريق الوحي وقدبين الوحي ذلك وقال ان هذه المسالة لا يعلمها الا الله

ثم ان الساعة في اللغة في الاصل هي عبارة عن جزء قليل من الزمان غير محدد ، واما الساعة الفلكية فهي عبارة عن جزء من اربعة وعشرين جزءا مقدودا في اليوم والليلة وينقسم الى ستين دقيقة والدقيقة الى ستين ثانية ، وقد جرت عادة المتحضرين في جميع الدنيا ان يطلقوا على هذا القدر من الزمان " ستين دقيقة " :الساعة واحد ثوا له آلة سموها : ساعة . هذه هي الساعة الزمنية ، وهنالك الساعة الشرعية وهي عبارة عن خراب العالم ، اذا اطلقت الساعة في القرآن فالمقصود بها خراب العالم ، وقد جرت العادة في القرآن ان يقول : الساعة ليوم القيامة وساعة من زمان لوقت محدود اي معروف لانه اذا قامت الساعة فانها تقوم فجاة في ساعة ، وقد سميت الساعة ساعة لاجل الفجاة ولاجل السرعة التي تقع فيها ، هذا ما يتعلق بلفظ الساعة ، وقد ثبت في الحديث الشريف ان للساعة اشراطا كما ورد في حديث البخاري عن سيدنا عمر بن الخطاب ان جبريل سال النبي صلى الله عليه وسلم عن قيام الساعة فقال الله اعلم بها ، مالمسؤو ل عنها باعلم من السائل ، قال اخبرني عن اماراتها ، قال ان تلد الامة ربتها وان ترى الحفاة العراة رعاه الشاء يتطاولون في البنيان .

وقد نص العلماء على ان اشراط الساعة تنقسم الى ثلاثة اقسام : اشراط صغرى واشراط وسطى واشراط كبرى ، اما الاشراط الكبرى فهي التي تقع في آخر لحظة حينما يقترب قيام الساعة ومنها طلوع

الشمس من مغربها كما في الحديث ، واما الاشراط الوسطى فهي الفساد الذي يقع في كل زمان ومكان ، والتي تخرج به الامة الاسلامية عن اخلاقها وعن تعاليم دينها ، واما الاشراط الصغرى فهي التي تقع لكل انسان ، وقد ثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم " كما رواه الديلمي " قال : اذا مات احدكم قامت قيامته ، فالقيامة الصغرى هي قيامة كل واحد منا بمجرد مايموت ، لان هذه علامة نهايته ، وهنالك قيامة وسطى بحسب الجيل وبحسب القرن ، وقد ثبت في الحديث الشريف ان جماعة من الاعراب جاءوا وسالوا النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال لهم و كان معهم طفل صغير " اذا كبر هذا الطفل ولم يمت فستدرككم ساعتكم ، فالمقصود به ساعة زمانهم اي ساعة القرن الذي هم فيه ، وقد اراد صلى الله عليه وسلم ان يلفت نظرهم عن البحث عن الساعة الحقيقية الى ساعة قرنهم وجيلهم لكي يجدوا ويجتهدوا وليعلموا انهم اذا فرطوا في احكام الشريعة وخرجوا عن الدين فان ذلك يؤدي بهم الى فنائهم والى نهاية عمرهم بدون فائدة .

ومما يدخل في هذا المعنى ساعة الدول كما نص على ذلك جمع من العلماء ، وهي التي اشار اليها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:اذا وسد الامر الى غير اهله فانتظروا الساعة ، فتوسيد الاحكام مثلا والوظائف الى غير اهلها من علامات ساعة الدول الخاصة كما بين ذلك الشيخ محمد عبده رحمه الله ، وهذا معنى قول سيدنا جابر رضي الله عنه : ويقول بعثت انا والساعة كهاتين اي انه بعث مقارنا للساعة فليس بينه وبين قيام الساعة شيء والمقصود من هذا كله هو تذكير المومنين الذين يومنون بالحشر والنشر بان الساعة ستقوم وبانه لابد للانسان ان يبذل قبل موته ما يستطيع ان يدخره لذلك اليوم المشهود .

ولاشك ان الايمان بقيام الساعة وبالحشر والنشر والحساب والعقاب هو مما يدفع المومنين للعمل ، والانسان الذي يفرط في الذنوب ويكثر من المعاصي يدل ذلك على انه لا يومن بيوم البعث ولا بيوم النشور ، لان الانسان الذي يومن ولو بطريق الظن بالبعث والنشور فانه لا يرتكب المصائب ولا المعاصي ، كما قال سبحانه وتعالى : " ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون الا يظن اولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين " لو كانوا يظنون ان الساعة موجودة قائمة وانهم سيبعثون يوم القيامة لما طففوا في الكيل ولافي الميزان ، فاذا كان مجرد الظن يمنع الانسان من ارتكاب هذه المصائب والمعاصي فكيف بالعقيدة الصحيحة الثابتة التي يعتقد فيها المومنون ان الدار الاخرة موجودة وان الانسان ما خلق سُدًى وأنه سيبعث ويحشر وينشر ويعرض على الصراط والميزان والحوض ، ثم بعد ذلك يبث في امره فاما الى الجنة واما الى النار .

فاذا تصور ذلك الانسان تصورا حقيقيا وآمن به وصدقه فانه سيكون رادعا له دائما على ارتكاب المعاصي واتباع الشهوات ومراعاة الآخذ بالنواصي سبحانه وتعالى ، وهذا الذي كان يقصده سيدنا صلى الله عليه وسلم حينما يخطب ويذكر بالدار الآخرة ، ولاشك ان نبينا عليه الصلاة والسلام والصحابة من بعده كانوا يومنون ايمانا قويا بقيام الساعة حتى انهم كانوا يعتقدون قربها بل كان منهم من يعتقد انه ربما لا ينتهي مائة عام حتى تقوم الساعة ، وهذا هو الذي أنشأ في نفوس المتصوفة والزهاد الاولين الخوف من رب العالمين حتى انهم كانوا يبكون وكانوا يخشعون ، وكانوا يعبدون لاعتقادهم بان الساعة قريب بحيث لو وقعت لما ازدادوا يقينا على ما عندهم من ايمان ويقين ، فلما ضعف ايمان

المسلمين وضعف يقينهم باحكام الدين ولم يعد لهم تحقق بما سيقع يوم القيامة من حشر ونشر وجنة ونارصاروا لا يبالون بما يرتكبون من المعاصي ولاما يرتكبون من الذنوب .

فمن اوجب الواجبات على المسلم ان يجدد ايمانه ويؤكد عقيدته ويثبت قلبه ، ويعتقد ان هنالك ربا مطلعا عليه وان هنالك ملائكة تحصي اعمالهم الخيرية والشرية وان هنالك يوما يحشر فيه ويبعث امام الله سبحانه وتعالى وتحدثه نفسه ويده ورجله وقلبه ...وكل شيء عن عمله ." يوم تشهد عليهم ألسنتهم و أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ." وذلك كله يقع لا محالة ، فينبغي لنا ان نجدد ايماننا ونؤكد عقيدتنا بذلك ، لنتقي الله ، ولنخافه ولنبتعد عن ارتكاب المعاصي ، ذلك هو المقصود من فعله صلى الله عليه وسلم حينما كان يخطب ويقرن بين اصبعيه : السبابة والوسطى ويقول : بعثت انا والساعة كهاتين .

ثم يقول : اما بعد : هذه كلمة تفصل مقدمة الخطبة عن بقيتها ، وقد قال بعض العلماء : انها فصل الخطاب المذكور في القرآن الكريم ، والصواب ان فصل الخطاب هو غير هذا ، واما هذه الكلمة فهي من اساليب العرب ، قيل ان اول من نطق بها داوود عليه السلام ، وقيل ان اول من استعملها هو قس بن ساعدة ، وقيل ان اول من استعملها هو يعرب بن قحطان ، وعلى اي حال فقد كانت معروفة منذ عهد داوود عليه السلام ، وبعض العلماء يستعملون مكان اما بعد : هذا . ولما كان وهذا يصح . ويستعملون كذلك . والى ما تقدم فانه كذا وكذا ، وهذه ايضا تصح .

وكما ينبغي ان تستعمل هذه البعدية او ماشابهها في الخطب الجمعية ينبغي ان تستعمل في غيرها من الخطب والكتب والرسائل وتلك سنة العرب في خطاباتها ورسائلها وكتبها فانهم يستعملون امابعد ، بعد الكتابات الاولى التي يحمدون الله تعالى ويمجدونه فيها ، وماكان المسلمون يكتبون شيئا لا يبتدئون فيه بالبسملة او الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لانه صلى الله عليه وسلم كان يقول : كل امر ذي بال لايبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم فهو ابتر .

قال في الحديث : اما بعد فان خير الحديث كتاب الله ، وخير الهُدى هُدى محمد .

الحديث : يطلق على الكلام ويطلق على الخبر ويطلق على الروايات وقد كان العرب يتحدثون عن الحديث قبل مجيء النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن الحديث اطلق بعد ذلك عن الكلام المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اي عن سنته المشتملة على اقواله وافعاله وتقريراته ، ولكنه في هذا الحديث استعمل الحديث في كلام الله سبحانه وتعالى ، فلا شك ان القرآن من الحديث الالهي لانه خطاب الله المتعلق بافعال المكلفين ، قال فان خير الحديث كتاب الله ولا شك ان القرآن هو خير الحديث ، وهو المصدر الاول للشريعة الاسلامية وهو افضل كلام على الاطلاق ، وهو اذا قراه الانسان يكون تاليا لكلام الله في الحقيقة ، ومرددا لكلام الله وخطاباته سبحانه وتعالى .

" وخير الهدى هدى محمد " هذه هي رواية الامام مسلم : هدى بضم الهاء وفتح الدال ، وفي بعض الروايات وخير الهدي هدي

محمد وقال الامام النوري : اننا روينا الروايتين في صحيح مسلم ولكن القاضي عياض قال : ان صحيح مسلم اختص برواية الهُدى هُدى الله .

واما غيره من الرواة فقد اختص برواية الهدي ، قال الهروي : والهدي يدل على معنى الارشاد وعلى معنى دلالة الانسان على الطريق المستقيم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم اهتدوا بهدي عمار فان الاهتداء بهديه اي السلوك بسلوكه وبالعمل الذي يسلكه .

واما الهدى " بالضم " فانها تطلق بمعنيين : بمعنى الدلالة والارشاد وهذا مثل قوله تعالى : ان هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم " اي يدل على الطريق الاقوم المستقيمة " وانك لتهدي الى صراط مستقيم " " واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى " فالهدى هنا بمعنى الدلالة والارشاد ، ويطلق الهدى ويراد به اثر الدلالة والارشاد في نفس الانسان اي الايمان . وهذا خاص بالباري سبحانه وتعالى لانه قال : انك لا تهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء " فهذه هداية من الله خاصة به سبحانه وتعالى ، ولذلك لا تستعمل في الانسان ، وهذا هو المذهب الصحيح ، واما بعض القدريين ممن يقولون ان الامر انف ، فانهم يقولون : ان الهدى دائما بمعنى البيان ومقصودهم بذلك تاييد مذهبهم الذي يقول بان العبد يخلق افعاله وانه ليس هنالك قدر وان الامر انف ، هؤلاء القدرية كلامهم مردود عليهم ، لان الله سبحانه وتعالى قد فصل بين الدعاء وبين الهداية .....لكل معنى خاص به في كتاب الله عز وجل .

قال : ان الهدى هدى محمد ، وشر الامور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة وفي بعض الروايات ، والضلالة وصاحبها في النار .

هذا الموضوع نتكلم فيه باختصار عن : البدعة والسنة وحقيقتهما ، عند السلفيين وعند الفقهاء .

السنة كما بينا آنفا تطلق على الحديث ، وهذا عند المحدثين في اصطلاح الحديث تطلق السنة بمعنى الحديث ، وهي اقوال النبي صلى الله عليه وسلم وافعاله وتقريراته ، وتطلق السنة عند الفقهاء وتكون بمعنى الامر الذي اذا فعله الانسان اثيب عليه واذا تركه لم يعاقب عليه ، وهو غير الفرض لان الفرض يثاب الانسان على فعله ويعاقب على تركه فهذه هي السنة عند الفقهاء ، وهذا ليس مقصودا هنا ، وانما المقصود هنا ، السنة بمعنى الطريقة ، وهي المنهج الذي يسلكه النبي صلى الله عليه وسلم والمستفاد من اقواله صلى الله عليه وسلم وافعاله وتقريراته ، وهذه الاستفادات التي نستفيدها من اقواله وافعاله وتقريراته ، لا يخلو اما ان تكون بطريق الدلالة الشرعية واما ان تكون بطريق القواعد الشرعية ، واما ان تكون بطريق عمل الخلفاء الراشدين عملا بقوله صلى الله عليه وسلم عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجد ، فهنالك اذن ثلاثة اقسام : الاول وهو الذي يوخذ بالدلالة الشرعية ، كقوله صلى الله عليه وسلم صلوا كما رايتموني اصلي وهو في الحقيقة واضح انه يعمل به ويوخذ الكلام فيه اما ماخذ الوجوب او ماخذ التحريم اذا نهى لان افعال النبي صلى الله عليه وسلم واقواله وتقريراته اذا اثبتت بالادلة الشرعية فانها كلام مقبول وهو من الاشياء المحمولة على الاحكام الشرعية بحسب ما يدل على ذلك الدليل اما واجب واما سنة واما محرم واما مكروه واما جائز حسب الاقسام الخمسة المعروفة .

القسم الثاني وهو الذي يستفاد من غير الدلالة الشرعية ، وانما من جهة القواعد الشرعية وهذا هو مناط البحث ويحتاج الى تدقيق ، لانه لا تخلوا افعال النبي صلى الله عليه وسلم اما ان تكون من الافعال العادية او الجبلية او من قبيل الافعال التي اختص بها النبي صلى الله عليه وسلم او من قبيل الافعال او الاقوال التي بين بها صلى الله عليه وسلم حكم الله المذكور في كتابه ، فهنالك ثلاثة اشياء :

أولا : اما ان تكون من قبيل الجبلة ، ككونه " صلى الله عليه وسلم " كان يحب بعض الطعام او بعض الشراب اولا يحبه كما كان صلى الله عليه وسلم مثلا لا ياكل الضب لانه يعافه ، هذه المسائل جبلية طبيعية . فمسالة المآكل والمشارب وغيرها لا تدخل في التشريع الا من جهة اباحتها ، والنبي صلى الله عليه وسلم استعملها دليل الاباحة اما كوننا ناخذها على انها سنة او طريقة خاصة فليس واجبا علينا ولا مطلوبا منا ان نتبع تلك الاشياء التي هي من قبيل الجبلية ، اللهم الا من غلبت عليه المحبة واراد ان يقتدي فعل النبي صلى الله عليه وسلم بكل معنى الكلمة ، هذه هي المسائل الجبلية .

واما المسائل غير الجبلية ولكنها من بعض المسائل الاختيارية التي اختارها صلى الله عليه وسلم فهذه ايضا لا يمكننا ان نقول انها تستفاد منها الاحكام الشرعية .

وهناك اعمال تكون خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ككونه صلى الله عليه وسلم تجب عليه صلاة الضحى هذا معروف انه خاص به صلى الله عليه وسلم ويحرم عليه اكل الثوم وهو ايضا خاص به صلى الله عليه وسلم فنحن يصح لنا ان نصلي الضحى . ويصح لنا ان لا نصليها من جهة الاختصاص ، نعم ثبت من جهة اخرى استحباب

صلاة الضحى لغير النبي صلى الله عليه وسلم وهذه مسالة ثانية والمقصود ان المسائل الخاصة به صلى الله عليه وسلم كالوصال مثلا كان صلى الله عليه وسلم يجوز له الوصال في الصيام وهذا مكروه بالنسبة لباقي المسلمين ، كذلك ايضا المسائل التي ذكرها صلى الله عليه وسلم بيانا او فعلها بيانا كقطع يد السارق من الكوع فان الله تعالى قال : "والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما " فابان صلى الله عليه وسلم كيفية القطع فقطعها من الكوع ، فنستفيد من هذه السنة وهي الفعل الذي فعله صلى الله عليه وسلم بيانا للقرآن ، هذه مسائل معروفة : اما جبلية او اختيارية طبيعية واما من قبيل الاختصاصات ، واما من قبيل البيانات .

ولكن ياتي بعد ذلك بعض اقوال النبي او افعاله او تقريراته التي لا تدخل لا في الجبلية ولافي الاختصاص ولافي البيان ، هذا الفعل الذي فعله صلى الله عليه وسلم بهذه الصفة اذا نحن راينا انه يمكن ان يندرج تحت قاعدة من القواعد الشرعية فيكون مطلوبا واقل الطلب الاستحباب فلاباس . كمثل بدايته صلى الله عليه وسلم الرسائل بالبسملة وان كانت البسملة ثبتت من جهة اخرى بالحديث الذي رويت لكم آنفا وهو قوله صلى الله عليه وسلم " كل امر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر " فالبداية بالبسملة او بقوله من فلان الفلاني الى فلان او يؤخر الامضاء هذه المسالة من فعله صلى الله عليه وسلم فمن رءا انه ينبغي للانسان ان يتحبب بالاقتداء برسول الله وان كل إفعاله موطن قدوة يستحب اتباع ذلك في هذه الاشياء ، ومن كان يرى ان هذه الاشياء طبيعية ولا ينبغي للانسان ان يستكثر من الاتباع فيها فانه يقول لاحاجة الى الاتباع فيها .

ومناط الامر في هذه القضية على معرفة ما اذا كان الشيء من قبيل الاتباع او من قبيل الفعل الطبيعي في الانسان فعله عليه السلام بصفة عادية طبيعية ، هذا الاختلاف هو الذي يكون خلافا بين العلماء احيانا ، ولذلك من جملة الامور العادية مثلا اعفاء اللحى وقص الشارب وسدل عذبة العمامة كان يفعله صلى الله عليه وسلم فمن اعتبر ذلك من باب الاقتداء قال ينبغي لنا ان نسدل اللحية ونقص الشارب وان نسدل العذبة في العمامة ، ومن قال ان هذه مسائل عادية اعتبر ان ترك اللحية او حلقها شيء عادي لادخل للتدين فيه ، وهذا هو الصواب لان هذه المسائل لا ينبغي الا ان تعتبر من قبل العاديات ، وهنالك حديث :

خالفوا المجوس : اعفو اللحى وقصو الشوارب ، ولكن هذا كان في وقت المجوس الذي كان فيه الايرانيون مجوسا ، واما بعد ذلك فقد اسلموا وصارت سنتهم سنة المسلمين ، وعاداتهم عادات المسلمين ، وهكذا في جميع المسائل التي هي من قبيل العاديات ، ومثل هذا يقال في التروك ، المسائل التي تركها صلى الله عليه وسلم ان تركها جبلية كقوله صلى الله عليه وسلم في الضب انه لم يكن بارض قومي فتجدني أعافه واباح لهم اكله ، وكعدم اكله للثوم لانها من خصائصه صلى الله عليه وسلم كما بينا وكذلك تروك اخرى من اراد ان يعتبر الاقتداء صار يتبع النبي صلى الله عليه وسلم في كل شيء ومن لم يرد ان يقتفي الاقتداء الكلي ويتصوف في ذلك تصوف الورعين يقول ان هذه الاشياء من قبيل العاديات ليس الا .

من ذلك مثلا لبس السراويل ، رووا في خبر الامام القصار رحمه الله من علماء المغرب في القرن العاشر ، كان بعض تلامذته يتباحثون بعد موته ، هل لبس النبي صلى الله عليه وسلم السراويل أولم يلبسها ، فقالوا ان القصار كان يقتفي اثر النبي صلى الله عليه

وسلم في كل شيء فذهبوا وسالوا زوجته فقالت لهم : لقد اشترى السراويل ولم يلبسها لانه ثبت في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم اشترى السراويل ولم يلبسها لانها لم تكن عادة عند العرب فلما رآها اشتراها صلى الله عليه وسلم ولكن لم يلبسها ، ولكن شدة المحبة التي كانت للامام القصار رحمه الله جعلته يقتفي اثر النبي صلى الله عليه وسلم الى هذه الدرجة ، وهذا من قبيل التصوف وليس من قبيل الاحكام العادية التي يجب على كل انسان ان يسير فيها لان مسائل اللباس ومسائل الامور العادية كلها تتبدل بحسب الزمان والمكان .

بعد هذا الذي قلناه تبقى هنالك اشياء لم يفعلها صلى الله عليه وسلم لانها لم تكن في زمنه وانما التطور الانساني والعلمي والحضاري قد ادى الى تكوينها وايجادها ، فهذه الاشياء التي تكونت بعد ذلك لا يمكن ان يقال فيها الا انها سنة مقبولة كما سنبين ولا يمكن ان يقال فيها انها بدعة ، البدعة اللغوية ، نعم ، لان البدعة اللغوية هي كل شيء لم يكن من قبل ، اي ابتدع واخترع واوجد ، واما من وجهة البدعة الدينية فانه لايمكن للاشياء التي تبتدع وتخترع من جديد ان يقال فيها انها بدعة دينية وانما تعرض على الاحكام الشرعية فان وافقت الشريعة اعتبرت من السنة وان لم توافق اعتبرت من البدعة كتعلم العلوم والتوسع في العلوم الطبيعية او العلوم النظرية والنحو والصرف وغير ذلك من الاشياء التي احدثت بعده صلى الله عليه وسلم ، هذه الاختراعات والتقنيات الجديدة والتطورات في المباحث الفلكية والصعود الى الاقمار وغير ذلك من الاشياء ، كلها مما تدخل في السنة لقوله سبحانه وتعالى :

" وقل ربي زدني علما " لاننا مطالبون بالبحث والتنقيب والمزيد من العلم وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول : كل يوم تطلع فيه الشمس لازداد فيه علما لابورك في طلوع شمس ذلك اليوم ، فكل يوم ينبغي لنا ان نتعلم وان نزداد تعلما ومعرفة ، وهذا من قبيل السنة وليس من قبيل البدعة المستحسنة كما يقول الفقهاء فليست بدعة دينية ابدا كما سنبين .

اما تقريراته صلى الله عليه وسلم للاشياء التي رآها فهذه ايضا تعتبر بحسب التقرير لانه صلى الله عليه وسلم لا يقر انسانا على منكر ولا على حرام ولابد ان يبين له ذلك ، فاذا فعل انسان امام النبي صلى الله عليه وسلم او قال شيئا واقره صلى الله عليه وسلم بسكوته فان ذلك دليل على صحة ذلك القول او ذلك الفعل من ذلك الصحابي ، وكذلك لا يدخل في البدعة "وهو من قبيل السنة" الاجتهادات التي يجتهدها العلماء : استنباطات الاحكام الشرعية التي يستنبطها العلماء بادلتها من الكتاب والسنة والاجماع والقياس اذا كانت تندرج تحت اصل من الاصول العامة في الاسلام فانها تعتبر من قبيل السنة وليست من قبيل البدعة .

ويقابل السنة البدعة ، والبدعة في اللغة هي : البدع اي كل شيء جديد لم يكن موجودا ، قال سبحانه وتعالى في حق الرسول :
" قل ما كنت بدعا من الرسل " لم اكن شيئا جديدا في الرسالة فهنالك رسل من قبلي ، واما البدعة الشرعية فقد حددها الامام الشاطبي بانها هي ابتكار السلوك على طريقة جديدة يقصد بها نفس السلوك الذي يعمل على الطريقة الشرعية ، هذه هي البدعة الدينية وهذه المبدعة الد ينية عند الامام الشاطبي وعند السلفيين لا يمكن ان تكون الا محرمة او مكروهة لان هذه ابتداع في الدين ، كل

بدعة في الدين هي اما من قبيل المحرم واما من قبيل المكروه . وهي هاته التي يريد بها الانسان ان يبتكر طريقة وسلوكا في الدين لم ياذن به الله سبحانه وتعالى ، كمن يخترع مثلا نوعا من العبادات او نوعا من الاذكار الخاصة المعينة في وقت معين او غير ذلك من هذه الاشياء كتاسيس بعض الطرق او اقامة بعض المواسم فهذه بدع دينية قطعا ، وهي اما محرمة واما مكروهة او الذبائح على الصالحين كما بين ذلك الامام الشاطبي في كتابه الاعتصام ، وهذه هي البدعة التي قال فيها صلى الله عليه وسلم كل بدعة ضلالة ، وعلى هذا الاساس فالكل هنا حقيقي وليس كما قال الشراح انه كل يستثنى منه البدعة المستحسنة ، لان البدعة المستحسنة في الدين غير موجودة .

وانما يوجد في الدين البدعة المحرمة او المكروهة ، اما البدعة اللغوية فهي التي يمكن ان نقول عنها بدعة مستحسنة ، كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التراويح التي رآى المسلمين يصلونها نعمة البدعة هذه يعني نعم الشيء الجديد الذي قمتم به والا فهو في اصله مشروع لانه تجمع للعبادة وهذا مشروع في الاصل .

فالبدعة لايمكن ان تعتبر مباحة او مستحبة او واجبة كما بين الاخرون وكما سنوضحه من بعد ، وانما تكون محرمة او مكروهة ومعنى ان البدعة ضلالة وان صاحبها في النار ، انه يجب على العلماء وعلى جميع المسلمين ان يحذروا من جميع انواع البدع المنكرة المحرمة في خطبهم وفي دروسهم وفي مواعظهم ويجب على من ولاه الله الامر ان يعمل جهده لازالة البدع وقمع اصحابها وتلك كانت سنة اجدادكم المكرمين ولاسيما مثل سيدي محمد بن عبد الله

ومولاي سليمان الذي كان يرسل الرسائل الكثيرة في الحث على التخلي عن هذه البدع واصلاح العقيدة وتلك سنة والدكم رحمه الله سيدي محمد فقد كتب عدة رسائل تليت في المساجد في هذا الموضوع ، وتلك سنتكم ايضا في مناسبات عديدة .

فهذه الطريقة التي ينبغي ان تسلك في مقاومة البدع والمنكرات كيف ما كانت لتطهير العقول وازالة الفساد واصلاح المجتمع واصلاح الاسرة وما الى ذلك من انواع الضلال الذي ينتشر بسهولة والفساد الذي يعم بكثرة .

واما قوله صلى الله عليه وسلم :" من سن سنة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة " والاستدلال به على ان هناك سنة حسنة وسنة سيئة غير صحيح لان المقصود بالسنة هنا المؤسسات من اسس مؤسسة حسنة فله اجرها واجر من عمل بها : فمن حبس مسجدا او بنى مدرسة او مستشفى او حبس مالا يتصدق به على الضعفاء والمساكين او ما الى ذلك من هذه الاشياء فله اجرها واجر من اقتدى به الى يوم القيامة .

ومن سن سنة سيئة كمن حبس ماخورا او وضع مثلا شركة لبيع الخمور وابقاها من بعده لورثته اوسن سنة من السيئات كمن حبس على من يسافر للحضور في المواسم فهذه كلها سنة سيئة وقد افتى العلماء على ان مثل هذه التحبيسات لا تصح وانها توخذ ويصرف مالها صدقات على الضعفاء والمساكين لان المعدوم شرعا كالمعدوم حسا .

هذا ما يتعلق بالبدعة والسنة على مذهب السلفيين وقد وضحه وأطنب في بيانه الامام الشاطبي رحمه الله في كتابه : الاعتصام فعلى من شاء ان يتوسع في الموضوع أن يرجع لكتاب الاعتصام ، وقد لخصت البحث في هذا في كتابي مقاصد الشريعة في فصل البدعة والسنة فلمن شاء أن يرجع إليها .

اما مذهب غير السلفيين وهو مذهب جماعة من الفقهاء مثل الامام سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام والامام ابن غازي المكناسي من المغاربة فقد قالوا : ان البدعة تنقسم الى أقسام . البدعة المحرمة والبدعة المباحة والبدعة المستحبة والبدعة المكروهة قالوا : ان البدعة المستحبة كالادلة في المنطق التي وضعت بعد النبي صلى الله عليه وسلم في دراسة العلوم والمنطق فهي من البدع المستحسنة ، نقول لهم هذه بدعة ولكنها تدخل في قوله تعالى : " وقل رب زدني علما " هذا من قبيل العلم ، لانه لو كان صلى الله عليه وسلم موجودا لسمح بتعلم تلك العلوم بشرط ان يبتعد عن ما فيها من الفلسفات الملحدة ، وكل سنة في التعليم او في طريقة معرفة الاشياء فهي من قبيل السنة التي شرعها صلى الله عليه وسلم لان طلب العلم فريضة وقد قال لنا صلى الله عليه وسلم " اطلبوا العلم " وقد بين الامام الغزالي ان المقصود بالعلم ما يشمل العلوم بأسرها : العلوم التي يتعلمها الانسان لأداء الفريضة العينية والعلوم التي يتعلمها الانسان لأداء الفريضة الكفائية .

قالوا ان البدعة تنقسم الى أقسام : الى واجب ومحرم ومستحب ومكروه ، وان ذلك باعتباراندراجها تحت أصل من الأصول العامة فاذا اندرجت البدعة تحت قاعدة من القواعد الشرعية فانه يجوز لهم ذلك وتصبح بدعة مستحسنة . وهذا هو الذي جرنا الى اباحة

كثير من البدع كبناء القبب على المقابر وكالذبائح على القبور وكوقف النذر اليها ، وكاقامة المساجد في المقابر وغير ذلك من الامور التي يقولون عنها انها بدعة مستحسنة لان فيها الصلاة وفيها العبادة وفيها تكريم العلماء او الاولياء او ما الى ذلك .

فهذا الفقه الذي سار عليه ابن غازي والذي سار عليه عامة الفقهاء المغاربة أوضح الامام الشاطبي ومعه جماعة السلفيين الذين موقفه منهم " والمدرسة الشاطبية مدرسة مهمة عظيمة في الاندلس والمغرب ، وقد كانت تقابلها مدرسة محافظة معارضة لها هي التي كانت تقول بغير ما قاله الامام الشاطبي رحمه الله .

وعلى كل حال :

فنهج سبيلي واضح لمن اهتدى
ولكنما الأهواء عمّت فاعمَت

والنتيجة اذن أن المسلمين والعلماء والمفكرين ينبغي لهم ان يقاوموا البدع والمنكرات بكل ما يستطيعون اي البدع الشرعية وعليهم ان يقبلوا السنن وان يقبلوا العلم وان يطلبوه ويبذلوا كل ما يستطيعون في هذا السبيل .

ثم قال صلى الله عليه وسلم أنا اولى من كل مومن من نفسه من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فإلي وعلي . هذه الفقرة من الحديث الشريف فقرة عظيمة الاهمية ومن عجيب الدنيا أن الشراح لم ينتبهوا لما فيها من الأحكام الشرعية العظيمة مع انها تدلنا على عمل جليل كبير طالما نفذه النبي صلى الله عليه وسلم ونفذه سيدنا ابو بكر وسيدنا عمر ونفذه سيدنا علي وقبله سيدنا عثمان وكذلك

سيدنا عمر بن عبد العزيز وظالما نفذه كثير من الخلفاء المسلمين من بعد . وهو ما يتعلق بالضمان الجماعي في الاسلام لان هذه الفقرة من الحديث الشريف ترشدنا الى الضمان الجماعي ، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال : أنا أولى من كل مومن من نفسه ، هذه الفقرة تماثلت في حديث آخر في صحيح الامام البخاري : انا اولى من كل مومن من نفسه اقرأوا اذا شئتم " النبي أولى من المومنين من انفسهم ، وازواجه أمهاتهم " فمن ترك مالا أو عقارا فلأهله أيا كانوا ومن ترك دينا أو ضياعا فليأتني أؤد عنه " إلي وعلي " وقد بين الشراح حقيقة ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يجب عليه ان يؤدي دين من مات ولم يترك مايؤدي به الدين ، وكذلك نفقة عياله واولاده من بعده ، ولكننا اذا درسنا الموضوع دراسة حقيقية يجب ان ننظر للظروف التي مر فيها الاسلام بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة ، فكلكم تعرفون ان سيدنا عليه السلام حينما هاجر وهاجر معه اصحابه كان المهاجرون في حالة من البؤس والشقاء لأنهم تخلوا عن جميع أموالهم ولم يدفعهم الى الهجرة إلا إيمانهم ، فلم يك يربط بين المهاجرين وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رباط الدين والعقيدة فلم يكن هنالك رباط الأسرة لأن هنالك اناسا أسلموا ولم تسلم نسائهم وهناك مسلمات أسلمن وهاجرن ولم يهاجر رجالهن ، فقد وقع تفكك في الأسرة ، وضيع المهاجرون أموالهم وجاءوا الى المدينة المنورة ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم عالج ذلك بان آخى بين المهاجرين والانصار فلم ينزل مهاجر الا في بيت أنصاري ولم ينزل إلا بالقرعة لان عدد الذين كانوا يطلبون النزول اكثر من عدد الذين جاءوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك كان الانصار يلحون في النزول عندهم فكانوا يقترعون على نزول المهاجر عندهم ، فهذه الصفة خلقت بين المهاجرين والانصار مدا استثنائيا ليس عاديا وهو فورة الايمان القوية وذلك المد الاستثنائي

الذي لا يمكن ان يكون موجودا في كل الاوقات بصفة طبيعية استفاد منه صلى الله عليه وسلم وأخى بين الافراد وكانت هذه المآخاة تؤدي الى التوارث بين المتاخيين بحيث يرث بعضهم الآخر ، وكانوا يقسمون معهم أموالهم وكل ما يطلبون منهم ، ثم بعد ذلك وقع في المدينة المنورة نفس الشيء الذي وقع للمهاجرين الذين هاجروا لانه ليس كل السكان المدنيين اسلموا بل اسلم بعضهم وبقي بعضهم فوقع انقسام في العائلات وتقلقل فيها ووقع هنالك نوع الاضطراب الاجتماعي بحيث اصبح المجتمع المدني قائما على نوع من القلقلة وليس مستقرا كما هو العادة .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم حينما علمهم هذه المآخاة أعطاهم رباطا يترابطون به ، ولكن هذا الرباط كان في ذلك الوقت لايزال رباطا عاطفيا عقديا ولم يصر بعد الى ان يصير نظاما مستقرا ، فلما أفاء الله على المومنين بعد غزوة بدر بتلك السرايا المتعددة التي ارسلها النبي صلى الله عليه وسلم ولاسيما بعد فتح بني قينقاع والاستيلاء عليها تبدل الوضع الاجتماعي والاقتصادي للدولة وللامة التي خلقها سيدنا صلى الله عليه وسلم حينذاك نزل القرآن بالغاء اشياء كثيرة واراد صلى الله عليه وسلم ان ينظم الأسرة والمجتمع الاسلامي على أسس جديدة .

وهذا ما ترشد اليه سورة الاحزاب ولاسيما في البداية الاولى منها : قال سبحانه وتعالى " يأيها النبي اتق الله ، ولا تطع الكافرين والمنافقين ان الله كان حليما حكيما ، واتبع ما يوحى اليك من ربك ، ان الله كان بما تعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ماجعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما جعل ازواجكم اللائي تظاهرون منهن امهاتكم وما جعل ادعياءكم ابناءكم ، ذلك قولهم

بافواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ادعوهم لأبائهم هو اقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطاتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما ، النبي أولى بالمومنين من انفسهم ، وازواجه أمهاتهم ، وأولوا الارحام بعضهم اولى من بعض في كتاب الله من المومنين والمهاجرين الا ان تفعلوا الى اوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب مسطورا ، واذ أخذنا من النبيئين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم واخذنا منهم ميثاقا غليظا ليسال الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا اليما "

وسارت السورة في اشواط متعددة من هذا المعنى واختتمت بتلك الآية الشهيرة : إنا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فابين أن يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا ، فهذه السورة الكريمة ، بينت لنا ان النبي صلى الله عليه وسلم أُمر بتنفيذ نظام معين محكم في الاسرة وفي المجتمع ، فاولا الغى الظهار الذي كان معروفا في الجاهلية وبين طريقة الكفارة اذا وقع اليمين بالظهار وحرر المراة من التطليق من ذلك الظهار هذه الاولى ثانيا الغى التبني " ماكان محمد ابا احد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبئين " فوطد بذلك دعائم الأسرة زيادة على الاحكام الشرعية الاخرى ، فقرر استمرار الاسرة وثباتها الا في الاوقات التي اباح الشارع فيها الطلاق بصفة مشروعة ، ومنع التبني لتثبيت النسب وليبين للمسلمين ان الاولاد يجب ان ينتسبوا الى آبائهم ، " ادعوهم لآبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطاتم به " فصار نظام الاسرة مبنيا على هذه الطريقة وهذا الاساس ولابد من التاكيد على قيمة الاسرة في الاسلام ، لان الاسرة جزء من الضمان

الجماعي لابد منها على طريق الاسرة في الاسلام وان تبقى على هذه الصفة المنتظمة وان يكون الابناء منتسبين الى آبائهم وان تكون الصلة غير متخلخلة كما كانت من قبل .

ثم بعد ذلك عمد الى المآخاة التي خلقها النبي صلى الله عليه وسلم لاجل المصلحة لانها ليست في الجاهلية بل وقعت في الاسلام مآخاة بين المهاجرين والانصار وألغى تلك المآخاة التي تؤدي الى التوارث بين المتآخيين ، وجعل التوارث بين القرابة النسبية ليس الا ، وليس هنالك توارث بطريق المواخاة ، وبذلك رتب النظام الاسلامي على هذا الاساس : الاسرة المحكمة التي لأبنائها بابيها وأمها علاقة توارث وعلاقة نفقة وعلاقة استقرار وتضامن فيما بينها ثم جعل الامة كلها متكافلة فيما بينها ، وجعل النبي صلى الله عليه وسلم نفسه هو الوالي العام لجميع المسلمين ، فكل عائلة يقوم بها أهلها وتتضامن فيما بينهم ، ولكن الولاية العامة هي للنبي صلى الله عليه وسلم لا بصفته نبيا فقط بل بصفته رئيسا للدولة لانه صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت رئيس للمسلمين ، فقد أسس الدولة في المدينة المنورة بعد الفتح فصار هو رئيسا للمسلمين .

فقال صلى الله عليه وسلم انا اولى من كل مؤمن من نفسه ، وهذه الولاية تشمل ولاية المنهج بمعنى انه الأولى بان يرسم لنا المناهج التي ينبغي ان نسير عليها في حياتنا ، وان نسلكها ونتبعها في اعمالنا في اليوم والليلة فهو الذي يضع لنا التشريع واذا وضع ذلك صلي الله عليه وسلم أوأوحي اليه به فعلينا ان نتبعه وليس لنا ان نخالف في ذلك كما قال : صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تابعا لما جئت به " فهذا ما تشمله الولاية في وضع المنهج ، والسلوك والطريقة ويشمل كذلك مسالة الاتصال العاطفي

فلابد من محبة النبي صلى الله عليه وسلم محبة اكثر من محبة النفس ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لا يومن أحدكم حتى اكون أحب اليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين ، وجاءه سيدنا عمر ابن الخطاب مرة فقال له يارسول الله ، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي قال : لا ياعمر ، لا تؤمن حتى اكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر : الآن أنت يارسول الله أحب إلي من نفسي ، فقال : الآن ياعمر ، وهذه ليست كلمة يقولها عمر فقط ولكنها مرقاة من مراقي السمو والارتفاع الروحي بفضل مواجهته للنبي صلى الله عليه وسلم فقد حوله صلى الله عليه وسلم بهذا الامر الذي قال له الى ان يصبح رسول الله عليه الصلاة والسلام أحب اليه من نفسه وماله واهله ووالده وولده والناس أجمعين .

ثم بعد ذلك ياتي بما يتعلق بالولاية امر النظر فيما يتعلق بشؤون المسلمين ، فولاية الرسول صلى الله عليه وسلم عامة لكل مسلم بحيث اذا اصيب مسلم في نفسه او ماله او اصابته شيخوخة او عيلة او المراة التي تلد ولم تجد من يقوم بها او غير ذلك من الامور فسيدنا صلى الله عليه وسلم وليها وكذلك اذا لم تجد من يعقد عليها النكاح فالنبي صلى الله عليه وسلم وليها ، وفي الحديث " السلطان ولي من لا ولي له " هذا في العقد اذا لم تجد اولياءها المقربين عندها السلطان وليها او من يقوم مقامه وهو القاضي فالولاية العامة هي ولاية النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم بعد ذلك التكافل العام بين المسلمين قال تعالى :

" المومنون بعضهم اولياء بعض ، يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويوتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، اولئك سيرحمهم الله " المومنون المتكافلون بهذه الصفة فيما بينهم كما

ان الكفار يوالون بعضهم بعضا كما قال الله سبحانه وتعالى : الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير ، الا تتضامنوا مع اخوانكم المسلمين كما يتضامن الكفار فيما بينهم تكن فتنة في الارض وفساد كبير ، وذلك ما وقع بالفعل فان المسلمين لما تخاذلوا فشل امرهم واحتلت بلدانهم ودخل اليهود الى بلادهم المقدسة ، ولن يزول ذلك الا بتضامنهم وتكافلهم وتعاونهم : الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير .

هذا هو الشطر الاول من فقرة النبي صلى الله عليه وسلم النبي اولى بالمومنين من انفسهم ، وزاد ذلك ايضا بقوله تعالى : وازواجه امهاتهم ، بحيث ازواج النبي صلى الله عليه وسلم ايضا لهن صلة عاطفية بيننا وبينهم ، وهكذا يستقر نظام الاسرة النبوية كما يستقر نظام الاسر الاخرى في عهده صلى الله عليه وسلم .

ثم قال تعالى " واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله " فذووا الرحم فيمابينهم يتراحمون فيجب على الاب ان ينفق على ولده ، والولد على ابيه اذا كان يكتسب ويقدر على ذلك ، فان لم يكن شيء من ذلك ولم يقع هذا التراحم بالعجز عنه بين اولي الارحام فان الدولة تقوم به كما قال صلى الله عليه وسلم من ترك دينا او ضياعا فالى وعلي "

وهنا تاتي مسالة الضمان الجماعي ، ومن المعلوم ان هذه القضية اصبحت معروفة في العصر الحاضر وان ميثاق حقوق الانسان نص في المادة الخامسة والعشرين على ضرورة الضمان الجماعي وان كل واحد من العمال العاجزين او المرضى او الايامي او المترملين لهم الحق في الضمان الاجتماعي ووقعت بمقتضى ذلك تشريعات في بلدان

كثيرة من جملتها بلادنا فان عندنا نظاما للضمان الجماعي ، ولكن هذه الانظمة ويسمونها كذلك بالتامين الاجتماعي . تقوم على اساس ان طائفة من الناس ، من العمال او الموظفين مثلا " يدفعون قسطا من المال وتدفع الدولة قسطا وتقوم لهم بحاجات التمريض او حاجاتهم عند العجز بصفة مبلغ تقاعدي اوما الى ذلك ، كل بلاد تقوم بهذا بحسب انظمة خاصة بها ، وهناك ايضا نوع آخر من هذا التامين الذي يقع بطريق تعاونية فيما بين الناس بحيث تجتمع جماعة من الناس ويدفعون مبلغا من المال يتكاثفون فيما بينهم لاداء حاجاتهم التي يتوقفون عليها عند الضرورة وكذلك هناك بعض اصحاب المعامل يضعون بانفسهم ضمانا اجتماعيا لعمالهم بحيث يضع أصحاب المعمل قدرا من المال ويضع العامل قدرا ، هكذا اختلفت الانظمة في العصر الحاضر وسارت على هذه المناهج

ولكن الاتجاه الفلسفي الاجتماعي الموجود الآن في كثير من البلدان يسير الى النهج الذي قاله صلى الله عليه وسلم فقد بدأ في هذه الخمسينات الاخيرة ما يسمى بالمساعدة الاجتماعية ولم يعد يسمى بالتامين ولا بالضمان وانما يسمى بالمساعدة الاجتماعية وهذه المساعدة تقوم بها الدولة نفسها . بحيث هي التي تتولى امرها، وهي التي تنفق عليها من بين مال الدولة وميزانيتها .

هذا سبق اليه الاسلام في قول النبي صلى الله عليه وسلم من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا او ضياعا فالي وعلي .

واذا اردنا ان نفصل " اذا كان الوقت لا يزال قريبا لاباس ببعض الدقائق اذا اردنا ان نفصل الضمان الاجتماعي في الاسلام فينبغي لنا ان ننظر الى أسسه المبني عليها في الاسلام .

اولا : الاساس الاول هو وجوب العمل ، اوجب الشارع العمل على كل مسلم ومسلمة وكره البطالة وحرمها ، ولم يبح السؤال لأحد إلا للعاجز الذي لا يقدر على الكسب ولم يجد من يقوم به ، هذا القسم الاول ، فاذا قام كل واحد بعمله وادى واجبه على الشكل المطلوب ، فان كل واحد سيقوم بنفسه ولا يتوقف على الدولة ولا على غيرها .

وتاتي العائلة فيقوم ربها بسد حاجة عائلته من طريق الكسب الذي يكتسب به او طريق العلاوات التي تقع على وظيفته او على شغله الذي يشتغل به ، ثم بعد ذلك ياتي الضمان الاجتماعي الاسلامي فيسد ما بقي من الحاجات ، وكذلك المسائل التي يتوقف عليها كما قال صلى الله عليه وسلم لما جاءته امراة جعفر بن ابي طالب رضي الله عنه قالت له : يارسول الله ان لي يتامى ، فقال لها عليه السلام : اَلعيلةَ تخافين عليهم وانا وليهم في الدنيا والآخرة ، قال صلى الله عليه وسلم ذلك لا بصفته قريبا لجعفر المتوفى ، ولكن قالها بصفته رئيسا للدولة ، فهذا : اَالعيلةَ تخافين عليهم وانا وليهم في الدنيا والآخرة الى الاحاديث التي ذكرناها .

ومما يدل على هذا أن سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنه كتب الى عامله في مصر : ان اهتم بالطبقة السفلى من الجائعين والأيامى والارامل والزمنى اكتب لهم من بيت مالك واعطهم من صوافي مال المسلمين ، هذا الشيء الذي كتبه سيدنا علي بن ابي طالب لم يكن كلاما او فصاحة تبجح بها ، ولكنه امر امر به واليه بمصر ونفذه واليه في نطاق الوقت الذي كان واليا عليه ، فسيدنا علي بن ابي طالب كان يستن بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ابو بكر الصديق رضي الله عنه يقوم بهذا العمل ، فكان يفرض العطاء لكل واحد من المسلمين وماكان يفرق بين من كان قاتل مع النبي اوقاتله ،

بحيث كان يعطي لمن قاتله واسلم وللذي قاتل مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما جاء عمر قال : والله لا اعطي من قاتل النبي صلى الله عليه وسلم مثل المبلغ الذي اعطيه من قاتل مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع ذلك فقد فرض العطاء لكل واحد من المسلمين المحتاجين ، وكذلك زمن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وكذلك زمن سيدنا علي .

ولكن القضية تبلورت تماما وظهرت في شكلها ونفذت على وجهها تماما في زمن سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فقد قال يحيى بن سعد : بعثني عمر بن عبد العزيز لاجمع زكوات افريقيا فجمعتها وبحثت عمن اتصدق عليه بها ، فما وجدت احدا يقبل الصدقة لأن عمر اغنى الناس في افريقيا اي في تونس بحيث لم يجد احدا يقبل الصدقة لأن الاسلام اغناهم بالكسب الشرعي وبالطريقة الشرعية التي سنها صلى الله عليه وسلم قال فاشتريت بذلك جماعة من الإرقاء وحررتهم ، وهذا مذكور في التاريخ زمان عبد المومن ابن علي في المغرب فقد كانوا يبحثون عن من يعطى الزكاة فلا يجدون من يقبلها ،لأن الحالة الاقتصادية كانت قد ازدهرت في زمن عبد المومن ابن على حينما كانت توخذ الزكوات وهي التي يسمونها " النايبة " اليوم : وهي لم تكن النايبة . بل السعديون هم الذين سموها النايبة وانما كانت زكوات تجمع وتصرف في هذا السبيل ، واذا اردنا ان نذكر امثلة من العطاء الاجتماعي الذي اشتغل به الصحابة رضوان الله عيهم ، فناهيك بسيدنا عمر بن الخطاب ، لان انواع العطاء اما ان يكون الخصاصة الجثمانية ، واما ان تكون العينية يعني الفقر ازدياد العائلة واما ان تكون هنالك حادثة من حوادث السير ، فهذه الاشياء المثلاثة كلها ثبت من طريق الاسلام ان خلفاء المسلمين اعتمدوها واعتبروها ، فاما المسالة الجثمانية ، فقد راى سيدنا عمر بن

الخطاب رضي الله عنه يهوديا يسعى وهو عجوز ولم تبق له قدرة على الكسب ، فقال : ما حملك على السعي ؟ فقال له انني عجزت واطلب الجزية والكسب وما اكتفي به في شؤون عائلتي ، فاخذه سيدنا عمر رضي الله عنه الى بيته واعطاه من النفقة وقال لبعض خدامه : انظر في هذا وأضرابه فاعطهم ما يتوقفون عليه ، ولا يمكن ان ناخذ جزيتهم صغارا أقوياء ثم بعد ذلك نخذلهم وهم كبار ، والله تعالى قال : انما الصدقات للفقراء والمساكين وهذا من مساكين اهل الكتاب فاعطه ، سيدنا عمر لما سافر الى الشام مر بقرية للمجدومين من النصارى فامر بان يُعطَوا من الزكوات لأنهم لا ينفق عليهم منها ، من بيت مال المسلمين ، سيدنا عمر رضي الله عنه فيما يرجع للعيلة المشهور عنه رضي الله عنه ان ذهب في وقت سمع انينا من امراة تلد فنادى زوجته ام كلثوم وصاريها ودخل عندها وحمل طعاما اليها ودخلت ام كلثوم عند المراة وقبلتها حتى ولدت ، فقالت لعمر قل لصاحبك تعني زوج المراة : بشره بغلام ازداد عنده يا أمير المؤمنين فسمع الرجل لقب أمير المؤمنين فعرف ان الذي يخدمه هو عمر بن الخطاب فاكمل الطعام وأعطاه للزوجة حتى شبعت ثم أعطاه للرجل ثم قال للرجل جيءعندنا في الصباح فجاء فاعطاه مايسد حاجته هو وعائلته ،وكذلك سيدنا عمر رضي الله عنه مر بامراة وولدها يبكي فقال لها : لماذا يبكي ؟ أعطه الرضاع ، ارضعيه فقالت له لقد فطمته فقال لها لماذا وهو لا يزال صغيرا ، قالت لأن عمر لا يفرض لمن لم يفطم ، فانا افطمه لكي يقبض العطاء الذي يفرضه امير المؤمنين ، فقال لها لا ، اعطه ، ثم في الصباح خرج وخطب وقال : ثكلت عمرَ أُمّه . كم فطمت من ابناء المسلمين ، اما الآن فلا تعزلوا أولادكم من المرضاع ، فانني سافرض لكل مولود في الاسلام ، فلا يحتاج الى انتظار الفطام ، هذا من اعماله رضي الله عنه وله اعمال كثيرة فعلها ، وقد ذكر بعض الصحابة " طلحة " انه ذهب مرة وقد

رأى عمر يخرج ليلا فتبعه فرآه يدخل الى بيت امراة عجوز فانتظره حتى ذهب ، فدخل عند تلك المرأة العجوز . فقال لها ، ما يفعل عندك هذا الرجل ؟ فقالت ياتيني كل يوم بما يكفيني ويحمل عني أداي ، سيدنا عمر يحمل أدى تلك المرأة العجوز رضي الله عنه ، وهكذا في كل الاوقات كان الصحابةرضوان الله عليهم يقومون بهذه الواجبات .

ولو سلك المسلمون هذا المسلك في أوقاتهم وفي تاريخهم واستمروا عليه لكان المسلمون على حالة غير هاته الحالة ، ولكن نطلب الله تعالى ان يوفقنا لاتباع سنته صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين من بعده ، وان يرزقنا من أنواع الطاعة والمتوبة والعمل الكبير ما ينفعنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا وان يسلك بنا مسالك النجاة ، ويقينا من جميع العثرات ، ويصلحنا ويصلح بنا وان يرشد جلالة ملكنا ويصلحه ويديمه ويوفقه لخدمة الاسلام والمسلمين ويجعله على قدم اسلافه الصالحين ، وان يترحم على فقيد العروبة والاسلام محمد الخامس رحمه الله ويجزيه سبحانه وتعالى جزاء ما أعطاه لامته ولدينه وملته ، والله سبحانه ولي التوفيق . والسلام عليكم ورحمة الله .

الدّرس الثامن

في شرح حديث:

مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة

رمضان 1393 موافق 1973

الدرس الثامن في شرح حديث :

مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا في سفينة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم . اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الامي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا اثيرا الى يوم الدين .

اما بعد . فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

وباسانيدنا المتصلة بالشيخ الامام الحافظ الحجة الهمام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبة بن الاحنف البخاري الجحفي رضي الله عنه .ونفعنا بعلومه . آمين . قال :

حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثني ابي قال : حدثنا الاعمش. قال : حدثني الشعبي قال : سمعت النعمان بن بشير يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

مثل المدهن في حدود الله ، والواقع فيهاكمثل قوم استهموا في سفينة فصار بعضهم في اسفلها ، وصار بعضهم في اعلاها . فكان

---

(1) القى الزعيم علال الفاسي رحمه الله هذا الدرس بحضرة جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه ضمن الدروس الحسنية الرمضانية في رمضان عام 1393 موافق لـ 9-10 سنة 1973 .

الذي في اسفلها يمر بالماء على الذين في اعلاها . فتاذوا به . فاخذفاسا فجعل ينقر اسفل السفينة . فاتوه فقالوا : مالك ؟ قال: تاذيتم بي. ولابد لي من الماء . فإن أخذوا على يديه ، انجوه ونجوا انفسهم . وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا انفسهم "

هذا الحديث اخترنا منه هذه الرواية التي ذكرها الامام البخاري في باب حل المشكل بالقرعة . وهو حديث جرى على اسلوب من اساليبه صلى الله عليه وسلم القصصية . فهو في الحقيقة أقصوصة أو مثل ضربه النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين ليستفيدوا منه .

# # #

والقصة والا قصوصة والمثل من الاسلوب الحكيم المعروف عند العرب والذي استعمله القرءان كمثال هادف الى توضيح غايه يدعوا اليها او قدوة يعطيها او مثل يضربه ليتعط به القاريء والسامع ، "إن الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها "، وقد قال تعالى لنبيه :" نحن نقص عليك احسن القَصص "٠

وليست القصة اسطورة او حديث خرافة كما عَنَّ لبعض المستشرقين او اتباعهم ان يقولوا ، لان الاسطورة خبروثني باطل ليس فيه فائدة ، او على الاقل خيال لا يتمثل له وجود وقد يكون تطويرا لخرافة من خرافات الشعوب القديمة التي تتحدث عن تقاليدهم الوثنية واوهامهم في تاثيراتها ، ومن المعلوم ان اقدم الشعوب في هذا هم اهل بابل والفراعنة واليونانيون وكان للعرب في الجاهلية حديث خرامة زعموا ان صاحبه رجل اختطفه الجن فبقى عندهم زمنا ثم ارسلوه فصار يروي لهم خرافات مستملحة وانباء يتفكهون بها ، وقد روى الترمذي في الشمائل عن عائشة رضي الله عنها ان

النبي (ص) قص عليها حديث خرامة عن ام زرع ، وختمه بقوله لها انالك كابي زرع لام زرع غير اني لا اطلقك ٠

كان للعرب اذن حكايا واساطير من نوع الميثالوجية التي كانت عند غيرهم ، وذلك مايدل على بطلان مازعمه بعض الباحثين الغربيين حينما قالوا ان العقل العربي لا يجيد القصص لان للقصة أطوالا وحبكات لا ينهض بها عقل محدود ، وكان من الذين زعموا هذا رينان فاثر ذلك في بعض الكتاب العرب الذين اعتادوا اقتباس افكارهم من المستشرقين امثال الاستاذ احمد أمين في كتابه فجر الاسلام حيث قال عن العربي : ان خياله محدود غير متنوع ، وقلما يرسم له خياله عيشة خيرامن عيشته ، وهذاظلم فادح للعرب الذين كان لهم الفضل الاول في تعليم الحكايا والخرافات والاساطير المتعددة الى اوروبا في عهدها الوسيط ، على ان الجاهلية الثانية التي جاء على اثرها الرسول ص كانت قد تجاوزت عهد الخرافة البسيطة للشعوب العتيقة وانتقلت الى اسلوب مختصرمن الحكمة نجد في بعضه قصصا ذات تسلسل في ضرب الامثال غريب ، بل نجد القصة الشعبية قد بدأت في ذلك العهد كما في قصة بشر وقد صارع الاسد :

افاطم لو رأيت ببطن خبت
وقد لاقى الهزبر اخاك بشرا

ومهما يكن من امر العرب فان القرءان لم يشتمل الاعلى القصص الواقعية تاريخيا وعلى التي تضرب المثل للبلوغ الى هدف اسلامي صحيح ٠

وقد اندهش العرب لهذه القصص فحاولوا التنقيص من قدرها

لتسميتها اساطير فقالوا " ان هي الا اساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة واصيلا " وكانوا يزعمون ان رجلا اجنبيا في مكة ا وفي الشام كان يعلم النبي هذه الاساطير ، فرد عليهم القرءان بعدم امكان ذلك ، لان هذا الرجل المزعوم اعجمي والقرءان الذي يتلوه محمد ص عربي مبين ، وذلك قوله تعالى : (وقالوا انما يُعَلمه بشر، لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين)

ومع هذا التكذيب الصريح نجد في هذا العصر رجلا مثل السيد محمد خلف الله يؤلف رسالة عن الفن القصصي في القرآن لياخذ بها دكتورة الجامعة المصرية ، فيدعي ان القصة القرءانية لا تلزم الصدق التاريخي ، وانما تتجه كما يتجه الاديب في تصوير الحادثة تصويرا بينا ، وقد رفضت رسالته وحكم رجال الجامعتين المصرية والازهرية ببطلان ادعاءاتها لانه بنى ادعاءه على دعوى التناقض في رواية الخبر الواحد كالبشرى كانت لابراهيم او لإمرأته ولكن هذا في الواقع جهل بحقيقة التناقض لان البشرى لابراهيم بالغلام في آية سورة الحجر (فبشرناه بغلام عليم) وفي الصافات (فبشرناه بغلام حليم) وبشرت امراته في سورة هود في قوله تعالى : (وامراته قائمة فضحكت ، فبشرناها باسحاق ، ومن وراء اسحاق يعقوب) وذلك ليس تناقضا لانه لا يشتمل على اختلاف القضيتين في الايجاب والسلب اختلافا يلزم لذاته من صدق احدى القضيتين كذ ب الأخرى ، فلابد في التناقض من الاختلاف في الايجاب والسلب ، ولابد فيه من الاتحاد في المحمول والموضوع وقيود هما ، وليس في قصة الغلام مثلا اختلاف في الايجاب والسلب ، بل جاءت البشرى به في قضيتين موجبتين وليس في القضيتين اتحاد في بنود الموضوع والمحمول ايضا ومثل هذا ايضا ضروري في تحقيق التناقض والواقع ان في القرآن قصصا نصٌ على وقوعها فلا بد ان يكون فيها

الصدق التاريخي كقصة ولادة مريم التي يقول على اثرها لنبيه (ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم أيُّهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم اذ يختصمون) فالنص على انها من انباء الغيب يوجب صدقها التاريخي قطعا ٠

وفي القرآن قصص تجري مجرى الامثال ولا يلزم ان يكون لمحتواها واقع تاريخي كقوله تعالى : (ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون؟ الحمد لله ، بل اكثرهم لا يعلمون ؟)

وقد ذكر الزمخشري في الكشاف:ان النضر بن الحرث كان يتجر الى فارس فيشتري كتب الاعاجم فيحدث بها قريشا ويقول : ان كان محمد يحدثكم عن عاد وثمود فانا احدثكم عن رستم وبهرام وملوك الحيرة فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فنزل قوله تعالى في ذلك :

" ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ، بغير علم ويتخذها هزؤا ، اولئك لهم عذاب مهين ، واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كان لم يسمعها كان في اذنيه وقرًا فبشره بعذاب اليم)

واذن فالقصص القرآني كله حق ، وهو اما واقع تاريخي اوما مثل به من واقع الحياة يعلم الله به الناس مافيه خير لهم ومافيه ضرر عليهم ، ولقد قال تعالى " وبالحق انزلناه وبالحق نزل " وحينما نتلو القصص القرءاني ونقف وجها لوجه امام ما تعرضه من احداث نجد انفسنا في صميم الواقع الحق بجلاله وجماله ، ونسمع الله يقول : "وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما الا بالحق " واذا كان القران كله حقا ، وما يحتوي عليه صدقا ، فالحق والصدق هما مادة القران ومصدره الوحيد لا يعتريهما من الخيال وارد فلا يمكن ان يؤخذ

بمعيار القصة الانسانية الادبية ، اذا الله هو المنزل له وهو سبحانه منزه عن ما يتصف به الفنان من صفات الوهم والخيال ولو كان ينتهي الى صدق الهدف وحقيقة الغاية ، ولا يقصد القران من قصصه او آياته كلها الا توجيه الخطاب للناس لعلهم يعرفون الحق فيتبعونه ويدركون مسالك الهداية الربانية فيسلكونها " ان هذا لهو القصص الحق " المستمد من ضمير الغيب الموحى به من الله الذي يربي عباده بالحكمة وفصل الخطاب ٠

وقد ادى النقاش في هذا الموضوع الى بحث القصص القرآني طبيعته ومصادره فاصبح جزءً من علوم القران افردت له مؤلفات نافعة وابحاث قيمة ، وهو على كل حال جزء من الارتباط بين الله والانسان ٠

وهذا الارتباط يعني في مجمله التفاهم بين الله وبين الانسان ، ويتم هذا التفاهم كما قال الكاتب الياباني توشيهو كواير وتسو بنحوين احدهما لغوي او شفاهي ، ووسيلته اللغة البشرية المشتركة بين الطرفين والاخر غير شفاهي ووسيلته من طرف الله (الايات الطبيعية ، ومن طرف الانسان التكيف والتحرك بشكل معين ، والابتكار والابتداء في الحالتين طبعا بيد الله ، والطرف الانساني في هذا الارتباط له اساسا ميزة "رد الفعل "٠

ويقول توشيهو ان الوحي الذي يكون الجزءالبارز من الارتباط اللغوي بين الله والانسان ماهو الا جزء من المظاهر العامة التي بمجموعها تكون طرفا من مفهوم اوسع للارتباط بين الله والانسان ، ولهذا السبب يطلق الله كلمة (الايات) على الكلمات الموحاة ولا يفرق بينها وبين الايات غير اللغوية ٠

ويمضي الكاتب معتمدا على ان الآيات اللغوية او الشفاهية تشكل مجموعة خاصة ينطبق عليها المفهوم الفني للوحي اكثر من غيرها وكذا فانها من جوانب معينة ماهية وتركيبا من الايات غير اللغوية ، ويبني على ذلك اننا نستطيع ان نفصل كلمة الوحي ونبحثها بشكل مستقل ٠

ان الآيات القرآنية تعبر في المفهوم القرآني عن الآيات والرموز الشفاهية وغير الشفاهية ، والنوع الشفاهي أدق من النوع الآخر باعتبار أنه إدراكي أو تصوري ، فهي تعبر عن الإرادة الإلاهية بشكل منفصل محض ، أي أن ما يريد أن يقدمه الله للعقل البشري ينجلي بصورة تحليلية متعاقبة قد روعيت فيها الدقة الإدراكية الممكنة ، في الإلقاء ، بينما تنجلي الإرادة الإلاهية في الارتباط غير الشفاهي بصورة كلية لا بشكل تحليلي ٠

إن تحليل وفهم معنى الآية يتوقف على توضيح هذا الإصطلاح في حقل معرفة المعنى حيث ينبغي معرفة المراد من هذا الاصطلاح الاساس والاصطلاحات المرتبطة به ، وبعبارة أخرى ينبغي التحقيق في الكلمات التي لها أهمية قطعية والتي تحيط الكلمة المركزية (الاية) حيث تعتبر مفتاحا لها ، ولذلك فالاهم هو التوجه الى رد فعل الانسان تجاه الايات الالاهية شفاهية او غير شفاهية لانه اما تصديق او تكذيب ٠

وبالاختصار يمكن ان نقول :

1/ ان الله ينزل الاية

2/ ان رد فعل الانسان اما ان يكون تصديقا او تكذيبا

3/ التصديق يؤدي الى الايمان والتكذيب الى الكفر

ومعنى هذا ان الارتباط اللغوي بالله محتاج الى رد الفعل عند الانسان ، ورد الفعل لا يكون الا بالتصور والادراك الذين لا صدفة معهما • فاذا لم يدرك الانسان معنى الاية او الخطاب الالاهي لم يكن لهذه الاية فائدة في الواقع بالنسبةللانسان لذلك قال الله تعالى :(قد بينا لكم الايات ان كنتم تعقلون) فالاثر الايجابي للاية انما يظهر عند تفهم الانسان العميق لها ، ومن هنا يكون الجانب البشري موضوع البداية • وقابلية البشر في اداء الاعمال المختلفة التي بينها القران هي المعبرة عن الجوانب المختلفة للفهم ، ومنبع هذه الاعمال في التعبير القرآني هو الفهم الانساني في قابلية نفسه وهو ما يطلق عليه اسم اللب او القلب •

والقلب يتلقى معظم الايات كرموز لشيئين متضادين ومتقابلين ، رمز للخير والمحبة اللامتناهية والرحمة واللطف الالاهي والبعض الاخر دلالة على غضب ونقمة وشدة العذاب الالاهي • والحالة الاولى تبشير والثانية انذار •

ويقول الكاتب الياباني ، ان حقل مفهوم الاية مثال واضح على حقيقة الحقل اللغوي والفرق بينه وبين التركيب الا تفاقي او التصاد في • اذ لامكان للصدفة في الحقل اللغوي •

فكل تركيب يدخل في هذا الحقل هو اساسي ، لانه يمثل جانبا خاصا من المفهوم العام • ولا ينبغي ان نفهم ان الكلمة التي تدخل في هذا الحقل ليس لها مكان في حقول لغوية اخرى فكلمة واحدة يمكن ان ترتبط عادة بعدة حقول ، فكلمة القلب لا تدل على مكان التكذيب والتصديق فحسب ، بل مكان لفعاليات اخرى ايضا وكلمة العقل لا تدل على فهم الايات الالاهية لكنها حين تستعمل في حقل الايات

فانهاتكتسب معنى لغويا خاصا من ارتباطهابسائر اجزاء هذا التركيب ٠

فالارتباط اللغوي بين العبد وبين الله له حقوله العديدة هي معنى الوحي في المفهوم الاسلامي اي الوحي اللغوي اما الوحي غير الشفاهي غير اللغوي فهو الكون وماحوى ، انه كله رمز يفهم منه الانسان المدلول الذي يمكن ان يفهمه من الاية ، فالاية بمعنى العلامة ، اشارة الى ما يمكن للانسان ان يعرفه بسببها ، فعلامة المرور في الطريق لا توضع لمجرد التامل فيها واستحسان كيفيتها بل توضع لتدل على الطريق التي يجب ان يسلك منها السائق او المحل الذي يجب ان يقف عنده ، وهاكذا فالارتباط الانساني بالله شفاهي وتدخل فيه الايات الموحاة الى الانبياء لتبليغها للبشر ومنها القصص الحق ، والارتباط غير الشفاهي بطريق الايات التي نصبها الله في الكون دلالة عليه وارشادا لارادته وهديه ، وكلاهما متوقف على رد الفعل الانساني ٠

كان لابد لناان نتعمق في فهم معنى القصة والخطاب اللغوي بين الله وبين العباد ، لنعلم انه ليس هنالك تشابه بين اتصالنا بالله وبين خطابنا لبعض بالاسلوب التركيبي التصادفي ، وقد استعنا بمقتطفات من البيان الذي اعطاه المفكر الياباني عن الارتباط اللغوي بين الله وبين الانسان، حسب نصوص القرآن ، والكاتب الياباني وان لم يكن مسلما فقد بحث الموضوع باسلوب كامل الموضوعية والنزاهة ٠

لمس النبي (ص) الاسلوب القراني في الخطاب ولا سيما في القصة ، فجعل من وسائل دعوته عليه السلام الاقصوصة وضرب المثل والقصة الاخبارية اي التي تكون عبارة عن عرض سرد قصير لواقع ما ، وكان ذلك من الاسلوب الحكيم في الادب النبوي الشريف ٠

واذا كان القصص القراني دالا في الغالب على وقائع ثابتة تاريخية او امثالا انزلها الله بالحق وبالحق نزلت ، فان اقاصيص النبي ص وان كان لا ينطق عن الهوى قد تكون اخبارا عن واقع تاريخي ايضا لا يمكن معرفته الا من طريق الوحي ٠ وهذه لا شك من قبيل قصص الانبياء الثابتة ، واما ان تكون فكرة يريد الرسول تبليغها للناس في ذلك الاسلوب الاقصوصي الذي يسلك طريق الايحاء في اقناع الانسان بمحتواها من امر او نهي ، بشارة او انذار ، وفي كلتا الحالتين فان الرسول يستعمل فيهما اسلوب القاص الهادف عن طريق الوحدة الفنية التي يشخصها القاص بصور مختلفة وشخصيات مبتكرة ، واحداث تتلاحم خيوطها حتى تصبح حبكة مترابطة لنسيج متماسك ٠ومعلوم ان الوحدة الفنية هي الفكرة الاصلية التي يحاول القاص المفتن ان يتقن ابرازها ونجاحه في ابرازها دليل على وضوحها كلا وبعضا في نفسه لانه بذلك يمكنه ان يعبر عن مقاصده ويخرجها في جمل واضحة معبرة بلا غموض ولا ابهام وقد نجد في القصة الواحدة افكارا متعددة ولكنها تتسلسل فيما بينها فتكون بمثابة تداعي الافكار المتلاحمة التي تحفظ كيان القصة في مجموعها ، وقد تبرز الاقصوصة النبوية في شكل حوار او مثل ولكنها مع ذلك تجعل السامع لها يدرك ان اسلوبها من باب الاقصوصة المعبرة ٠

ثبت في السنة النبوية اقاصيص صحيحة عديدة لو جمعت وشرحت لابرزت نوعا من الفن الاسلامي من خلال الادب النبوي ، واني لمخصص لها الان دفترا خاصا بجمع ما امكن جمعه من هذه الاقاصيص والامثال النبوية لنشرها وشرحها ان يسر الله ٠ (1)

وقد اخترت في هذا الدرس اقصوصة " مثلا " رايتها اوفق ما تكون لظروف المجتمع الاسلامي وما يستوجب من تضامن بين دوله وشعوبه ، وضمان جماعي على حكوماته ودوله ٠

هذا الحديث هو ما سبق ان تلوناه ، رواية عن الامام البخاري بسنده الى النعمان بن بشير قال : مثل المدهن الخ ٠

ويبتديء الحديث بذكر الممثل له وهو المدهن اي المنافق الساكت عما يرى من منكر فلا ينهى عنه ويعامل أصحابه بنفس ما يعاملونه به وهو مثل قوله تعالى : في سورة نون : ودُّوا لو تدهن فيدهنون ، اي تمنى المشركون ان يراعيهم النبي ويسكت عن اعمالهم فيقابلونه بمثل ذلك من المداهنة والسكوت على ما يدعو اليه من دين او يقيمه من شعائر ، وهذا نوع من ما مثل له اما النوع الثاني فهو الذي يقع في حدود الله بانتهاكها وخرق حرماتها فهو يحاول خرق السفينة واغراقها مثلا وذلك تجاور للحدود ومساس بحق جيرانه وتعريض بالنفس وبالاخرين للهلاك ، والممثل به هو هذا النقر الذي يعمله احد المشاركين في السفينة وموقف الاخرين منه ،

---

(1) هذا الدفتر سماه رحمه الله : أمثال واقاصيص من كلام الرسول صلعم . وقد جمع فيه 26 حديثا منقولة من كتب السنة المشهورة عن الصحابي الذي يرويها عن رسول الله صلعم . وهو بخزانة مؤسسة علال الفاسي تحت عدد : ع خ ـ 6.

فان ضربوا على يديه نجا ونجوا والا هلك وهلكوا ، واذن فالفكرة التي تقوم عليها الاقصوصة هي ضرورة التضامن بين الناس لصلاح مجتمعهم،ووجوب الضمان الاجتماعي الذي يتجلى في تغييرالمنكرو منع الناس من ارتكابه وعدم اقرارهم عليه لو ارتكبوه ، واثناء عرض الفكرة يبدوا المثل جليا واضحا يتضمن احكاما شرعية وينتهي بالنتيجة التي هي الفكرة التي بنيت عليها الاقصوصة ، فالاساس المقصود اثنان :

الاول الوقوف عندماحده الله وشرعه وعدم الوقوع فيه وانتهاكه ،
الثاني ضرورة المصارحة بتغيير المنكر وعدم الادهان للذين لا يقفون عن الحد ويقعون في انتهاكه ،

لقد جاء الاسلا م عقيدة وشريعة واوجب علينا ان نومن بعقيدته دون ان نلحد فيها او نخرج عن جزء من اجزائها فالله واحد احد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا احد ،

وهذا الاعتقاد هو نتيجة الارادة الالهية التي لا ترضى لعباده سبحانه الكفر (و لايرضى لعباده الكفر) وهي واحدة في كل الاديان السماوية التي ارسل الله بها رسله للناس مبشرين ومنذرين ، وقد ورد في الصحيحين عن النبي ص انه قال: (انا معشر الانبياء ديننا واحد ، والدين هو الاستسلام لله وحده .قال تعالى "ماكان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ، وماكان من المشركين).

وتستتبع العقيدة الشريعة التي هي حقيقة الاسلام فلا يتصور الاستسلام الا بطاعة الله فيما امر به ، ونهى عنه ، والشريعة مختلفة بالنسبة للانبياء وان اتحدوا في العقيدة ،قال تعالى : (ولكل جعلنا منكم شرعة ومنها جا) فكل امة ملزمة باتباع شريعة نبيها ،

ونحن في الاحرى ملزمون كذلك بطاعة الله ورسوله في الشريعة الاسلامية قال تعالى : (ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ، ولا تتبع اهواء الذين لا يومنون ، انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وان الظالمين بعضهم اولياء بعض والله ولي المتقين)٠

والشريعة هي الاسلام كما قلنا ، وهي علانية بخلاف الايمان الذي هو باطني ، عن انس عن النبي ص قال : (الاسلام علانية والايمان في القلب) رواه احمد في مسنده ،وفي حديث جبريل الطويل المشهور سؤال عن الايمان والاسلام والاحسان ، وقال النبي بعد اجوبته ان هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم ، قال ابو عبد الله البخاري يجعل ذلك كله دينا ٠

وبما ان الظاهر علامة الباطن فمن لم يقم بشرائع الاسلام علانية لم يتحقق امر ايمانه الباطني ، لان الايمان كما يقولون : اقرار بالجنان ونطق باللسان وعمل بالاركان ٠

ولم يجب الايمان ولا ما يترتب عليه من شريعة واسلام الا بعد ان بعث الله الرسل ليبلغوا للناس رسالات ربهم ولعلهم يهتدون قال تعالى : (انا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح والنبيين من بعده ،واوحينا الى ابراهيم واسماعيل ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داوود زبورا ، ورسلا قصصناهم عليك من قبل ،ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما ،رسلا مبشرين ومنذرين ليلايكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقد جعل الله اتباع هذه الاوامر وطاعة الرسل سبيلا لنجاةالافراد والشعوب كما جعل عصيانهم موجبا لهلاكها وعقابها في الدنيا والاخرة ، قال تعالى : وماكان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا يتلوا عليهم آياتنا)

وام القرى هي مكة المكرمة وقد بعث الله فيها رسولا يتلوا على الناس آيات الله فوجب عليهم الايمان بانه الرسول من عند الله ووجب عليهم ان يطيعوه فيما امر به او نهى • سواء كان ذلك من لفظ الخطاب الالاهي الذي هو القرآن او من حديث الرسول الذي هو البيان الملزم والذي لا يتم فهم الخطاب الالاهي الا به ، وهذه الشريعة التي وجب اتباعها ذات حدود وقواعد واحكام ولا يجوز ابدا خرق الحدود او الاعتداء عليها ، قال تعالى : (ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) وقال (تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون)

وبنى المعاملات بين الناس والحكم الذي يقع في امرها على ما شرعه الشارع وحدده ، قال تعالى : "ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون ، وقال تعالى : "ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون" وقال تعالى : " ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون " فالعدول عن الحكم بالشريعة يعد في القران كفرا وظلما وفسقا ، هو كفر لان رد الفعل الانساني لامر الله هو القبول او الرد الاول هو الطاعة ومالها الايمان ، والثاني العصيان وماله الكفر ، وهو ظلم لان العدل هو ما جعله الشارع عدلا ، ولو صادف الحكم بالراي العدل لكان في الواقع ظلما لانه تطبيق على المحكوم له او عليه قانون غير القانون الذي يومن به وتخضع له نفسه ، وهو فسق لانه خروج عن اوامر الله من قولهم فسقت النواة من الثمرة اذا خرجت ، ولذلك اعتبر القرآن الحكم بغير ما انزل طاغوتا وجبروتا ، قال تعالى : "الم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما انزل اليك وما انزل من قبلك ، يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا أن يكفروا به ويريد الشيطان ان يضلهم ضلالا بعيدا ، واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول رايت المنافقين يصدون عنك صدودا) •

وقد اعتبر القرآن اتباع القانون الخارج عن الشريعة شركا فقال : (ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم ياذن به الله) والمقصود بالشرك هنا الشرك في الربوبية لان التشريع من وظيفةالرب سبحانه يربي به عباده ، وهو قسيم الشرك في الالوهية الذي يعتبر اتخاذا لإله مع الله ، وقد قال تعالى في حق اهل الكتاب : (اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح بن مريم) وقد فسر ابن عباس الاية على معنى ان اولئك النصارى واليهود اتخذوا احبارهم ورهبانهم مشرعين لهم من عند انفسهم فكانوا يحلون لهم الحرام فيطيعونهم ، ويحرمون عليهم الحلال فيطيعونهم ، فاعتبر الله سبحانه تلك الطاعة في التحليل والتحريم عبادة لهم ، والا فهم لم يعبدوهم بمعنى السجود والركوع لهم مثلا ، وهذا معنى اتخاذ الشركاء للرب يشرعون مالم ياذن به الله وطاعتهم في ذلك مشاقة لله وللرسول كما قال تعالى :(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المومنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) وقال تعالى :(ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) وقال تعالى : (إن الذين يحادون الله ورسوله اولئك في الاذلين) وقال تعالى : (الم يعلموا انه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزي العظيم) والخروج عن الشريعة الاسلامية يعتبر بمثابة البغى والحرابة وقد قال تعالى في ذلك : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفوا في الارض ، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الاخرة عذاب عظيم)

واعتبر الشارع مجاوزة الحدود خيانة لله وللرسول وللامانة فقال : (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وانتم تعلمون)

ان هذه الايات المتعددة كلها تبين قيمة الوقوف عندما حده الله وشرعه ، وتبين الاوصاف والعقوبات التي يستحقها مرتكب ذلك ، فهو في الكافرين والمشركين والظالمين والفاسقين ، وهو في الاذلين والخائنين ، والمشاقين المحادين لله ورسوله ، وهو في البغاة والخارجين عن طاعة الجماعة ، وعقوبتهم عقوبة البغاة كما بينا ذلك كافراد عاصين يستحقون العقاب الدنيوي والاخروي ، اما اثر ذلك في نفوس مرتكبيه ، فهو ما يقول عنه سبحانه في كتابه الكريم ، (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون انهم مهتدون ،) ولا يزال هذا القرين يضلله ويحبب له العصيان والفساد حتى يتمنى ان لو وجد ما يخلصه منه ولكن انى له ذلك ، لان عمله الفاسد خلقه له ولا يزول الا بعمل يمحو به كل سيئاته ومثلاته ، انه يقول : (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين)

وهذه المصائب التي تحل بالافراد تعم وتنتشر فتصيب الامة جمعاء فيحل بها من الشقاء والعناء ما لا تستطيع له دفعا ، قال تعالى : (وقد اتيناك من لدنا ذكرا ، من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا) وقال تعالى : (وان لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء عدقا لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذابا صعدا) وقال تعالى : (ومن اعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة اعمى قال رب لم حشرتني اعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال كذلك اتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من اسرف ولم يومن بآيات ربه ولعذاب الا خرة ا شد وابقى .) وعلى عكس هؤلاء ، فان المطيعين المتحاكمين لشريعة الله الذين يعملون الصالحات يحيون الحياة السعيدة الرغدة ويلقون المجزاء الاوفى قال تعالى : من عمل عملا

صالحا من ذكر او انثى وهو مومن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ماكانوا يعملون)

تلك هي سنن الله التي بينها كتابه في المقيم لكتاب الله الواقف عند حدود شريعته • وفي الواقع فيها الخارج عنها ، فكيف يمكننا ان نشتكي من ما حل بالمسلمين بعدما علمنا ان من اعرض عن ذكر الله يحيا حياة ضنك ويحشرا عمى ؟ ماذا حل بالمسلمين اليوم بعد كل ما عرفوه من امر دينهم ؟

ومن الذي اوقعهم في هذا النوع من الردة او ما يقرب منها بخروجهم عن حدود الله وابتعادهم عن اقامة شعائره ؟ واستبدالهم احكامه بقوانين اجنبية ما انزل الله بها من سلطان ؟

لا شك ان العالم الاسلامي لو ترك لنفسه لتنبه من يقظته وتفجر من ذاتيته طريق الثورة على التخلف والعمل على التقدم ، ولكان له من رجاله من يعيد لهم امر دينهم لاسيما بعد ان بدات ملامح ذلك في حركة ولي الله الدهلوي في اقصى المشرق ، والثورة الوهابية في نجد ومن تاثر بها من كبار المصلحين مثل جمال الدين الافغاني ، ولكن الاجنبي المستعمر لم يترك المسلمين لانفسهم وهاجمهم في عقر دارهم بوسائله الجهنمية التي كان قد تفوق بسبب اكتشافه للبخار وفتحه طريق امركا وبداية نهضته الصناعية التي تبحث عن المواد الاولية وعن الاسواق ، وقد اضل جل ديار المسلمين وشغلهم بمقاومته عن انفسهم وعن العمل على اصلاح شؤونهم ، واحياء مجتمعهم على الاسس الاسلامية الصحيحة وعلى ما يتفق معها من تطورات العصر وحاجاته •

ولم يكن الاحتلال الاجنبي ماديا فقط بل كان ذلك روحيا ولغويا وخلقيا ، وساسة المستعمرين لم يعمدوا مباشرة الى دعوة المسلمين للتخلي عن دينهم ولغتهم واخلاقهم بل تركوا ذلك لجهازهم الاجتماعي المركب من المبشرين ودعاة الافكار المختلفة وكان همهم الوحيد قبل كل شيء ان يحلوا لغتهم في التعليم والادارة والحياة العامة محل اللغة الوطنية لما للغة من تاثير على الفكر وتوجه نحو دلالات الكلمة الاصلية وما يتولد عنها من افكار هي في الاصل وليدة المجتمع المسيحي الاجنبي ، وكذلك كان همهم مسلطا على القضاء على القوانين الاسلامية واحلال القانون الاجنبي محلها ووضع محاكم قائمة على نفس الفلسفة القانونية والفكر الاجتماعي الاجنبي .

وهم لم يخطئوا في خطتهم تلك لان اللغة اساس الكيان الوطني ومعجم الروح والفكر والتقاليد الاهلية ، والفقه الاسلامي وحده الذي احتفظ بالفكر الاسلامي الخالص الذي لا تشوبه تاثيرات شرقية ولا غريبة لان كل علوم العرب اخذت من غيرها واعطت واستمدت بما في ذلك علم الكلام المتاثر في مناهجه بالمنطق اليوناني والفلسفات القديمة ، اما الفقه فهو جماع اجتهادات الائمة المسلمين وفقهائهم ومذاهبهم واتِّبَاعها ومصادره المقطوع بها هي الكتاب والسنة وما ترتب عنها من اجماع وقياس ومصالح مرسلة واستحسان ومقاصد الشريعة ومكارمها ، كل هاتيك المصادر داخلية لم تتاثر بالرومان الشرقي ولا الغربي ولا بعادات الامم التي فتحها المسلمون بل هي التي كانت تؤثر في الجميع وتؤسس المجتمع الوحيد القائم على القانون الشرعي المطبق على المسلمين وغيرهم من كل المتساكنين في ديار الاسلام .

كانت خطة المستعمر الجهنمية هي فصل المسلمين لا عن عقيدتهم التي هي صلة روحية بين الله وبين العبد ولكن عن شريعة الاسلام واخلاقه التي هي عنوان العقيدة الحق والدليل عليها ، فلم ينتبه المسلمون الا ولغة ثقافتهم اجنبية وتعليمهم اجنبي والقوانين التي يمشون عليها ويتحاكمون اليها اجنبية ٠

وقدشغلهم النضال السياسي وما استوجبه من تضحية واستبسال ومن خطط وتحديات ، واتصال باحرار الفكر في الغرب عن ان يبحثوا امورهم الداخلية وينتبهوا لما كان المستعمر يغرسه في نفوسهم وفي عقول شبابهم عن طريق المدرسة والكتب ووسائل الدعايات المختلفة ، فما وصلوا الى الحصول على الاستقلال السياسي حتى وجدوا هياكل الدولة وقواعدها وفلسفتها مستقرة لافي بلادهم فقط بل حتى في عقولهم وفي انفسهم ، لقد استطاعوا ان يحرروا الوطن سياسيا ويجلوا الاجنبي عنه عسكريا ولكنهم وجدوه قد احتل عقولهم وقلوبهم وملك عليهم نفوسهم فلم يعودوا يفكرون الا في اتباع مناهجه والاستفادة من اتجاهاته على انها مثال الحضارة وعنوان التقدم ، غير مفرقين بين ما هو من قبيل التقنيات والتنظيمات التي لا يضر ان تؤخذ عن اي كان ، وبين ما هو من قبيل الاصول العامة للمجتمع الاسلامي التي لا يمكن ان تجدد بغير مصادرها الاساسية او تتطور في غير اطارها الشرعي الاسلامي ٠

والان اذا نظرنا الى العالم الاسلامي في حالته الحاضرة بقطع النظر عن الهيمنة الاجنبية السياسية والاقتصادية التي ما تزال قائمة مستقرة وما يزال يحاول الكفاح لاقتلاع جذورها فماذا نجد في مجتمعه الجديد من صفات المجتمع الاسلامي الذي امر الله ان نبني عليه كياننا ونملأ به هياكلنا ؟

لاشك اننا سنجد جهلا مطبقا بعلوم الاسلام ولاسيما بكتاب الله وسنة رسوله وما فيهما من العبر والايات ، ويترتب على ذلك بالطبع جهل بقانون الاسلام وشريعته ، وتاريخه وباللغة العربية واسرارها وآدابها ، ثم تفاوت في المعرفة السطحية بما عند الغرب من علوم واداب ، وفي التمسك بما سنه المستعمر من قوانين وانظمة خلق منابها جماعات وافرادا على صورته ، واقتناعا بان مذاهب الغرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية عنوان التقدم وان اختلف الحكم على انواعها والوانها نجد في وسطنا افتراقا في الراي مبنيا على افتراق الاجانب فكل منا يتبع فئة او مذهبا او حزبا ، فاذا دعوت الامة او الافراد الى الرجوع الى اسلام الكتاب والسنة واعتبارهما المقياس لكل ما ينبغي ان نستفيد من الغير لم تجد مستجيبا الاقلة من الناس لا يؤبه بهم ، ونسب اليك التخلف الفكري والجمود في الراي وفي الاتجاه .

هذه حالة المسلمين اليوم ، فاذا نحن عرضناها على ما سلف ان ادلينا به من الايات البينات والاحاديث النبوية في وجوب الطاعة لله وشريعته والتمسك با لاستقامة على الطريقة الحنيفة السمحة فبماذا نحكم على المسلمين ؟ اما يحق لنا ان نتساءل أفي هذا ما يمكن ان يسمى ردة او الحادا ؟او على الاقل انحرافا شاسعا عن منهج الاسلام وتعاليمه ، ولولا انه ما يزال معظم المسلمين يقرون لله بالالوهية ونبيه محمد ص بالرسالة لقلنا ان الجميع ارتد وصار خارج حدود الاسلام ، ولكن الاحتياط في عدم اخراج احد من اهل القبلة من الدين بمعاصيه يجعلنا نكتفي بوصف حالنا بانه تخل عن معظم تعاليم الدين وتناس لما اوجبه الله على المسلمين ، واعراض عن الهدي النبوي الذي هو الحق المبين ، وقد قاتل ابو بكر الصديق فئة من المسلمين لمجرد رفضهم اداء الزكاة التي هي احدى

اركان الاسلام وسمى اولئك الرافضين بالمرتدين ، فماذا يقول المفكر الاسلامي والمجتهد في تطبيق احكام الشريعة حين يرى الرفض لكثير من الاحكام والواجبات الشرعية ؟

اما العقاب الذي توعد الله به من يتخلى عن شريعته ويعش عن ذكر الرحمن ويابى الامتثال لامر الله وهو الذي تجمعه هذه الاية ، (ومن اعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) فقد رايناه ، حالا بالعالم الاسلامي ، فكل شعوبه الا المترفين منهم يحيون الحياة الضنك ، وكل اراضيهم مهددة بالاحتلال الاجنبي او محتلة بالفعل ، وكل اقتصادياتهم تحت هيمنة راس مال الجماعات او الافراد او الحكومات مهما كانت انظمة اولئك المهيمنين ، واماكنهم المقدسة واجزاء عظيمة من بلادهم تحت يد الفئتين التين اخبر القران انهما اشد الناس عداوة للذين آمنوا ، وهم اليهود والوثنيون ، ففلسطين في يد الصهاينة من الاسرائليين ، وكشمير واجزاء من بلاد الهند الاسلامية التي منها الباكستان الشرقية في يد الوثنيين الهنود عباد البقر وحلفاء الامبريالية الشرقية والغربية ، فهل ندرك لماذا نحن في هذه الحال ؟ وهل نعلم لماذا عمنا هذا النكال ؟

الجواب على ذلك نجده الشطر الاول من الممثل له في الاقصوصة النبوية وهو المدهن الواقع في حـــدود الله ، سكوت معظم المسلمين عما يرتكبه اعيانهم ووجهاؤهم وبعض حكامهم من هذه المعاصي الاجتماعية الكبيرة ، مع انهم مكلفون بان لا يسكتوا عما يضر بالاسلام او يعرض امته للخطر والاستسلام .

ان المثل النبوي يبين انه ليس هنالك فارق بين من يرتكب المعاصي والموبقات وبين من يسكت عنها ، لان من سنن الله الكونية التي ابانها القران الكريم ان الذنوب الاجتماعية اي التي لا تكون خاصة بالفرد بل من شانها ان تعم للمجاهرة بها او لاذاعتها بالقدوة وربما حتى بالفعل لا يعاقب الله مرتكبيها فقط بل يعاقب معهم من لم يرتكبها ، والذي يشرح فكرة الذنوب الاجتماعية هو قوله سبحانه : (ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين امنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والاخرة والله يعلم وانتم لا تعلمون) ومعلوم ان هذه الاية نزلت في الذين تولو كبر القذف للحصان الرزان السيدة عائشة رضي الله عنها ، فكان الله يقول لنا ان الذين ينسبون الى الشخصيات المومنة التقية الزكية ارتكاب الفاحشة يحبون ان يعتقد الناس فيهم ذلك ، فياخذونهم مثلا، يقولون اذا كان فلان وهو من هو علما ودرجة في الدين يرتكب تلك المعاصي فلماذا ساكون انا غريبا في تصرفي وهكذا تشيع الفاحشة في المومنين فلا يعودون يرون في الايمان عائقا عن العمل الممنوع ، مع ان من شان الايمان والعبادة ان تنهى المومن المصلي عن ان يرتكب ما يتنافى ومقتضيات ايمانه وصلواته قال تعالى : (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر)

فاشاعة الفاحشة يكون بالقول ويكون كذلك بالسكوت عن فاعلها وعدم نهيه عن ما يفعل ونصحه بالرجوع الى ما يفرضه عليه ايمانه ودينه ، فان امتنع عن سماع النصح فيجب ان يبتعد عنه فلا يجالسه ولا يكالمه ولا يعامله الا بما يعامل الفاسقون ، يدل على هذا قول الله تعالى: واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) ومعنى الاية ان السكوت على ظلم الظالم يوقع في الفتنة العامة التي لا تصيب الظالمين وحدهم بل تصيب معهم الذين لم يضربوا على ايديهم وقال

الله تعالى عن بني اسرائيل (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبيس ماكانوا يفعلون ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبيس ما قدمت لهم انفسهم ان سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون)٠

وقد روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس ان الله تعالى نهى بني اسرائيل ان يصيدوا السمك يوم السبت فاحتالوا على صيدها سرا زمنا طويلا حتى صادوها علانية وصار القوم ثلاثة اصناف ، صنف منهم خالف الامر وانتهك حرمة الله ، ومرد على المعصية ، وصنف غيروا المنكر فيهم ونهوهم عما كانو يصنعون ، وصنف لم ياكل الحيتان ولم ينه عما صنعوا وقال (لم تعظون قوما الله مهلكهم اومعذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة الى ربكم ولعلهم يتقون)، فبينما هم على ذلك ،اصبحت تلك الفئة الصالحة التي امرت ونهت في انديتهم ومساجدهم وفقدوا الناس فلا يرونهم فقال بعضهم لبعض ان للناس لشانا فانظروا ماهو ؟ فذهبوا ينظرون في دورهم فوجدوها مغلقة عليهم ، قد دخلوا ليلا فغلقوها على انفسهم فاصبحوا فيها قردة وخنازير وانهم ليعرفون الرجل بعينه وانه لقرد ، والمراة بعينها وانها لقردة ، والصبي بعينه وانه لقرد ، فالشباب مسخوا قردة ، والشيوخ خنازير ٠

ذلك ما يرويه ابن جرير عن ابن عباس ، ومهما تكن درجة الحديث من الصحة فهو محل للتفكر العميق ولدراسته من ناحية وضعية لادراك ما يوحي به من حال العصر الذي يتحدث عنه ٠ ومقارنته بالواقع في عصرنا ، من افتراق الناس ثلاث فرق ، مرتكبون للموبقات ، وساكتون عنهم ، والفئة القليلة التي تحاول الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فتكون محل الاستهزاء من الاولين ومحل غرس الياس في نفوسهم من الاخرين ٠ وقد اراد الله وامر المسلمين بان يقوموا

بالواجب المفروض عليهم وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر حينما وصفهم بانهم خير امة من أجل ذلك ، قال تعالى: (كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله)• وقال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه : (وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور)، وقد قرن نصحه له بان يامر وينهى بضرورة الصبر على ما يصيبه لان ذلك طبيعة الحال ، فكل من يامر وينهى لابد ان يلقى نوعا من المضايقة والاضطهاد فيجب ان يصبر ويتجاهل الاذى •

ووصف الله المومنين ايضا بقوله : (التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الامرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله) •

وقال سبحانه : (الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) •

فهذه الايات وامثالها تبين وجوب الجهر بالحق والنهي عن المنكر تفرض ذلك على الراعي وعلى الرعية ، لتشاركهم في المسؤولية ، ولمصيرهم الواحد في كلتا الحالتين حالة الامتثال وحالة التخلي •

وفي الحديث الشريف : من استطاع منكم ان يغير المنكر بيده فليفعل ومن استطاع ان يغيره بلسانه فليفعل ، ومن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان •

ومن المعلوم ان التغيير باليد موجه قبل كل شيء لاولي الامر الذي بيدهم الحل والعقد والامر باللسان متوجه للجميع للذين يخاطبون اولياء الامر ويوجهون اليهم النصح والارشاد ، ويذكرونهم بمجريات الوقائع والاشياء ، وكذلك الوعاظ والمرشدون الذين تسندهم عادة الدولة في ديار الاسلام ، ولئلا يتطور امر تنفيذ التغيير باليد واللسان الى نوع من التهافت او الاضطراب نظم المسلمون ذلك في نظام الحسبة ، فاعطى الشارع الحق لكل مومن يتحقق من وجود منكر ان يرفع به دعوى الحسبة للقاضي المسلم الذي ينظر في الدعوى فان ثبتت لديه حكم بما يقتضيه القانون الشرعي ، كما اسس اولياء الامر وظيفة المحتسب الذي ينظر بنفسه ويبحث عن المخالفات والمنهيات في الاسواق والمعاملات ويقضي فيها باستعجال وبوسائل لا تسمح المسطرة بمثلها للقضاة العاديين ، ونحن اليوم اعتمدنا في النظام القضائي وظيفة القضاء القائم او وكيل الملك ، الذي توجه اليه الشكاوي وان كان التشريع في هذا الموضوع مايزال ناقصا في بعض جوانبه ليصبح حالا محل الحسبة الشرعية ، ترجع اليه الشكاوي بما لا يتفق مع الشريعة ممن يستطيعون الامر والنهي باللسان فيقوم بواجبه فيتم بذلك المقصود الشرعي ، ويبقى الامن والنظام محفوظين ، مع طمانة من يشتكي من ان يواخذ بشكواه ولو لم تثبت بوسائل الاثباتات الشرعية .

ومع هذافان هنالك وسائل الامروالنهي عن طريق المنظمات الوطنية المعترف بهاكالصحافة في حدودالحرية المعقولة ،وكالمجالس النيابية والاتصال المباشربملك البلاد اذا كان الامراهم من ان يرفع في قضية حسبية او مقالة صحفية .

ومن شا ن خلفاء المسلمين ان يتقبلوا نصائح رعاياهم دون ان يروا فيها غير حب الخير والارشاد الى ما فيه الحق ، وقد خطب ابو بكر يوم بويع بالخلافة فقال : (اذا رايتم في اعوجاجا فقوموه ، فقال له بعض الصحابة والله لو راينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا ، وقال بعض الحاضرين لامير المومنين عمربن الخطاب اتق الله ، فقال له رجل لا توذ امير المومنين فقال له عمر دعه ، فوالله لا خير فيكم اذا لم تقولوها ، ولا خير فينا اذا لم نقبلها)

وقال عليه السلام :لتامُرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر اوليسلطن الله عليكم شراركم ، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم ،والدعوة هنا قد تكون بمعنى الرجاء في الله والتعلق به وقد تكون بمعنى الدعوة الى الخيروالتبشير به للناس ولاولياء الامر فلا يستجيب اولئك لمن يدعوهم.

ومن مكر الله بالذين لا يستجيبون ، ولا يستمعون للذكرى ، ويعبثون مايلقى اليهم ، النصائح ان يمهلهم الله سبحانه ، ويفتح عليهم ابواب الخيرات حتى اذا فرحوا واطمانوا على ما هم فيه اصابتهم النقمة الكبرى ذلك قوله تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوابما أوتُوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .)

واما القسم الثالث وهو الذي لا يستطيع التغيير بيده ولا بلسانه فيجب عليه انكار الواقع المعاش بقلبه ، و ليس معنى ذلك انه يسكت ويمضي لحال سبيله دون مبالاة بل عليه ان يفكر دائما في حال امته وفي اسباب ازالة ما اصابها من سوء ، ويقاطع الظلمة والفجرة

وكل ذوي المناكر فلا يداهنهم اي يجاملهم بالقول او الابتسامة والتعايش السلمي معهم ، والحضور في محافلهم والقعود معهم في مجالسهم ، وقد قال الله لنبيه (واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)

ان الفئة الثالثة من فرق الامة اي الامارة بالمعروف الناهية عن المنكر بواحدة من الوسائل الثلاث المذكورة في الحديث هي الطائفة التي ينجي الله بها الامم والشعوب ، اذا اصبرت وعملت بمقضى ما اخذته على نفسها • وهذه الفئة موجودة دائما بين المسلمين وعدا من رسول الله صلعم اذ قال : " لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى ياتي امر الله وهم على ذلك !!

وقال عليه السلام بدأ هذا الدين غريبا ، وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء قيل ومن الغرباء يا رسول الله : قال الذين يحيون ما افسد الناس من سنتي •

ومن هذه النصوص الشرعية نفهم ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، داخل في التضامن العام الواجب على المسلمين فيما بينهم ، على اساس انهم اخوة ، (انما المومنون اخوة)، وعلى اساس انهم مرتبطون فيما بينهم ارتباط الاعضاء بالجسد الواحد • ومن امثاله ص قوله : مثل المومنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وقال عليه السلام المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك ص بين اصابعه ، ولذلك فان الدعوة الى التضامن بين المسلمين اصبحت واجبة متحتمة ، لاسيما وقد عمل المستعمر الصليبي الصهيوني على تفرقة الامم الاسلامية وتوزيع الشعب الواحد منها

على فرق واحزاب يشتم بعضه بعضا ويتئا مر هذا على ذلك ، وما الاحداث التي تصيب المسلمين اليوم في المشرق والمغرب الا برهان قاطع على ما تحركه ايدي الاستعمار وعلى ما يوجبه صالح المسلمين من تضامن وتكافل في الدفاع عن النفس وحماية بيضة الاسلام ٠

ان المسلمين امة واحدة وان اختلفت حكومات اقاليمهم ، لان تعدد الحكومات ليس الا أمراً تنظيميا يجعل كل حاكم لثغر من ثغور الاسلام مسؤولا عنه ، ويجعل رعاياه جنودا تحت قيادته حتى لا يدخل على العالم الاسلامي من ذلك الخذلان او الانحلال ، ثم الثغور الاسلامية كلها امة واحدة وحكامها جميعا جزء من اهل الحل والعقد الذي يجب ان يتشاور ويتضامن . ويسير في خط واحد ويتحرك كله اذا اصيب ثغر من الثغور للتحقق عمليا بان تلك الثغوراعضاء لجسم واحد هو العالم الاسلامي ، اي الامة الواحدة ذات الدين الواحد كما قال تعالى : وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون .)

ومن حسن الحظ ان المسلمين اخذوا ينتبهون لهذه الحاجة الملحة فقرروا الاخذ بفكرة التضامن وادت هذه الدعوة المباركة الى عقد مؤتمر القمة الاسلامي بهذه الديار تحت رئاسة جلالتكم ومساندة ملوك ورؤساء المسلمين وفي مقدمتهم حامل راية الدعوة التضامنية الملك فيصل رعاه الله ، وبفضل الجهود المبذولة تحقق تكوين كتابة عامة ومنظمات موازية والمحاولات الجدية لخلق انظمة اسلامية لا شرقية ولا غربية ، ان يكن ذلك لازال في بدايته وما زال لم يعط ثماره فانه لزرع طيب وغرس متين ، اذا واصلت الامم الاسلامية العمل في اطاره ادى الى النتيجة المطلوبة باذن الله ٠

واذا رايت من الهلال بدوه ايقنت ان سيصيرُ بدراً كاملا

ولقد كان ردّ الفعل للد عوة الاولى في التضامن يوم انعقد مؤتمر العالم الاسلامي سنة 1965وكان لي شرف نيابة رئيسه بمكة المكرمة ، فتحامل المرجفون علينا وزعموا اننا ندعوا لحلف اسلامي بين المسلمين وبين بعض الدول مع ان هذه الدول متحالفة مع غيرنا واقفة في صف اسرائيل وقوف الصامد الذي لا يفكر في ان يرعوي او يرجع الى الحق ٠

والواقع ان العالم الاستعماري الصليبي الصهيوني الماركسي لا يريد ان ينبعث المسلمون من مرقدهم ولا ان يعودوا الى العمل بما يجب عليهم من الجد والكد في سبيل بعث اسلامي ديني وحضاري وثقافي ، لان الاسلام كلمة تدل على العقيدة والشريعة وعلى الثقافة الملهمة من الايمان والعمل بالاوامر الالاهية والحضارة التي قوامها تضامن المسلمين وتماسك اخلاقهم ومجتمعاتهم ، وهؤلاء الاستعماريون يخافون من هذا الانبعاث لانهم يعرفون مايؤدي اليه من نفخ لروحانية الاسلام في سائر انحاء العالم المحتاج اليهاوالذي يتطلبها لا بلسانه ولكن بردود الفعل الدالة عليها اي بتلك الثورات المتناقضة والتظاهرات التي تعبر عن عدم الرضا بانظمة الشرق او الغرب والياس من تحقيق السعادة للانسانية عن طريق المادية الصرفة التي تبيح كل شيء وتجعل من الانسان حيوانا اباحيا لا يعرف للحريةمعنى)

لقد طلع علينا اخيراكاتب مسلم هو السيد سعيد حوى ، بكتاب هاد ، يدعو فيه لتجمع جند الله فكان مما انذر به هذه الاقوال التي نقلها عن اصحابها والتي نرى من المفيد التذكير بها لقا رئي هذه الصفحات والمتتبع لهذا الدرس فقد نقل عن مسؤول في وزارة

الخارجية الفرنسية تصريحا قاله سنة 1952 وهو : " ليست الشيوعية خطرا على اوربا فيما يبدو لي ، فهي حلقة لحلقات سابقة ، واذا كان هناك خطر فهو خطر سياسي عسكري فقط ، ولكنه ليس خطرا حضاريا تتعرض معه مقومات وجودنا الفكري والانساني للزوال والفناء ، ان الخطر الحقيقي الذي يهددنا تهديدا مباشرا عنيفا هو الخطر الاسلامي ، فالمسلمون عالم مستقل كل الاستقلال عن عالمنا الغربي ، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص ، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات اصالة ، فهم جديرون ان يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجة الى الاستغراب اي دون حاجة الى اذابة شخصيتهم الحضارية والروحية بصورة خاصة في الشخصية الحضارية الغربية ٠

وفرصتهم في تحقق احلامهم هي في اكتساب التقدم الصناعي الذي احرزه الغرب فاذا اصبح لهم علمهم ، واذا تهيات لهم اسباب الانتاج الصناعي في نطاقه الواسع انطلقوا في العالم يحملون تراثهم الحضاري الغني ، وانتشروا في الارض يزيلون منها قواعد الروح الغربية ، ويقذفون رسالتها الى متاحف التاريخ ، وقد حاولنا خلال حكمنا الطويل في الجزائر ان نتغلب على الشخصية التاريخية لشعب هذا البلد فلم نال جهدا في صوغ شخصية غربية له فكان الاخفاق الكامل نتاج مجهودنا الضخم الكبير ٠

ان العالم الاسلامي يقعد اليوم فوق ثروة خيالية من الذهب الاسود والمواد الاولية الضرورية للصناعة الحديثة ولكنه في حاجة الى الاستقلال في استغلال هذه الامكانيات الضخمة الكامنة في بطون سهوله وجباله وصحاريه ٠

انه في عين التاريخ عملاق مقيد ، عملاق لم يكتشف نفسه بعد اكتشافا تاما ، فهو حائر ، وهو قلق كاره لماضيه في عصر الانحطاط راغب رغبة يخالطها شيء من الكسل او بعبارة اخرى من الفوضى في مستقبل احسن وحرية اوفر ٠

فلنعط هذا العالم ما يشاء ولنقو في نفسه عدم الرغبة في الانتاج الصناعي والفني فاذا عجزنا عن هذه الخطة وتحرر العملاق من قيود جهله وعقدة الشعور بعجزه عن مجاراة الغرب في الانتاج ، فقدبؤنا بالاخفاق الذريع ، واصبح خطر العالم العربي وما وراءه من الطاقات الاسلامية الضخمة خطرا داهما يتعرض به التراث الحضاري الغربي لكارثة تاريخية ، ينتهي بها الغرب ، وتنتهي معه وظيفته القيادية، ثم ينقل عن لورنس يراون٠

لقد كنا نُخَوِّفُ بشعوب مختلفة ولكنا بعد الاختبار لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف ، لقد كنا نخوف من قبل الخطر اليهودي والخطر الاصفر باليابان وبتزعمها على الصين وبالخطر البلشفي ، الا ان هذا التخوف كله لم نجده كما تخيلناه لاننا وجدنا اليهود اصدقاء لنا وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الالد ، ثم راينا ان البلاشفة حلفاء لنا اثناء الحرب العالمية الثانية ، اما الشعوب الصفراء فان هناك دولا ديموقراطية كبرى تتكفل بمقاومتها ٠

ولكن الخطر الحقيقي كامن في المسلمين في قدرتهم على التوسع والاخضاع ، وفي الحيوية المدهشة العنيفة التي يمتلكونها الا انهم السد الوحيد في وجه الاستعمار الاوربي ٠

وياتي بعد هذا تصريح سالازار في حديث له مع بعض الصحفيين جاء فيه :

" ان الخطر الحقيقي انما هو الذي يمكن ان يحدثه المسلمون من تغيير في نظام العالم ، فقيل له : انهم في شغل عن ان يفكروا في هذا بخلافاتهم ونزاعاتهم فقال : اني اخشى ان يخرج من بينهم من يوجه خلافهم الينا ٠

ثم ينقل من ماديوك باكثول ٠

" ان المسلمين يمكنهم ان ينشروا حضارتهم في الدنيا الان بنفس السرعة التي نشروها بها سابقا اذا رجعوا الى الاخلاق التي كانوا عليها حين قاموا بدورهم الاول لان هذا العالم الخاوي لا يستطيع ان يقف امام روح حضارتهم ٠

ويقول البرمشادور في حديث عن المسلمين ٠

" ان هذا المسلم الذكي الشجاع قد ترك لنا حيث حل آثارا علمية وفنية . آثار مجده وفخاره ٠

ان هذا المسلم الذي نام نوما عميقا مئات السنين قد استيقظ واخذ ينادي ها انذا لم امت ٠ اني اعوذ الى الحياة لا لاكون اداة طيعة او ثقلا من البشر تسيرها العواصم الكبرى ٠

ويزيد قائلا : ومن يدري ؟ قد يعود اليوم الذي تصبح فيه بلاد الافرنج مهددة بالمسلمين فيهبطون من السماء لغزو العالم مرة ثانية في الوقت المناسب ، او الزمن الموقوت ٠

ويقول توينبي في محاضرته عن الاسلام والغرب والمستقبل ، هناك من يفترض مقدما ان الخليط المتنافر الذي نتج عن غزو الغرب سيتطور تدريجيا وسلميا الى تركيب متجانس وسيشكل هذا التركيب بدوره تدريجيا وسلميا ايضا نوعا من الابداع الجديد ٠

قد ينتهي الخليط الى تركيب متجانس وقد ينتهي بانفجار مدمر وفي حالة وقوع هذه الكارثة ، سيكون للاسلام دور مختلف تماما هو دور العنصر الفاعل في ردة فعل عنيفة تقوم بها البروليتاريا العالمية للشعوب المسحوقة ضد اسيادها الغربيين ، صحيح ان هذه الامكانية المدمرة للاسلام لاتظهر الان حتمية الوقوع ، لان الكلمة المؤثرة : (الوحدة الاسلامية والتي كانت دائما بعبع المستعمرين الغربيين منذ استعمالها في اللغة السياسية للسلطان عبد الحميد بدات مؤخرا تفقد سيطرتها التي كانت لها على عقول المسلمين وليس من الصعب علينا ان نرى العوائق الذاتية الموجودة في الدعوة لمثل هذه الحركة الاسلامية الشاملة ٠

صحيح ان الوحدة الاسلامية قائمة ولكن يجب ان نضع في حسابنا ان النائم قد يستيقظ ، اذا ثارت البروليتارية العالمية للعالم المتغرب ضد السيطرة الغربية ونادت بزعامة معادية للغرب ، فقد يكون لهذا النداء نتائج نفسانية لا حصر لها في ايقاظ الروح النضالية للاسلام حتى ولو انها نامت نومة اهل الكهف اذ يمكن لهذا النداء ان يوقظ اصداء التاريخ البطولي للاسلام ، وهناك مناسبتان تاريخيتان كان الاسلام فيهما رمز سمو المجتمع الشرقي في انتصاره على الدخيل الغربي ٠

ففي عهد الخلفاء الراشدين بعد الرسول " صلى الله عليه وسلم " حرر الاسلام سوريا ومصر من السيطرة الرومانية التي اثقلت كاهلهما مدة الف عام تقريبا وفي عهد نور الدين وصلاح الدين والمماليك احتفظ الاسلام بقلعته امام هجمات الصليبيين والمغول ٠

فاذا سبب الوضع الدولي الان حربا عنصرية يمكن للاسلام ان يتحرك ليلعب دوره التاريخي مرة اخرى ، وارجو ان لا يتحقق ذلك ، بذلك الرجاء ختم توينبي كلمته : ولكن الرجاء في الله ان يحقق ذلك سريعا وان يهدي المسلمين للاخذ باسباب تحقيقه ٠

نستنتج من اقوال هؤلاء المفكرين والسياسيين الاوربيين ان الخطر الاكبر في نظرهم هو عودة العالم الاسلامي الى القيام بدوره التاريخي الذي ينتظروه ، والذي يخوفهم على الخصوص امران :

الاول يتعلق بعودة المسلمين للتمسك بالعقيدة والاخلاق الاسلامية التي هي شريعة الله للانسان لان الاسلام لا يفرق بين الاخلاق وبين الدين ، لان رد الفعل الانساني لاوامر الله ونواهيه سلوك وهو بذلك خلق ، ليس في الاسلام اخلاق تجريدية او اخلاق المدينة او المنفعة كما يقول فلاسفة الغرب ، واذن فالعودة الى الخلق الاسلامي يعني العودة الى صفة الرجل المومن الفعال الذي يصبح عامل الله الحقيقي في صنع التاريخ وتسيير الكون ٠

الثاني - نهوض المسلمين من الوجهة الصناعية ، اي ان يهتم الشعب الاسلامي بالتصنيع فلا يبقى حينئذ مُصدِّر المواد الاولية للاجانب ولا سوقا لهم ، ولا يبقى ابناؤه عمالا وجنودا للمستعمرين ، وهذا يدل على مقدار الحاجة الملحة الى التصنيع الحقيقي والى ان يتعاون

المسلمون على تخطيط مشترك للاستقلال الاقتصادي بحيث يصير اقتصاد المسلمين وانتاجهم متمما لبعضه ، وحينئذ يمكنهم ان يمثلوا عالما اقتصاديا ذا اكتفاء ذاتي ، ولكن غير مسدود للاتصال بالعالم وبتبادل المنافع مع مختلف الدول على اساس المساواة ومراعاة المصلحة العامة لجميع شعوب الاسلام ، كما تفعل الصين مثلا في توجيه اعمالها والبحث عن عملائها طبق ما تقتضيه منفعة دولتها الكبرى وكما تفعل الولايات المتحدة التي تمثل اعظم مراكز الانتاج والاستهلاك في العالم ، ان هذا لا يتم للمسلمين الا اذا عادواللبحث عن الوحدة الاسلامية وان احتفظوا باستقلالاتهم السياسية ، لان العبرة بالوحدة في التشريع واللغة المشتركة التي يجب ان تكون لغة القرآن كعامل ارتباط وتفاهم بين الجميع ، وفي التخطيط الاقتصادي المشترك الذي يجعل خيرات المسلمين للمسلمين وفي الدبلوماسية الخارجية التي لاترى في الارتباط بالغير منفعة الا على اساس الصالح الاسلامي العام ،

ان مؤتمر القمة الاسلامي وكتابته الدائمة صالحة لان تسير الدول الاسلامية في هذا الاتجاه عن طريق التدريج الذي لا طفرة فيه ولا تصرفات مخطرة ومخيفة ، بل لا بد له من السير بالحكمة وسلوك سبيل المصالحة والمفاهمة مع الجميع ، واذا نجح في مساعيه فانه سيصبح مؤتمرا معبرا عن الخطة العامة للمسلمين في كل شؤونهم وسيصبح تدريجيا بمثابة المؤتمر الامريكي الذي ينظم ولايات امركا المتحدة في مجتمع واحد قوامه الاصول الدستورية العامة ، واهل الحل والعقد فيه هم ممثلوه داخل مجالسه ومنتدياته ، وفي السلطة التنفيذية التي يختارها الجميع في اطار عقيدة الدولة وتوجيهات الشعب ،

فعلينا اذن ان نعمل بكل جهودنا لدعوة المسلمين حكومات وشعوبا الى استبدال القوانين الغربية بالشريعة الاسلامية وتربية ابنائنا على اخلاق الاسلام التي هي احترام الشريعة باقسامها ، والى بذل الجهود المشتركة لتصنيع العالم الاسلامي ، وتوجيه ثرواته الهائلة الى هذا الميدان ٠

ان العالم يتكيف اليوم لتصبح فيه اربع كتل قوية معادية لنا ، الاولى الكتلة الامريكية الشمالية والجنوبية التي ستلزم باتحاد وتناسق ، والثانية الكتلة الغربية التي تسيرفي طريق السوق المشتركة الى وحدة غربية ، اما الثالثة فهي روسيا والد ول السائرة في فلكها ، والرابعة الصين وحلفاؤها ، وسيبقى بعد ذلك بعض الد ول الصغرى من مختلف المذاهب تصبح تابعة قليلا او كثيرا لاحدى هذه الكتل ، ويبقى العالم الاسلامي الذي يكون ازيد من سبعمائة مليون متجاورة وغنية ، فاما ان توحد صفوفها لتصبح الكتلة الخامسة القائمة بنفسها المتحررة من الهيمنة الاجنبية عليها ، واما ان تبقى حيث يضعها الاقوياء موزعة قطعا ٠ كل منها تابع لاحدى هذه القوى المتحدة والمتنافسة في آن ٠

ونعود الان لاستكمال المثل الذي ضربه الرسول عليه السلام فبعد ان عرفنا الممثل له والفكرة السائدة في الاقصوصة ، نصل الى الممثل به وما يتبعه من عرض ينتهي الى نفس الفكرة المقصودة التي هي التضامن واقامة الحدود واتباع الشريعة ٠

قال عليه السلام : مَثَل قوم استهموا سفينة الخ المثل إما بفتحتين او بكسرالميم وإسكان الثاء ٠

والقوم هنا الجماعة من اثنين فمافوق ، استهموا سفينة ، اي اشتركوا في سفينة اما بامتلاكها واما بكرائها ، فلما ارادوا الركوب اختلفوا ، فقال بعضهم ناخذ اعلاها وقال بعضهم ناخذ اسفلها ، فالاستهام حينئذ يوذن بالشركة وبامتلاك اسهمها • فاتفقوا بعد الاختلاف على ان يستهموا اي يضربوا السهام ، والمعنى ان يقترعوا وذلك يوضع الاقلام او السهام في آنية واجالتها وقد جعل عليها علامة كل واحد اما بالكتابة او باختلاف الالوان ، فكانت النتيجة اي اصاب بعضهم اعلاها ، وبعضهم اسفلها ، فاتخذ كل واحد نصيبه الذي اعطاه اياه الاقتراع ، والى هنا يمكننا ان نبحث فقهيا في مشروعية الاشتراك في ملكية السفينة او كرائها ، وفي طريقة الاستهام بمعنى الاقتراع •

موضوعان فقهيان يبدوان من طريقة العرض في التمثيل النبوي

اما الملكية للفرد أو لجماعة تشترك فيها فهي مباحة شرعا ، ولكن على اساس ان الملكية الاصلية هي لله تعالى لان الاسلام لا يرى الملكية اصلا للفرد ولا للدولة بل هي لله تعالى بدءا قال تعالى : (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وهذا الشيء المملوك يباح ان يصبح مجازا في ملكية الفرد او الجماعة او الدولة على اساس انهم خلفاءالله في تسيير هذا الشيء طبق ما فيه مصلحة معترف بها شرعا ولتتحقق للملكية الوظيفة الشرعية المجعولة لها ، لان للملكية وظيفة اجتماعية وليست هي نفسها الوظيفة الاجتماعية كما يتوهم بعض المؤلفين ، وهذه الملكية الانسانية المجازية ليست شيئا طبيعيا بل هي جعلية اي بجعل من الشارع ولذلك يمكن تدخل ممثل الشرع في تسييرها والنظر في مالكها المشرف عليها هل يقوم فيها بما يحقق مالها من وظيفة اجتماعية او يصرفها حسب هواه •

والملكية هذه يفرض الاسلام ان تكون ناشئة عن الاسباب الشرعية ، التي اهمها العمل والكسب او الميراث والعطاء ٠

والملكية الخاصة لا تمنع من وجوب المنفعة العامة بها ، فصاحب الحاجة والذي ليس له من الملك شيء له حق ثابت على المالك يوديه له اختيارا او اكراها (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) وقال تعالى : (كلوا من ثمره اذا أثمروآتوا حقه يوم حصاده) هذا الاتجاه الاسلامي في ملكية المال وفي منفعته يمنع من قيام راس المال المستغل طبق ماهو واقع في النظام الراسمالي تحت انظمة الحكم الديموقراطي في اوربا وامريكا ، فهو يحرر المجتمع الاسلامي من هيمنة اصحاب رؤوس المال عليه واستغلاله لفائدتها ، لانه يبحث عن مصدر الكسب ويفرض ان يكون حلالا ، كما يفرض ان يستعمل في غير ماهو ممنوع شرعا ، ويوجب عليه حق المحروم وما يحتاج اليه المجتمع من منافع عامة ٠

كما ان هذا الاتجاه الاسلامي ، وان كان يبيح ويعترف بملكية الدولة للقطاع العام فانه يحول دون هذه الملكية المجازية ايضا واستبداد اولياء الامر في التصرف فيها كيف ارادوا بل يجب ان يكون مصدرها حلالا اي لا غصب ولا تعدي فيه ولا مجاوزة للحدود المشروعة وان لا تكون السلطة وحدها المهيمنة على الاموال مستبعدة مساهمة الشعب في التدبير والمراقبة فتخلق بذلك في نفوس الجماعة عدم الاهتمام والشعور بعدم تحمل نصيبها من المسؤولية في تسيير ذلك القطاع العام على اعتبارانه داخل في راسمالية الدولة ، كما هو الواقع في الانظمة الشيوعية ٠

واذا كنا لا نريد ان نتوسع في امر الملكية لاننا لسنا بصدد دراستها بتفصيل ، فلا بد من ان نقول : ان الملكية التي هي لله في الاصل ، يمكن ان تعتبر وتسمى مجازا ملكية :

1/ للفرد
2/ للجماعة
3/ للدولة
4/ للمؤسسات العامة والاوقاف

ولكل من هذه الاقسام تفاصيل في الاحكام ، كما ان كلا منها يمكن ان يكون ملكا للاصل والمنفعة او ملكا للاصل فقط ويملك المنفعة شخص آخر او العكس وكل ذلك جائز بشروطه ، واما الاشتراك في الملكية فهي جائزة بين الاثنين والجماعة في كل ما يصح تملكه ، قال فقهاؤنا :ولا يكون الرجل شريكا للرجل الا اذا شاركه في رقاب الاموال على الاشاعة ، واما ان لم يشاركه في رقاب الاموال فليس بشريك ، وانما هو خليط وليس كل خليط شريكا ، فالخلطة اعم من الشركة ، قال تعالى في الخليط : (ان هذا اخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزني في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض) سماهم الله تعالى بالخلطاء لما لم يشتركوا في اعيان النعاج ، وقال تعالى في الشركة في عين الاموال : (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا) يقول الله تعالى: هل يستوي العبد الذي يكون بين الجماعة المشتركين السيئة اخلاقهم والعبد الذي يكون خالصا لرجل واحد ، فيرضيه لخدمته ويعرف له حقه ، فيثيبه على عمله او لا يستوي ذلك ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للكافر الذي يعبد آلهة

شتى والمومن الذي لا يعبد الا الله ، وقال تعالى : واذا حضر القسمة اولوالقربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه) فدلهم ذلك على اشتراكهم في المال المقسوم قبل القسمة كائنا ذلك المال ماكان من الاموال .

والشركة للربح والكسب وابتغاء الارتفاق تنقسم على ثلاثة اقسام شركة الاموال وشركة الابدان وشركة الوجوه وهي شركة الدمم ، والاولان جائزان والثالثة وهي شركة الدمم ممنوعة ، وتعريف ذلك وتفاصيله في كتب الفقه ٠

واما الاستهام الاشتراك بالاسهم فان كان كالسفينة يستعملانها معا بالسفر عليها ونقل سلعهما ، او كرائها للغير فلا باس بذلك ، واما شركات المساهمة المعروفة اليوم للتجارة والارتفاق ولا سيما خفية الاسم منها فلا يظهر ان الاسلام يبيحها لان ما كان من نوعها لابد ان يبقى فيها السهم لمالكه ولا ينيب عنه غيره ويعمل بنفسه ، واذا بيع سهم لاخر انحلت الشركة على ما يقتضيه الفقه الاسلامي ، وهذا النوع من شركات المساهمة انما يعرف في النظام الراسمالي وهو مختلف عن النظام الاسلامي ، ،وقد افاض فقهاؤنا القول في احكام الشركات بانواعها ، ولم تكن معروفة شركة المساهمة ولكن احكام الشركات التي ذكروها تدل على عدم جوازها الا بالشروط التي تدخل في ضمن واحدة من الشركات الاسلامية التي هي شركة الاموال باقسامها الثلاثة المفاوضة والمضاربة والعنان او شركة الابدان ٠

اما كراء السفن فيجوز من بلد الى بلد اذا عينوا وقت الخروج فيها باي وسيلة كان سيرها ولا يحتاج فيها الى اشتراط مدة اذا

كان سيرها بالرياح لان الرياح تسرع وتبطيء ويكون الكراء في المعين منها ومضمونا ، وان كان الكراء في سفينه مضمونه غير معينه من السفن التي تسمى بكذا صفتها كذا ومحلها كذا يحضى ماله فقارب خدمتها وجميع آلاتها كلها التي تحتاج اليها ونواتيتها في مرسى بلد كذا في اول شهر كذا يشرع فلان في وسقها والسفر فيها الى موضع كذا ذاهبا وراجعا ٠

فان كان انما اكترى موضعا من المركب يسافر فيه الى الحج او الى غيره او ليحمل في المركب المذكور متاعا او طعاما وأراد ان يكتبا ذلك ، فقد كانوا يكتبون في مثل ذلك : اكترى فلان بن فلان من فلان بن فلان سريرا وسطيا في مركبه المسمى بكذا او موضعا بطارمة عرضها كذا وطولها كذا في ناحية كذا منه ـ او موضعا في ما ئدته ليركب في ذلك هو وجاريته وعبده ويحمل من الكسوة والزاد والغطاء والوطاء ما يصلح لمثله ومالا بدمنه ولا غنى به عنه او ليجعل في المركب المذكور كذا او كذا قفيزا من الطعام بكيل كذا ويسافر فيه في وقت كذا بكذا دينارا ٠

ويحدد الكراء بجزء مما يحمل المركب اذا لم يشترط على رب السفينة تا خير اخذه ، ومبحث امتلاك السفن وكرائها طويل في كتب الفقه ، وطبعا فان التطورات التي حصلت الان في صناعة النقل البحري لا يعني الا اسلوب التعامل اما قواعد الفقه فلا تغيير فيها .

واذن فالشركة في السفن بالملك او بالكراء جائزة حسبما بيناه فاذا اختلف الشريكان في المحل الذي يجب ان ينوب كل واحد منهما كما هو الواقع في الاقصوصة النبوية قال احدهم اريد اعلى السفينة ، وقال الثاني انا الذي اريد الاعلى فانهما يستهمان في ذلك

اي يضربان السهام بينهما وهي القرعة ، واصلها مذكور في القرآن الكريم حيث قال تعالى لنبيه :(وما كنت لديهم اذ يلقون اقلامهم ايهم يكفل مريم) اختلفوا على كفالة مريم فحكم عليهم او اتفقوا على ان يلقوا الاقلام اي السهام عن طريق القرعة والصفة التي تتبع في ذلك عادة ان يكتب اسماء الشركاء في رقاع وتجعل في طين او شمع وتكتب اسماء المواضع المقسومة ، ثم تخرج اول رقعة من الاسماء ثم اول رقعة من المواضيع فيعطى من خرج اسمه نصيبه في ذلك الموضع ، وذلك بعد ان نقسم الفريضة وتقوم الاملاك المقسومة ثم تقسم قيمتها على سهام الفريضة ، هكذا جرى العمل في قسمة ما ينقسم من المواريث ولا مانع من استعمال اي وسيلة من وسائل القرعة الممكنة ، كالاتفاق على ملونين ابيض واسود فاذا خرج الاسود لفلان اخذ الاعلى من السفينة والعكس كذلك .

على كل حال استهم القوم حسب الاقصوصة النبوية في السفينة فاصاب بعضهم اعلاها واصاب بعضهم اسفلها فرضى كل بما خرج له بعد الاقتراع ، وكان لا بد للذين في الاسفل ان يمروا على الذين في الاعلى ليستقوا وياخذوا ما يحتاجون اليه من الماء ، قد ظن الذين بالاسفل انهم بطلوعهم الى الاعلى ومرورهم على اخوانهم للاستقاء يضرون بهم ففكروا في وسيلة يستغنون بها عن الصعود للاعلى ، فظنوا ان افضل وسيلة هي احداث ثقب في اسفل السفينة لياخذوا الماء مباشرة من البحر ، فاخذ واحد منهم الفاس ،وبدأ ينقر ارض السفينة فشعر به واحد من الذين في الاعلى فقال له ما ذا تفعل يا هذا ؟ فاجابه الاخر بكل بساطة لقد تاذيتم بمرورنا عليكم لاخذ الماء ولابد لنا من الماء فقلنا ننقر لنحدث ثقبا ناخذ منه ما نحن بحاجة اليه ، ولاشك ان هذا الفكر البسيط وهذا المشروع الخطر لو تم تنفيذه

لاصاب البحر منتذا لمائه فدخل السفينة وملأها فغرقت بمن فيها من سكان اسفلها وسكان اعلاها ، فالمصلحة اذن في عدم وقوع ذلك ، لكن الذين في الاسفل فكروا في تنفيذ نظرهم كانه صواب وهو في الواقع احداث هلاك محقق للجميع ، فماذا يجب ان يفعله الساكنون بالاعلى ؟ هل يتركونهم وما ارادوا ام مصلحتهم ومصلحة جيرانهم تقضي بالضرب على يد صاحب الفاس ومنعه من احداث الثقب الذي اراده ؟ هنا تجتمع فكرة الاقصوصة وتبدوا واضحة بعد العرض الشيق الذي رايناه ، وهي ان الساكن في الاعلى والساكن في الاسفل سواء في المصير الذي ينتظر هم بمشروع صاحب الفاس ، وبيدهم انفسهم جعل هذا المصيرنجاة للجميع اوهلاكا للجميع ،فان هم اي الذين في الاعلى اخذواعلى يد الناقر في اسفل السفينة ومنعوه مما أراد نجوا من الخطر المحقق ، ونجوا (بتشديد الجيم) اخوانهم المقيمين في الاسفل ، وان هم على العكس تركوهم يفعلون ما قرروه، اصابهم الهلاك فهلكوا هم الذين في الاعلى واهلكوا جيرانهم الناقرين لاسفل السفينة ٠

ذلك هو المثل النبوي لمن يرى العدول عن الحدود الالاهية وخرقها ، فان نهى منتهكي الحدود واخذ على يديهم نجا ونجا (بتشديد الجيم) وان هو ترك المنتهك في خطته وادهنه اي نافقه وربما سكت عنه او زين له سوء عمله فان النتيجة ستكون في الهلاك المحقق للمنتهك والمدهن للواقع في حدود الله والواقف عندها ولكنه ساكت عن ما يفعله غيره ٠

فالاقصوصة النبوية تضع امامنا شريطا يصور الحالة كما يمكن ان تجري ، هانحن نرى سفينة واقفة في مرسى معين ، وهاهما رفيقان يمتلكانها او يكتريانها ، ثم هاهما يختلفان فيمن ياخذ الاعلى

ومن ياخذ الاسفل وبعد مناقشة ومذاكرةيصلان الى اتفاق او يومران ممن بيده الامر ان يستهما ، وهاهما يكتبان اسميهما واسم الامكنة ويضعان في قدح يجيلانه ثم يفتحان الاوراق او ياخذان الاقلام ، بالوانها فيخرج الاعلى لهذا والاسفل لهذا ، ويطمئن الشريكان راضين بالحل القانوني الوحيد ، ويعيشان في جوار يحتاج فيه الذين بالاسفل للذين بالاعلى يمرون عليهم للاستقاء ولاشك ان الذين بالاعلى يدركون حاجة جيرانهم لهذا ، فهم وان تؤذوا لم يقولوا شيئا وانما الذين بالاسفل هم الذين احسوا كانهم يوذون اخوانهم ، وهاهم يفكرون فى الحل الممكن ويهتدون الى النقر ، الفاس بيد الرجل ويصيب الاخرين الهلع للمصير المنتظر من هذا العمل المتهور يسائل واحد منهم حامل الفاس بلهجة المستنكر لعمله ماذا تريد ان تفعل ؟ ويجيبه الاخر بكل بساطة اريد ان ارفع عنكم اذانا بثقب ناخذ منه الماء ، ونحس شعور صاحبنا الثاني حين يستمع لهذا القرار الخطير ونحس رد فعل رفقائه الذين في الاعلى ، وياتي السؤال عماذا يجب ان يفعل ؟ ان الذي بالاسفل يملك نصيبه ، والمالك يجوز ان يتصرف في ملكه بما يشاء ؟ ولكن لا ، للملك حدود معينة ، وله وظيفة اجتماعية ليس منها الاضرار بالناس ، للمالك التصرف في ملكه ولكن في حدود المصلحة الشرعية المقبولة ، واذن لا مجال للتريث في الا مر ولا للتساؤل عما يجب ان يفعل ، لان المصير اما النجاة واما الهلاك ولا اختيار غير الضرب على يد الذي يريد خرق السفينة واهلاك الجميع لينجوَ الجميع ٠

ان الاقصوصة النبوية تعطينا بفكرتها الاساسية وبالعرض المتسلسل وبالافكار الطارئة اثناءه درسا قيما تشريعيا واخلاقيا :
فاما من الوجهة التشريعية فهناك :

1/ اباحة الملكية الفردية والجماعية
2/ اباحة الاشتراك في الملكية الفردية او الجماعية .
3/ اباحة ملكية الانتفاع عن طريق الكراء كما اوضحنا
4/ الاستهام عند اختلاف المالكين على المكان الذي ياخذه كل واحد منهما .
5/ حق الساكن الاسفل ان يمر على الاعلى اذا كان ذلك ضروريا لاخذ الماء مثلا .
6/ الملكية كيفما كانت مقيدة بمالها من وظيفة اجتماعية
7/ يؤخذ على يد المالك اذا اراد ان يتصرف فيما له بما يضر بجيرانه وبنفسه .
8/ التضامن الاجتماعي بين افراد الامة ، والذي من اعظم مظاهره الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ٠
9/ الوقوف عند حدود الشريعة واجب وخرقه منكر يجب تغييره
10/ حدود الله هي شريعته التي يجب ان تكون القانون المبتع في احكام المسلمين واخلاقهم ٠
11/ على ولي الامر ان يضرب على يد الخارجين عن حدود الله وذلك ماهو جزء من الضمان الاجتماعي التي تكلف به الدولة ٠
12/ الاخوة الاسلامية تقضي بان يكون المومن للمومن كالبنيان يشد بعضه بعضا.
13/ الجريمة التي يرتكبها البعض ضد البعض تعتبر موجهة للمجتمع الاسلامي كله (من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكانما قتل الناس جميعا ومن احياها فكانما احيا الناس جميعا)
14/ المسلمون في كل جهة على ثغرة من ثغور الاسلام فاذا اعتُدِيَ على ثغر ما وجب ان تتحرك له كل الثغور ويقوموا لعدوهم قومة رجل واحد ٠

15/ المسلمون في كل انحاء الارض يجب عليهم ان يقيموا شريعة الله وان يتخلوا عن القوانين الاجنبية ، ويتخذوا تشريعاتهم من كتاب الله وسنة رسوله وفي اطار حدود الله تعالى .

اما من الوجهة الاخلاقية ، فانه لا يصح للمسلم ان يرى اخاه منحرفا عن الطريق ولا ياخذ بيده ليرده الى الصواب ، وذلك ما يستوجب القيام بالدعوة المستمرة والنصح الدائم لاولي الامر ولافراد الشعب ، وتكوين الطليعة المومنة المجاهدة بوسائل العصر وما تقتضيه مصلحة جمع الامة كلها على كلمة سواء وعلى منهج الاسلام ، ومقاومة التيارات الملحدة والمستوردة التي لا تتفق مع ديننا ومع ما نرجوه من مستقبل طيب ، ان سلوك كل واحد منا طبقا لرعاية حقوق الله وحقوق الانسان لشهادة صادقة تساعد الغير على اقتفائنا في اسلوبها كما قال تعالى : (لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) .

ان الله سبحانه وتعالى يامرنا بان نامر بالمعروف وننهي عن المنكر ويامر . اولياء الامور قبل غيرهم ، لان الله اعطاهم السلطة التي يغيرون بها المنكر والتي ينشرون بها المعروف ، والامة كلها تبع لهم ، فنحن جميعا في الحقيقة مطالبون بان نساعد ولي الامر في هذه المسائل التي هي من قبيل الرجوع الى الله والرجوع الى اللغة العربية والرجوع الى الشريعة الاسلامية ، ويجب علينا ان نقول هذا ونكرره ونبلغه ولاشك ان جلالة الملك ادرى الناس بهذه الحقائق واولاهم بان ينفذها لانه من سلالة الرسول صلعم ، والرسول هو الذي انزل عليه هذا القرآن . وهو الذي انزل عليه هذا الوحي الذي يامرنا بهذه الاشياء كلها . فنسال الله سبحانه وتعالى ان يوفقنا الى اصلاح ذات بيننا ، والى اصلاح ما بنا من

السوء ظاهرا وباطنا . وان يوفق جلالتكم وجميع ملوك المسلمين ورؤساء المسلمين الى الخير العميم ، وقد بداتم بمؤتمر القمة الاسلامي والامانة العامة التي تفرعت عنه ونحن نعلق على ذلك آمالا كثيرة من العودة الى قانون واحد يوحد بين المسلمين والكتلة الاسلامية والوحدة الاسلامية فتزول الضغائن وتزول حرب الاعصاب بين المسلمين وبين الاخوة .

ونرجو الله سبحانه وتعالى ان يجعل الخير على يدكم وان يوفقكم وان يعينكم ، نقول هذا من صميم قلبنا ، وان في ذلك خير امتنا وخير بلادنا ، ونرجو الله تعالى ان يطيل عمركم وان يؤيدكم وان يبقى ولي عهدكم وان ينبته النباة الحسن ويجعل منه ذرية بعضها من بعض خيرا افضل من خير وان يطيل كذلك عمر ابنائكم الكرام والاسرة الكريمة ، والله تعالى يخير لنا ولكم ويرزقنا الخير باذنه سبحانه وتعالى .

فهـــرس

تصـديـــــر..... 5

شرح الفقرات الأولى من حديث :
ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي 9

شرح تتمة حديث : ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي ... 35

القرآن معجزة خالدة 61

شرح حديث : أنا عند ظن عبدي بي 103

شرح حديث : أي الإسلام خير 129

شرح حديث : من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين 171

شرح حديث : أنا أولى من كل مؤمن من نفسه 199

شرح حديث : مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها 235

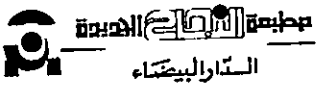
مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء